الإسلام والمسيحية

وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى

دكتور
جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار الفكر الجامعي
٣٠ شارع سوتير - الأزاريطة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاســلام والمســيحية
وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى



الإسلام والمسيحية

وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى

دكتور
جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار الفكر الجامعي
٣٠ شارع سوتير - الأزاريطة

الطبعـــة الأولى ١٩٨٦

إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

"قرآن كريم"



فهـــــرس المحتـــويات



مقدمــة

يضم هذا الكتاب بين دفتيه أربعة موضوعات متصلــة ببعضها ، تتناول تاريخ العلاقات السياسية والحضارية بين العالم العربى الاسلامى والعالم الأوروبى المسيحى ، فى جبتهيهما الشرقية والغربية ، خــلال الحقبة الوسيطة من التاريخ • الموضوع الأول عبارة عن بحث القيته فى الندوة الثانية للمؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الذى عقدته الجامعة الاردنية وجامعة اليرموك فى عمان بالأردن فى الفترة الواقعة من ١٦ الى ٢٢ مارس ١٩٨٥ • وعنوانه « العلاقات الاسلامية البيزنطية فى الشام وتخومه فى صدر الاســلام ، فى ضوء صراع القــوى بين المسلمين والمسيحيين فى العصور الوسطى » • وقد عالجت فيه بالتفصيل تاريخ تلك العلاقات اعتبارا من سنة ٥ هـ وحتى سنــة ١٦ هـ (٦٢٦ — ٦٣٧م) ، ملقيا الضوء على ماغمض منها ، مع تحديد مكانها فى الصراع الطويل الممتد بين المسلمين والمسيحيين فى العصــور الوسطى ، موثقا المادة بالمصادر الاصلية، من عربية وبيزنطية وأرمينية، الى جانب المراجع المتخصصة من عربية وغير عربية •

أما الموضوع الثانى وعنوانه « دراسة فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية » ، فقد بدأت فى اعداده عندما انتدبت استاذا زائرا للعمل بجامعة اليرموك بالأردن خلال الفصل الدراسي الثانى من العام الجامعى ١٩٨٢/١٩٨٣ ، حيث ألقيت سلسلة من المحاضرات عن هذه الحضارة وخصائصها ومقوماتها وأصولها • وتقوم فكرة هذه الدراسة على أن الازدهار الحضارى الذى تمتع به العالم العربى الاسلامى فى فترة من تاريخه ، كان يسير جنبا الى جنب مــع قوته السياسيــة • والعكس صحيح • فعندما أصاب الشلل هذا العالم نتيجة المتغــيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى كلا العالمين الاسلامى والمسيحى ، توقف الازهار الحضارى لتعقبه فترة من التدهور والانحلال • بمعنى أن القوة

السياسية والازدهار الحضارى فى العالم العربى الاسلامى ، كانا يسيران جنبا الى جنب فى خطين متوازيين • وهذا نفس مايقال بالنسبة لفترات الضعف السياسى وما يصاحبها من انحسار حضارى • وقد ذيلت الدراسة بقائمة تضم عددا منا لمراجع المتخصصة من عربية وأجنبية ، أشرت اليها فى المتن •

وعنوان الموضوع الثالث « دراسة فى تاريخ الحركة الصليبية : مصادرها ، وعوامل قيامها » • أستهل القول بأن الحركة الصليبية هى موضوع تخصصى الدقيق منذ اعدادى لرسالتى الماجستير والدكتوراه ، وطوال عملى بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية مدرسا ، فأستاذا مساعدا ، فأستاذا لتاريخ العصور الوسطى ، وحتى اليوم • وقد تضمنت هذه الدراسة العريضة الشاملة خلاصة عملى فى هذا المجال ، وتناولت فيها مسألتين : الأولى تتعلق بمصادر الحركة الصليبية ، من عربية وأجنبية وأهم الملاحظات عليها • والثانية استعرضت فيها أبرز العوامل والأسباب التى أدت الى قيام تلك الحركة ، من رئيسية وثانوية ، مباشرة وغير مباشرة • وأوضحت أن الحركة الصليبية لم تكن عفوية أو وليدة الصدفة ، و أنها لم تقم فجأة وبدون سابق انذار ، وأنها لم تكن نتيجة عامل بالذات دون عوامل أخرى • انما كانت نتيجة عوامل عديدة متباينة متفاوتة التأثير ، ترجع جذورها الى ما قبل قيامها بعشرات بل بمئات من السنين • وأدت فى نهاية الأمر الى اندلاع شرارتها التى استمرت جذوتها مشتعلة ثلاثة قرون من الزمان ، هى القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية) ، واستمرت آثارها بعد ذلك حتى نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث • وذيلت الدراسة بثبت ببعض المراجع المتعلقة بتاريخ الحروب الصليبية ، التى أشرت اليها فى النص • أما بقية مصادر ومراجع تلك الحروف فيوجد بيان بها فى نهاية الموضوع الرابع •

والموضوع الرابع والأخير وعنوانه « الوحدة وحركـات اليقظة العربية ابـان العـدوان الصليبى » فقد سبق صـدوره فى كتيب فى طبعتين : الأولى طبعة الاسكندرية سنة ١٩٦٦ ، والثانية طبعة بيروت سنة ١٩٨١ • وقد ضممته الى هـذا الكتاب لصلته الوثيقة بفكرتـه وفلسفته ومنهجه • وهو مزيد عن الطبعتين سالفتى الذكر بما أدخلته عليه من اضافات ، ومنقح بما جددته فيه من صياغات • كما أنه موثق بمختلف المصادر والأصول المتعلقة بتاريخ الحركة الصليبية ، من عربية ولاتينية وفرنسية قديمة وبيزنطية وأرمينيـة ، الى جانب المراجـع المتخصصة من عربية وغير عربية •

والله ، سبحانه وتعالى ، أسأله التوفيق والسداد ،

الاسكندرية فى يناير ١٩٨٦

جوزيف نسيم يوسف



الموضـــوع الاول

العلاقات الاسلامية البيزنطية فى الشام وتخومه فى صدر الاسلام فى ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين فى العصور الوسطى

القى هذا البحث فى الندوة الثانية للمؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام التى عقدت فى عمان بالاردن مابين ١٦ ــ ٢٢ آزار (مارس) ١٩٨٥ .



تتناول هذه الدراسة ثلاث نقاط رئيسية : الاولى الغزوات والسرايا والبعوث التى اتجهت الى مشارف الشام فى العهد النبـوى ، والثانية الاحتكاك العسكرى المباشر بين المسلمين والبيزنطيين فى بلاد الشام حتى وقعة اليرموك وفتح بيت المقدس • أما النقطة الثالثة فهى تحديد مكان الصراع الاسلامى البيزنطى فى الشام وتخومه فى هذا الوقت المبكر ، فى ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين فى العصور الوسطى • وقد استعرضنا فى العنصرين الاول والثانى المصادمات والاحتكاكـات بين المسلمين من ناحية ، والبيزنطيين ومحالفيهم من متنصرة العـرب من ناحية أخرى ، بالقدر الذى يخدم موضع البحـث • وبالنسبة للعنصر الثالث حرصنا على ابراز الخطوط العريضة الرئيسية التى تتعلق بتوازن القوى بين العالمين الاسلامى والمسيحـى فى العصر الوسيـط ، دون الدخول فى تفصيلات قد تقودنا الى متاهات تبعدنا عن المطلوب •

مقدمـــة

الدولة البيزنطية وشبه جزيرة العرب قبيل ظهور الاسلام :

اذا القينا نظرة على الدولة البيزنطية فى القرن السادس الميلادى سوف نجد أن المحاولات اليائسة التى بـذلها الامبراطـور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) فى سبيل اعادة مجد الامبراطورية الرومانية القديمة ، والتى جند لها كل الامكانيات العسكرية والمادية والبشرية فى دولتـه ، لم تؤت ثمارها • وكان هذا واضحـا للعيان بعد موته ، وفى عز ايامـه بصفة خاصة • اذ سرعان ما انهارت الامبراطورية التى كونها بعد موته بفترة وجيزة • وقد اقترنت السنوات الاخيرة من حكمه وحتى نهايـة أسرته بالفقر والضعف والمجاعة ، وناءت الامبراطورية تحت عبء هذه التركة المثقلة بالمشاكل فى الداخل والخارج (١) •

وهكذا ، بانتهاء اسرة جستنيان عام ٦١٠ م كانت الكوارث تحيط

بالدولة من كل جانب • ففى الشرق كان الخطر الفارسى لايزال قائما • وفى الشمال كان الآفار يضغطون على حدود نهر الدانوب ، تدفعهم من ورائهم قبائل السلاف الاشد بربرية منهم • وفى الغرب نزل اللمبارديون في ايطاليا المفككة ، بينما سقطت اسبانيا فى أيدى القوط الغربيين •

وعندما اعتلى هرقل العرش عام ٦١٠ م ليصبح أول امبراطور للاسرة التى تحمل اسمه ، كانت الدولة قد افلست ، بينما تخلخلت السلطة المركزية ، وغدت هذه التركة الخربة التى خلفها جستنيان وافراد اسرته بادية للعيان ، وبدا كما لو ان أيام بيزنطة قد أصبحت معدودة حسبما يقول المؤرخان ن • هـ • بينز N.H. Baynes و هـ • ب • موس H.B. Moss (٢) ، ووقف الاباطرة مكتوفى الايدى أمام هذا الانهيار • ويزيد الفريد بتلر A. Butler (٣) الامر وضوحا ، اذ يقول أنه الى جانب الاضطراب السياسى والخلل المالى ، كانت الامبراطورية تعانى من فساد خلقى، فضلا عن انتشار الاوبئة والامراض فيها ، وحدوث الزلازل والمجاعات• يضاف الى ذلك تبرم الشعب فى مدينة القسطنطينية وسخطه على اباطرته •

أما بلاد الشام ، وكانت اذ ذاك تابعة لبيزنطة ، فقد عانت كثيرا خلال هذه الفترة من الزمن • اذ قامت فيها الفتن والثورات الدينية ، وازداد العداء والصراع بين الملكانيين اصحاب الطبيعتين واليعاقبة اصحاب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح • وذاق يعاقبة الشام الامرين على يد عمال بيزنطة عليها ،و كان شغلهم الشاغل هو فرض المزيد من الضرائب على الاهالى ، وجمع المال بشتى الطرق لارساله الى خزائن الامبراطورية فى القسطنطينية • وباختصار ، كانت بلاد الشام نهبا للفوضى والفتن التى لانهاية لها ولا آخر : ولم تكن حالة بيزنطة تسمح لها بتدارك هذا الوضع المتردى •

كانت التركة التى تسلمها هرقل مثقلة بالمشاكل التى تنتظر منـه حلولا سريعة حاسمة • لقد تسلم امبراطورية فىحالة شديدة من الفوضى والاضطراب ،و كان اصلاح الامور يبدو مستحيلا • وفى هـذا يقول جورج استروجورسكى G. Ostrogorsky (٤) « كانت الامبراطورية حطاما عندما تسلم هرقل مقاليد الحكم فيها ••• كانت منهكة اقتصاديا وماليا • ولم يعد الجهاز الادارى العتيق يؤدى وظيفته • كذلك لم يعد النظام الحربى القائم على الجند المرتزقة يقوم بمهمته ، نظـرا لعدم وجود المال اللازم • فضلا عن ان المصادر القديمة للقوى البشرية لم يعد من السهل الحصول عليها أو الافادة منها • لقد اكتسـح الاعداء المقاطعات الحيوية الرئيسية من الامبراطورية • اذ أقام السلاف والآفار فى البلقان ، بينما حصن الفرس انفسهمفى قلب آسيـا الصغرى ، ولم يكن ثمة ما ينقذ الامبراطورية منه ذا التردى سوى بعث الحياة فيهـا من جديد » •

وكان هرقل يأمـل ان يقضى السنـوات الاولى من حكمـه فى القسطنطينية محاولا اعادة تنظيم الدولة من جديد • ولكـن المشاكل التى واجهته منذ البداية لم تتح له الفرصة كى يتنفس الصعداء • وكانت أولاها المشكلة الفارسية التى ترجع جذورها الى التاريخ القديم منـذ أيام الاسكندر المقدونى ،و تجددت فى العهـدين الرومانى المتـأخر والبيزنطى المبكر • فخلال خمس سنوات (٦١١ — ٦١٥ م) كان الفرس قد استولوا على بلاد الشام ، وتوغلوا فى اراضى الدولة البيزنطية حتى بلغوا مدينة خلقيدونية الواقعة علىشـاطىء بحر مرمرة سنة ٦١٥ م • وقد رحب اهالى الشام بالفرس لانهم وجدوا فيهم مخلصين لهم مـن نير الحكم البيزنطى الذى كان عبئا ثقيلا على نفوسهم • ولكن هرقـل فى حروبه المضادة ضد الفرس • تمكن من استعادة بلاد الشام الـى حظيرة الامبراطورية سنة ٦٢٨م ، ليمارس عماله الضغط عليها من جديد بعد فترة من الهدوء النسبى الذى عاشت فى ظلمة خلال الحكم الفارسى

لها ، لتعود الى سابق عهدها من الفوضى والاضطراب • ومما زاد الطين بلة ، أنه فى محاولة منه لحل مشكلة انقسام المسيحية وتعدد مذاهبها التى أخفق اسلافه فى حلها ، سعى الى كسب صداقة المونوفيسيين بالتوفيق اللاهوتى فى المبادىء الدينية ، فخرج بمذهب جديد عرف بمذهب التوفيق أو التوحيد • وهدفه من ذلك هو التوحيد والتوفيق بين مختلف المذاهب المسيحية • ولكن هذه المحاولة لم تؤد الى أى وحدة دينية ، بل أدت — على العكس من ذلك — الى نزاع دينى شديد • فقد رفض يعاقبة الشام هذا المذهب • لقد ابقتهم متاعبهم السياسية القائمة ، وحمدهم الدفين على تعاليم مجمع خلقيدونية المسكونى غير قانعين • وكان قد فات الاوان ، وافلت الزمام من قبضة بيزنطة (٥) • اذ كانت هناك قوة جديدة فى طريقها الى الظهور ، وموطنها الاصلى شبه الجزيرة لتؤدى دورها على مسرح الاحداث ، ولتواجه الدولة البيزنطية فى مرحلة ضعفها وانحلالها ، ونعنى بها الاسلام •

كانت شبه جزيرة العرب قبيل ظهور الاسلام تمثل صورة غير متناسقة • وكان غالبية سكانها من العرب الرحل ، قد انتظموا فى قبائل متصارعة فيما بينها ، وقد تمسكت كل قبيلة بعاداتها وآلهتها واستقلالها • وكانت الحياة بسيطة يسودها الفقر بحكم طبيعة الصحراء الجافة القاسية ، اذا ماقورنت بما تتمتع به جارتها الدولة البيزنطية التى كانت تغمرها مختلف الوان الترف ، على الرغم مما انتابها من ضعف وقتذاك • ولم يكن ثمة سبيل للتغلب على روح الفرقة والشقاق التى سادت بين تلك القبائل • ومع ذلك لم تكن حياة أولئك القوم كقوم رحل هى الطابع المميز الوحيد لمعيشتهم فى شبه الجزيرة التى كانت اطرافها واقعة تحت المؤثرات السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية لجارتها بيزنطة •

وكانت مكة هى الملتقى الرئيس لسكان الصحراء بالعالم الخارجى • كما كانت مركزا تجاريا هاما يمر به التجار تاركين منتجاتهم وأفكارهم

فى نفس الوقت • وترتب على ذلك نمو التجارة فيها ، وتأثيرها بالعادات والتقاليد الاجنبية الوافدة من وراء الحدود • فتحــول اسلوب الحياة لدى عرب مكة بشكل تدريجى عن أسلوب العرب الرحل • وهكذا أصبحت احد المراكز الدينية الكبرى ، الى جانب كونها مــركزا تجاريــا هاما • ففيها توجد الكعبة والآلهة الاخرى ، واليها تحج كثير من القبائل العربية ، كما تشدهم اليها بضائع التجار الذين يمرون بها أو يقيمون فيهــا • وهكذا ، اصبحت مكة مركزا للحياة فى شبه الجزيرة العربية ، الى جانب اتجاهها السياسى لفرض زعامتها على أولئك العرب الرحل • وساعــد تفاعل هذه القوى فيما بينها على انطلاقة العرب التى مكنتهم من التغلب على قسوة الصحراء ، والقيام بدور بارز على مسرح الاحداث فى حوض البحر المتوسط (٦) •

الغزوات والسرايا والبعوث الموجهة الى تخوم الشام فى العهــد النبوى مقدمات سبقت الاحتكاك العسكرى المباشر بين المسلمين والبيزنطيين فى الشــام

هكذا كانت الدولة البيزنطية تعانى من مشاكلها العديدة فى الداخل والخارج • لقد خرجت من الحرب الفارسية وقد انهكها طول القتال ، وحل فيها الخراب والدمار ، وجف معينها من الرجال والمال ، واصبحت فى أشد حالات التعب والاعياء • وكانت فى أمس الحاجة الى فترة ممتدة من السلام والهدوء ، حتى تسترد انفاسها المتقطعة ، وتستعيد قواها الخائرة • وفى ذلك الحين وقعت فى شبه الجزيرة العربية احداث جســام كان لها أهميتها العالمية وآثارها البعيدة المدى فى تطور التاريخ البشرى • اذ ظهر الاسلام يدعو الناس جميعا الى وحدانية الله ، والعرب الــى الاتحاد والتآلف ونبذ الفرقة والخصام وترك عبادة الاصنــام • ولم تمض بضع سنوات حتى كانت هذه الدعوة الجديدة قد تمكنت ، ودانت

لها كافة القبائل العربية التى اصبحت ترى فيها رمز وحدتها ، وشعار مجدها ، وأمل مستقبلها •

وفى سبيل نشر الرسالة وتأمينها من جيران يتاخمونها الحدود ويناصبونها العداء ، وقعت أول اشتباكات حربية بين العرب المسلمين وجيرانهم من قبائل العرب المتنصرة أو المستعربة فى مشارف الشام والمحالفة لبيزنطة ، مما أدى فيما بعد الى المواجهة العسكرية المباشرة بين المسلمين والبيزنطيين فى بلاد الشام •

وجدير بالتنويه — قبل استعراض هذا الصراع — ان المؤرخين البيزنطيين المعاصرين لتلك الفترة من الزمن ، لم يحفظوا لنا تفاصيل الاشتباكات والمعارك التى وقعت بين المسلمين والبيزنطيين فى صدر الاسلام • ولعلهم — على حد قول أحد المؤرخين الغربيين الحديثين وهو شارل ارمان Ch. Oman (٧) — كانوا يكرهون فكرة سرد هذه الاحداث بسبب الهزائم المريرة التى لحقت بهم • وأقرب المصادر البيزنطية للفترة الزمنية موضوع الدراسة ، كتاب كل من ثيوفانيس Theophanes ومعاصرة البطريارك نقفور Nicephorus • لقد عاشا فى القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) ، وتوقف أولهما فى سرد احداثه عند سنة ٨١٣ م (١٩٨هـ) ، بينما توقف الثانى عند سنة ٧٦٩ م (١٥٢ هـ) •و تناولا الظروف التى واجهت بيزنطة أثر الهجوم العربى على ممتلكاتها الاقليمية •و هناك تشابه كبير بين ما سجله كل منهما بهذا الخصوص ،و ان كانت رواية ثيوفانيس أكثر وضوحا واستيفاء • ويعتبر الكتابان من المصادر الاصلية فى التاريخ البيزنطى ، وفى تاريخ العلاقات البيزنطية الاسلامية ،و بصفة خاصة فيما يتعلق بأحداث القرن الثامن الميلادى (القرن الثانى الهجرى) • أما ما اورداه عن احداث القرن السابع الميلادى (القرن الاول الهجرى) ، فهو شديد التركيز والايجاز وليس فيه جديد •

ومن حسن الحظ أنه يوجد اثنان من المؤرخين الارمن : اولهما يدعى سبيوس Sebêos صاحب « تاريخ هرقل » ، وقد عاش فى القرن السابع الميلادى (القرن الاول الهجرى) ،وثانيهما يسمى جيفوند Ghévond صاحب كتاب « تاريخ حروب وفتوحات العرب فى أرمينية » وقد عاش فى القرن الثامن الميلادى (القرن الثانى الهجرى) • ويتضمن الكتابان اشارات قيمة تتعلق بأحداث الحملات العربية الاولى على الشام • وتعتبر رواية سبيوس رواية مؤرخ عاصر الاحداث التى كتب عنها ، أما فيما يتعلق بتلك التى لم يعاصرها ، أو التى يكن شاهد عيان لها ، فقد اعتمد فى روايتها على من عايشوها • ولذلك يعتبر كتابه من المصادر الاساسية فيما نحن بصدده • اذ زودنا بمعلومات هامة ودقيقة عن بعض احداث القرن السابع الميلادى ، والتى كان مسرحها بلاد الشام • ونقل عنه من جاء بعده من المؤرخين الارمن (٨) •

واما جيفوند فهو عالم لاهوتى يحتل كتابه مكانة خاصة بين مصادر التاريخ الارمينى فى العصر الوسيط • اذ انفرد بالقاء الضوء على تاريخ الشرق الأدنى خلال القرنين السابع والثامن للميلاد (القرنان الاول والثانى الهجريان) •و كتابه يبدأ بذكر وفاة الرسول (ﷺ) ، ولكنه يمر مرورا سريعا على الاحداث التى تعرضت لها بلاد الشام زمن الخلفاء الراشدين • وقد توقف فى مؤلفه عند احداث سنة ٧٨٨ م (١٧٢ هـ) • وهو وان لم يذكر المصادر التى استقى منها معلوماته ، خاصة فى الفترة التى لم يكن معاصرا لها، الا أن المدقق فى كتابه يجد أنه اعتمد كثيرا على سبيوس فيما يتعلق بأحداث فتح العرب للشام (٩) •

هذا عن المصادر البيزنطية والارمينية ، أما العرب فلم يكونوا من ناحيتهم قد بدأوا الكتابة بعد • ولذلك احيطت سنوات الفتح بسياج من الروايات المتعددة المتناقضة • ومن مؤرخى وجغرافيى القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) يجب أن نذكر على التوالى الواقدى،

وابن هشام ،و ابن سعد ، وابن خيــاط ، والبلاذرى ، واليعقوبى • وتعتبر مؤلفاتهم هى أقدم ماوصلنــا عن الفترة الزمنيــة موضــوع الدراسة • ومن مؤرخى القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) الطبرى ، والمسعودى ، ثم ابن عبد البر من القرن الخامس (ت ٤٦٣) ومن اتى بعدهم فى القرون التالية • لقد تضمنت هذه المنابع العديد من الروايات المختلفة المتعارضة المتعلقة بالحدث الواحد • كما ان المصــدر الواحد تضمن ، احيانا ، أكثر من رواية حول الواقعة الواحدة • كذلك تضاربت الروايات حول تاريخ أهم الوقائع والاحداث ، كما اختلفت فيما يتعلق ببعض فتوح مدن الشام ، الى جانب حدوث تقديم وتأخــير فى سرد بعض الاحداث ، الامر الذى يجعل المهمة صعبة أمــام الباحثين والدارسين • والواقع أن أى مؤرخ ، مهما اوتى من القدرة ، لايستطيع ان يسرد تاريخ الغزوات والسرايــا والسنوات الاولى للفتــح سردا منتظما مسلسلا واضحا دقيقا ليس فيه أى اضطراب ، وكل سرد لهــذا التاريخ على اساس الانتظام التام يكون غير طبيعى ، لان العصر ذاتــه كان مضطربا ، فضلا عن ندرة اصوله المعاصرة • كل هذا يتطلب تتبــع الاحداث ومراعاة تسلسلها الزمنــى بشىء من الدقــة والحذر قدر الاستطاعة ، لتصبح نسيجا واحدا متصلا متجانســا ، بدءا بالغزوات والسرايا والبعوث فى العهد النبوى ، وانتهاء بفتوح الشام زمن الخلفاء الراشدين •

غزوة دومة الجندل (٢٥ ربيع الاول ٥ هـ/٢٤ أغسطس ٦٢٦ م) :

لم يكن الامبراطور البيزنطى هرقل قد فرغ بعــد من حروبــه المضادة ضد الفرس حتى بدأت أولى غزوات الرســول (ﷺ) • ذكر المسعودى (١٠) ان دومة الجندل (١١) هى أولى غزواته ضد البيزنطيين ، وصاحبها وقتذاك يدعى اكيدر بن عبــد الملك الكندى ، وكــان يعتنق المسيحية ، ويدين بالطاعة للدولة البيزنطية (١٢) • وتتفق الروايات على

ان الغزوة جرت في ربيع الاول سنة ٥ هـ (اغسطس ٦٢٦م) • وكان كل من ابن سعد [١٣] والنويرى [١٤] أكثر تحديدا ، عندما ذكرا ان رسول الله (ﷺ) خرج من المدينة قاصدا دومة الجندل في ٢٥ ربيع الاول ٥ هـ (الاحد ٢٤ أغسطس ٦٢٦ م) ، بعد ان استخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري الكناني [١٥] •

تعددت الروايات حول اسباب الغزوة • يقول ابن سعد [١٦] ان دومة الجندل كانت عامرة بالناس الذين كانوا يظلمون من يمر بهم من الضافطه [١٧] ، ويريدون الاقتراب من المدينة • ويزيد البلاذرى [١٨] الامر وضوحا ، فيقول « ان جمعا من قضاعة ومن غسان تجمعوا وهموا بغزو الحجاز » • أما المسعودى [١٩] فيضع النقاط فوق الحروف ، مبينا ان اكيدر صاحب الدومة كان يعترض سفر الناس والتجار الى المدينة • لذا « اراد رسول الله (ﷺ) ان يدنو الى ادانى الشام ، وقيل لـه أن ذلك مما يفزع قيصر » [٢٠] ، أى هرقل •

على اية حال ، خرج الرسول (ﷺ) من المدينة في الف من المسلمين قاصدا الدومة • وكان يواصل السير ليلا ويكمن نهارا ، وربما يكون ذلك حتى لا ينتبه اليه العدو ، أو لشدة الحرارة في مثل هذا الوقت من العام • واصطحب معه دليلا من بنى عذرة يقال له مذكور يدله على الطريق [٢١] • فلما اقترب من الدومة تفرق أهلها • فهجم المسلمون على ماشيتهم ورعاتهم ، فأصابوا منا صابوا ، وهرب من هرب منهم في كل اتجاه • وكان صاحبها اكيدر من بين من لاذوا بالفرار • وعندما نزل الرسول (ﷺ) لم يجد أحدا ، فأقام بها عدة ايام • وتروى بعض المصادر أنه أخذ منهم رجل واحد فقط ، فسأله الرسول (ﷺ) عنهم ، فقال أنهم هربوا حيث سمعوا أنه أخذت منهم نعمهم • وقد عرض عليه الرسول الاسلام فأسلم • ثم قفل النبى بعد ذلك عائدا الى المدينة [٢٢] ، وكان ذلك في ١٩ ربيع الآخر سنة ٥ هـ (الاربعاء ١٨ سبتمبر ٦٢٦م) [٢٣] •

ويمكن القول ان هذه الغزوة المبكرة التى قادها الرسول (ﷺ) بنفسه قد حققت اغراضها المرجوة منها •

سرية زيد بن حارثه الى حسمى (جمادى الآخر ٦ هـ / اكتوبر — نوفمبر ٦٢٧ م) :

تتابعت الغزوات والسرايا ضد محالفى بيزنطة عند تخوم الشام • ففى جمادى الآخر سنة ٦ هـ (اكتوبر — نوفمبر ٦٢٧م) ، أى بعد حوالى أربعة عشر شهرا من غزو دومة الجندل ، بعث الرسول (ﷺ) سرية بقيادة زيد بن حارثة الى قبيلتى لخم وجذام بحسمى التى تقع وراء وادى القرى مما يلى فسلطين من أرض الشام (٢٤) • وسببها ان اهلها تعرضوا لدحية بن خليفة الكلبى مبعوث رسول اللـه (ﷺ) الى الامبراطور البيزنطى • وقد اعمل فيهم زيد القتل والاسر ، ثم قفل عائدا الى المدينة (٢٥) • وواضح أن هذه السرية كانت عملية تأديبية ناجحة •

سرية عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل (شعبان ٦ هـ / ديسمبر ٦٢٧ — يناير ٦٢٨ م) :

وفى شعبان ٦ هـ (ديسمبر ٦٢٧ — يناير ٦٢٨ م) ، ارسل النبى (ﷺ) سرية أخرى بقيادة عبد الرحمن بن عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب الى دومة الجندل ، وكان بها قوم من كلب فأسلموا (٢٦) • هذا ، ولم تزدونا المصادر بأية تفاصيل عن هذه السرية ، أو النتائج التى حققتها • ولكن يتضح من نص اورده المسعودى (٢٧) عن الهزيمة التى لحقت بالبيزنطيين على يد الفرس ، ثم الحرب المضادة التى شنها هرقل ضدهم ، ان ظروفهم آنذاك لم تكن تسمح لهم بمديد المساعدة الى قبيلة جذام أو الى أهل دومة الجندل ، مما يجعلنا نرجح ان السرية نجحت فى تحقيق احدا هدافها ، وهو دخول جماعة من كلب فى الاسلام •

رسل النبى الى هرقل وغيره من الملوك (ربيع الاول ٧ هـ / يوليو — اغسطس ٦٢٨ م) :

وبينما تخوم الشام تتعرض لسيل من الغزوات والسرايا ، أوفد النبى (ﷺ) الرسل الى الامبراطور هرقل وغيره من الملوك . وقد اختلفت الروايات حول تاريخ ارسال هذه السفارات . فقد ذكر المسعودى [٢٨] تاريخين احدهما سنة ٦ هـ (فيما بين مايو ٦٢٧ وابريل ٦٢٨ م) قبل فتح الرسول (ﷺ) خيبر ، والثانى شهر ربيع الاول سنة ٧ هـ (يوليو — اغسطس ٦٢٨ م) . بينما حدد النويرى [٢٩] تاريخ مكاتبة رسول الله (ﷺ) للموك فى المحرم سنة ٧ هـ (مايو — يونيو ٦٢٨ م) . أما البلاذرى [٣٠] ، فأوضح ان التاريخ هو سنة ٧ هـ ، وذكر أنه اثبت من سنة ٦ هـ . واما ابن هشام [٣١] فلم يحدد تاريخا ، ولكن حديثه عن مبعوثى الرسول (ﷺ) الى الملوك يجىء استرسالا لما سبقه . ويدل النص على أن ذلك تم بعد الحديبية ، أى سنة ٦ هـ .

ومهما يكن الاختلاف حول التاريخ ، فقد حددت المصادر اسماء الرسل الذين اوفدهم النبى (ﷺ) الى الملوك . اذ بعث دحيه بن خليفة الكلبى الى هرقل ، وشجاع ابن ذهب الاسدى الى المنذر بن الحارث بن ابى شمر الغسانى [٣٢] عامل هرقل على دمشق واعمالها ، ورسولا ثالثا الى جبلة ابن الأيهم ملك غسان ، كما بعث خالد بن الوليد الى اكيدر ابن ابى الملك صاحب دومة الجندل . وزود الرسل بكتب يدعو فيها أولئك الملوك الى الاسلام [٣٣] .

وجدير بالاشارة هنا تلك المقابلة التى تمت بين ابى سفيان والامبراطور هرقل ، والحديث الذى دار بينهما بشأن النبى (ﷺ) . وكان ابو سفيان فى بيزنطة فى تجارة له ، وقد بلغه ان بنى أمية من كنانة يقاتلون حلفاء رسول الله من خزاعة ، وانهم اوجعوهم قتلا .

وعندما التقى بامبراطور الروم ، أخذ هرقل يستفسر منه عن النبى (ﷺ) وعما يأمرهم به وينهاهم عنه • ودار بينهما حوار طويل انهاه قرهـل بقوله بأن الرسول (ﷺ) رجل صالح ، وطلب من ابى سفيان ان يتبعه هو وقومه والا يقاتلوه ، والا ينهجوا نهج اليهود الذين قاتلوا انبياءهم• وانتهى الامر بعودة ابى سفيان الى مكة (٣٤) • هـذا ، ولـم تحدد الروايات تاريخ هذه المقابلة • ولكن يبدو من نص الطبرى (٣٥) انهـا تمت بعد تسلم هرقل كتاب النبى ، ويعزز ذلك تسلسل الاحداث • فبعد ان تسلم هرقل رسالة النبى وقابل مبعوثه ، اراد ان يستشف الاخبار عنه من هنا وهناك • فكان طبيعيا عند التقائه بابى سفيـان أن يعرف منه اخبار الرسول (ﷺ) •

لعنا نخلص مما سبق ان هرقل ، وقد خرج متهالكـا من حروبـه الطويلة مع الفرس ، وبعد سماعه بأخبار الرسول (ﷺ) ، سعـى الى تجميع المعلومات عنه ، وان رسول النبى وكتابه اليه يدلان — بما لايدع مجالا للشك — ان الهدف هو نشر الاسلام فى البلاد المجـاورة ، وفى مقدمتها بطبيعة الحال الدولة البيزنطية وجيرانها ومحالفيها من متنصرة العرب فى اعالى الشام ، وأن الغزوات التى قادها الرسول (ﷺ) والسرايا التى بعث بها الى تخوم الشام مبكرا اعتبارا من القرن الخامس الهجرى (٦٢٦م) ، ماهى الا تمهيدات هدفها الاستطلاع وجس النبض قبـل الاحتكاك العسكرى المباشر بين المسلمين والبيزنطيين ،والذى كانت بلاد الشام أولمسرح له • ثم ان المقابلة التى تمت بين هرقل وابى سفيان ، تكشف بطريق غير مباشر عن تخوف الامبراطور البيزنطى من المتغيرات التى استجدت على مسرح الاحداث •

سرية كعب بن عمير الغفارى الى ذات أطلاح (ربيع الاول ٨ هـ / يوليو — اغسطس ٦٢٩ م) :

كانت السرية (٣٦) التالية لسرية دومة الجندل هى تلك التى ارسلها رسول الله (ﷺ) بقيادة كعب بن عمير الغفارى الى ذات اطلاح (٣٧) ، ويقال لها أيضا ذات أباطح (٣٨) • وهى من وراء وادى القرى بين تبوك واذريعات من بلاد دمشق من أرض الشام (٣٩) • وكان اهلها من قضاعة • وزعيمهم رجل يقال له سدوس (٤٠) • وبلغ عدد أفرادها خمسة عشر رجلا • وعندما بلغوا ذات اطلاح وجدوا جمعا من أهلها ، فدعوهم الى الاسلام ، فلم يستجيبوا لهم ، ورشقوا رجال السرية بالنبال • واشتد القتال بين الطرفين حتى قتل رجال السرية كلهم فيما عدا واحدا أفلت بعد أن اصيب بجراح • وتحامل على نفسه ليلا حتى بلغ المدينة ، واخبر رسول الله (ﷺ) بما حل بالسرية (٤٢) ، فتأثر لذلك • « وهم بالبعث اليهم ، فبلغه انهم قد ساروا الى مواضع اخر ، فتركهم (٤٣) »• وواضح ان هذه السرية منيت بالهزيمة •

سرية مؤته (جمادى الاول ٨ هـ / أغسطس — سبتمبر ٦٢٩ م) :

تتابعت بعد ذلك الغزوات والسرايا ، و كانت السرية التالية هى سرية مؤته • وقد ذكرها فريق من المؤرخين المسلمين القدامى تحت اسم « غزوة » ربما لكثرة عدد من اشترك فيها ، بينما اشار اليها البعض تحت اسم « سرية » ، وفريق ثالث تحت اسم « يوم مؤته » و « قصة مؤته » • (٤٤) ولم يشترك رسول الله (ﷺ) بشخصه فيها ، اذ كان فى المدينة وقتها (٤٥) • وقد أمر عليها زيد بن حارثه الكلبى • وكانت وجهتها مؤته ، وهى من ناحية البلقاء من اعمال دمشق من الشام (٤٦) ، وأهلها يومئذ من الروم ومتنصرة العرب من الغساسنة الموالين لهم (٤٧) • ولا خلاف حول تاريخها ، فقد اتفقت الروايات على أنها كانت فى جمادى الاول سنة ٨ هـ (أغسطس — سبتمبر ٦٢٩ م) (٤٨) •

ولا تلقى المصادر ضوءا كافيا على الاسباب التى دعت الرسول (ﷺ) الى بعث هذه السرية ، وان كان السعودى (٤٩) قد ذكر أنها كانت تستهدف غزو البيزنطيين • ووضع النقاط فوق الحروف قائلا أن اقدام شرحبيل بن عمرو الغسانى على قتل رسول الله الحارث بن عمر الازدى الى صاحب بصرى كان سببها • وهذا يدل بطريق غير مباشر ان تلك السرية ، وما سبقها من غزوات وسرايا وجهت الى تخوم الشام ، كانت مقدمات هدفها الدولة البيزنطية نفسها ، بالاضافة الى الهدف الاسمى وهو نشر الاسلام فى تلك الجهات • وقد بلغ عدد رجال هذه السرية حوالى ثلاثة الاف رجل ، بينما أنفذ الامبراطور هرقل ، وكان وقتئذ مقيما فى انطاكية بعد انتصاره على الفرس ، مائه الف مقاتل للقائهم • وقد يكون فى هذا العدد بعض المبالغة ، الا أنه يدل على ضخامة عدد القوات البيزنطية • وأما متنصرة العرب من غسان وقضاعة وغيرهم ، فكان عليهم شرحبيل ابن عمرو الغسانى (٥٠) •و اما المسلمون فقد جعلوا على ميمنتهم رجلا من بنى عذره يدعى قطبة بن قتادة ،وعلى ميسرتهم رجلا من الانصار يسمى عباية بن مالك ، وفى رواية أخرى عباده بن مالك •

وبدأ القتال بين الفريقين ، وقاتل زيد بن حارثه براية رسول الله (ﷺ) حتى هلك ، فأخذها جعفر بن أبى طالب ، وعندما اشتد القتال ترجل عن جواده ، وواصل القتال وهو يحمل اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل عن ثلاثة وثلاثين عاما • ويقال ان احد الجنود البيزنطيين ضربه بسيفه فقطعه نصفين • ويقال أيضا أنه وجد به اثنان وسبعون جراحة ، مابين ضربة بسيف وطعنه برمح •

على أية حال ، حمل الراية بعد جعفر ، عبد الله بن رواحه الانصارى وكان ممتطيا جواده • وقاتل بعض الوقت ، ثم ترجل وواصل

القتال حتى استشهد • حينئذ اتفق المسلمون على خالــد بن الوليد بن المغيرة الذى أخذ الراية وتصدى لجمــوع البيزنطيين دون جدوى •

ويمكن القول ان هذه السرية لم تحقق هدفها •اذ وقع عدد كبير من المسلمين بين قتيل وجريح ، وان كان خالد قد قفل عائداً الى المدينة بمن تبقى من قواته ليخبر رسول الله (ﷺ) بما حل بهم ، فغمره الحزن على ما حدث (٥١) • وأوضح كل من الواقدى وابن هشام ان النصر لم يكن حليف المسلمين فى هذه الموقعة • وأخذ رسول اللــه (ﷺ) ينعى شهداء مؤته وهو فى المدينة رجلا رجلا (٥٢) • وعدد ابن هشــام اسماء بعض شهداء مؤته من قريش ، وبنى هاشم ،و بنى عــدى بن كعب ، وبنى مالك بن حشل ، من الامصار ، وبنى الحرث بن الخزرج ، وبنى غنم بن ملك بن النجار ، وبنى مازن بن النجار ، وبنى مالك بن افصى • وكتب الشعراء يصفون الوقعة ويرثون شهداءها ، نذكر منهــم — عــلى سبيل المثال — قيس بن المسحر ،وحسان بن ثابت ،و كعب بن مالك (٥٣)•

سرية عمرو بن العــاص الى ذات السلاسل (جمــادى الآخرة ٨ هـ / سبمبر — اكتوبر ٦٢٩ م) :

استهدفت هذه السرية ذات السلاسل من أرض بنى عذرة وراء وادى القرى (٥٤) • واتفقت الروايات على أنها وقعت فى جمادى الآخرة سنة ٨ هـ (سبتمبر ـــا كتوبر ٦٢٩ م) (٥٥) •و اميرها هــو عمرو بن العاص (٥٦) ، وكانت رايته سوداء اللون ، « وبعثــه (النبى) يستنفر العرب الى الشام (٥٧) » • ويبدو أنه ووجه بمقاومة شديــدة ، فأرسل يطلب المدد من رسول الله (ﷺ) • فوجه اليه ابا عبيــده بن الجراح ، وسروات المهاجرين والامصار • أما العدو فكان يتألف من جموع الروم ومتنصرة العرب (٥٨) ، من قضاعة ، وعاملة ، ولخــم ، وجذام (٥٩) •

وتقاتل الفريقان ، والحق المسلمون الهزيمة بأعدائهم ، وتمكنوا من تشتيتهم ، وقتلوا من رجالهم عددا كبيرا ، بينما اصيب كثير منهم بجراح (٦٠) •

غزوة تبوك (رجب سنة ٩ هـ / اكتوبر — نوفمبر ٦٣٠ م) :

قال الواقدى (٦١) ان هذه الغزوة استهدفت بلاد الشام • أما ابن هشام (٦٢) فكان أكثر وضوحا عندما أكد ان هدفها هو التهيوء لغزو الروم • ووضع البلاذرى (٦٣) النقاط فوق الحروف عندما قال « ان هرقل ومن اجتمع اليه من لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغيرهم ، اظهروا انهم يريدون غزو رسول الله (ﷺ) » • وقد اختيرت قرية تبوك (٦٤) مما يلى دمشق من ارض الشام مسرحا لها ، وبين تبوك والمدينة تسعون فرسخا ، وكان النبى (ﷺ) مقيما فى المدينة وقتها (ذو الحجة — رجب ٩ هـ / مارس ٦٢٩ — نوفمبر ٦٣٠ م) بعد رجوعه اليها من غزوة الطائف (٦٥) •و قد عرف جيش هذه الغزوة باسم « جيش العسرة » ، بسبب قسوة الحر ، وشدة الجدب الذى اصاب شبه الجزيرة وقتها ، فضلا عن بعد المسافة ، وكثرة رجال العدو • ولذلك اعلن الرسول (ﷺ) عن وجهته حتى يتهيأ الجند للمعركة ، خلافا لعادته عندما كان يستعد لمعركة ضد العدو ، فكان لايكشف عن مقصده ، ضمانا لنجاحها (٦٦) •

وقد واجهت رسول الله (ﷺ) بعض الصعاب وهو يعد لهذه المعركة • ففضلا عما تقدم ، اخذ البعض يتعللون بمختلف الحجج والاعذار للتنصل من الاشتراك فى الغزوة ، ومن بينها شكوى البعض من ضيق ذات اليد ، الامر الذى لايسمح لهم باعداد لوازمهم • فأمر الرسول (ﷺ) بأن يتكفل الاغنياء بتجهيز الفقراء (٦٧) بالانفاق عليهم والحملان فى سبيل الله (٦٨) • وتكشف المصادر العربية عن الادعاءات الصادرة عن المنافقين والمتخوفين والبكائين و المتخلفين وغيرهم ، والذين

نزلت فيهم آيات عديدة [٦٩] • وهى تكشف عما لاقاه النبى (ﷺ) من متاعب اثناء اعداده لهذه الغزوة •

على أية حال ، كانت الغزوة فى رجب سنة ٩ هـ (اكتوبر — نوفمبر ٦٣٠ م) [٧٠] • وبلغ عدد افرادها ثلاثين الفا ، والخيل عشرة الاف ، والابل اثنى عشر الف بعير • واختلفت الروايات فيمن استخلفه الرسول (ﷺ) بالمدينة • فمن قائل انه على بن الى طالب ، ومن يقول انه ابن ام مكتوم ، ومن يقول أنه محمد ابن سلمة الانصارى ، ويقال ايضا سباع بن عرفطة [٧١] • ولانعرف على وجه التحديد منفيهم انابه الرسول (ﷺ) على المدينة اثناء غربته •

وبعد ان تمت الاستعدادات ، خرج الجيش من المدينة متوجها الى تبوك • وقد اقام الرسول (ﷺ) بها مدة شهرين حيث نزل عليه القرآن الكريم يعيب من تخلف باعتبارهم من المنافقين • كما وفد عليه اثناء اقامته بتبوك اسقف ايلة [٧٢] وصاحبها ويدعى يحنه ابن روبة • فصالحه على ان يؤدى كل بالغ فيها دينارا فى السنة • كذلك قدم عليه أهل أذرح [٧٣] ،فسألوه الصلح مقابل دفع الجزية ، فوافق وكتب لهم كتابا بذلك [٧٤] •

قفل الرسول (ﷺ) بعد ذلك عائدا الى المدينة [٧٥] • وواضح أنه لم يحدث أى احتكاك عسكرى بين المسلمين والعدو فى تبوك • فقد صمتت المصادر العربية عن ذلك [٧٦] • وكانت تلك الغزوة هى آخر غزوات النبى (ﷺ) •

سرية خالد بن الوليد الى دومة الجندل (رجب ٩ هـ / اكتوبر — نوفمبر ٦٣٠ م) :

واثناء اقامة الرسول (ﷺ) بتبوك ، بعث فى رجب ٩ هـ (اكتوبر — نوفمبر ٦٣٠م) سرية على رأسها خالد بن الوليد المخزومى الى اكيدر

ابن عبد الملك الكندى صاحب دومة الجندل • وكانت قد تعرضت قبل ذلك لهجومين : أولهما الغزوة التى قادها النبى (ﷺ) بنفسه فى ٢٥ ربيع الاول ٥ هـ (٢٤ أغسطس ٦٢٦ م) ، وثانيهما السرية التى قادها عبد الرحمن بن عوف فى شعبان ٦ هـ (ديسمبر ٦٢٧ — يناير ٦٢٨ م) • وتوجه خالد الى الدومة ، وحصل على غنائم ، واسراخا لأكيدر ، ويقال أنه قتل اخا آخر له يسمى مصادا ، وأخذ قباء ديباج كان عليه منسوجا بذهب • وكتب الرسول (ﷺ) لاكيدر ولاهل دومة الجندل كتابا [٧٧] •

سرية اسامة بن زيد الى يبنى وازدود (سنة ١٠ هـ / ٦٣١ م) :

وبعث الرسول فى سنة ١٠ هـ (٦٣١ م) [٧٨] بسرية على رأسها اسامة بن زيد الى يبنى وازدود من ارض فلسطين من بلاد الشام [٧٩] • وكانت هذه هى آخر سرية خرجت بالفعل فى عهد الرسول (ﷺ) • وفى صفر ١١ هـ (مايو ٦٣٢ م) ، وكان الرسول (ﷺ) بعد حجة الوداع غد عاد الى المدينة واقام بها بقية ذى الحجة سنة ١٠ هـ (مارس ٦٣٢ م) وشهرى المحرم وصفر من سنة ١١ هـ (ابريل — مايو ٦٣٢ م) [٨٠] ، ندب قبل انتقاله الى جوار ربه اسامه بن زيد الى بلاد البلقاء [٨١] واذرعات [٨٢] والداروم [٨٣] ومؤته من أرض دمشق من الشام ، للثأر لابيه زيد بن حارثه الذى استشهد فى مؤته سنة ٨ هـ (٦٢٩ م) [٨٤] • وكان معه عمر بن الخطاب ، والزبير بن العوام ، وابو عبيدة بن الجراح • واختلفت الاقوال بشأن ابى بكر ان كان فى هذا البعث أم لا • واخذوا يستعدون لملاقاة العدو ، وكان رسول الله (ﷺ) يحثهم فى فترة مرضه بتجهيز جيش اسامة [٨٥] •

وهذه السرية هى آخر ما اعده الرسول (ﷺ) من سرايا فى اتجاه الشام ، ولم تخرج فى حياته ، وانما وجهت زمن الخليفة ابى بكر الصديق •

وفى ١٣ ربيع الاول ١١ هـ (٨ يونيو ٦٢٣ م) ، انتقل الرسول الى جوار ربه (٨٦) • واذا القينا نظرة طائر على الغزوات التى قادها بنفسه، والسرايا والبعوث التى أوفدهـا الى القسطنطينية وتخوم الشام ، ابتداء بغزوة دومة الجندل فى اعالى الشام فى ربيع الاول ٥ هـ (اغسطس ٦٢٦م) وانتهاء بسرية اسامة بن زيد بن حارثة الى يبنى وازدود بفلسطين سنة ١٠ هـ (٦٣١ م) ، سوف نجد أنها لم تكن معـارك حاسمة بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح • لقد كانت مجرد هجمات سريعة خاطفـة تعود بعدها القوات الاسلامية محملة بالمغانم والاسرى وبمعلومات عن الاعداء • كما كانت مقدمات تستهدف جس النبض والاستطلاع لمعرفة مدى قوة الدولة البيزنطية الحليف القوى للمستعربة أو متنصرة العرب فى تخوم الشام • ويعزز ذلك الرسالة التى وجهها الرسـول (ﷺ) الى هرقل وغيره من حكام الشام النصارى التابعين أو الموالين لـه • وكذلك اللقاء الذى تم بين هرقل وابى سفيان والحديث الذى دار بينهـما وما يكشف عنه • فضلا عما ذكرته المصادر العربية من ان هـذه الغزوات والسرايا كانت تستهدف ، فى المرتبة الاولى ، غزو بيزنطة والاستعداد لذلك • وكانت الدولة البيزنطية — من ناحيتها — تحـاول التعرف على الاهداف الحقيقية لهذه الغزوات والسرايا • لقد كانت على علم بظهور الدين الاسلامى فى الجزيرة العربية ، والهجمات التى تعرض لها اعالى الشام المتاخم لحدودها • ويذكر ابن هشام (٨٧) — نقلا عن ابن اسحاق — ان مروة بن عمرو بن النافرة الجذامى بعث الى محمد (ﷺ) رسولا باسلامه ، وكان عامل بيزنطة على معان وما حولها من أرض الشام ، وانه لما بلغ بيزنطة ذلك قبضوا عليه وسجنوه عندهم ، ثم قتلوه • وان دل هذا على شىء ، فانما يدل على ان المشـاعر كانت معبـأة من كـلا الجانبين على طرفى الحدود • فكان طبيعيا ان يكون اقليم الشام التابع لبيزنطة ، هو أول مسرح للقتال العنيف بين المسلمين والبيزنطيين فى عهد الخلفاء الراشدين ، فيما عرف بحركة الفتوحات الاسلامية الاولى •

ويبلور أحد المؤرخين الغربيين الحديثين،وهو ريتشارد ساليفان (٨٨)، ما سبق ، بقوله انه عندما توفى الرسول (ﷺ) كان قد اصبح رسولا وزعيما لمجتمع من القبائل العربية القوية المتحالفة التى ارست وحدتها على اساس الولاء للرسول (ﷺ) وتقبل دين واحد • وكان هذا نقطة البداية لمواجهة العالم الخارجى •

الاحتكاك بين المسلمين والبيزنطيين فى الشام زمن الخلفاء الراشدين حتى وقعة اليرموك وفتح بيت المقدس

كان من نتائج الغزوات والسرايا التى تعرض لها اعالى الشام فى العهد النبوى، ان ظهرت قوة جديدة على مسرح الاحداث يحسب لها الف حساب ، تتمثل فى الدين الجديد واتباعه • وكانت الغزوات والسرايا تستهدف نشر الاسلام وتأمينه ، والتعرف فى ذات الوقت على قوة الدولة البيزنطية التى اصبح المسلمون على وشك الاحتكاك بها احتكاكا مباشرا حسبما اسلفنا • وعلى هذا لايمكن الفصل بين نشر الرسالة وتأمينها من جيران يتاخمونها ويعادونها ، وبين الاحتكاك المباشر والمتوقع بين المسلمين والدولة البيزنطية • ومن الطبيعى ان تكون بلاد الشام ، التى كانت تعتبر من أهم اقاليم هذه الدولة ، هى أول مسرح للصراع بينهما •

ولم يكن اختيار وقت الفتح فى صالح بيزنطة • ذلك ان هرقل سدد الدين الكبير الذى كان قد تعهد بدفعه الى الكنيسة البيزنطية اثناء حروبه المضاده ضد الفرس التى خرج منها منهوك القوى • كما ادى هذا الى استنزاف موارد الدولة وافقارها ، حتى لقد اضطر الامبراطور الى فرض ضرائب جديدة على أهالى الولايات المستاءة من الحكم الرومانى ، وفى مقدمتهم اهالى الشام ، والى تسريح عدد كبير من جنوده رغبة فى الاقتصاد قدر الاستطاعة • ولا خلاف ان الشام التى

تضت حوالى اثنى عشر عاما تحت الحكم الفارسى ، لم تعد الى حالتها الاولى بعد فتحها من جديد وعودتها الى حظيرة الامبراطورية البيزنطية. اذ كانت المنازعات الدينية المتفاقمة والمتأزمة ، الى جانب الانقسامات المذهبية والمشاكل الاقتصادية ، قد ادت الى تفككها وتمزيقها فقد كثر فى هذا الاقليم اتباع مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، وهم اليعاقبة ، وتنفسوا الصعداء بعض الشىء مدة الحكم الفارسى بسبب تخلصهم من الضغط البيزنطى . ولذلك قاوموا بكل شدة محاولات الامبراطور هرقل لفرض مذهب التوحيد أو التوفيق الذى نادى به ، حتى اذا جاء الفتح العربى رفضوا باصرار مساعدة الجيش الامبراطورى ، فى الوقت الذى امدوا فيه للعرب المسلمين يد المساعدة (٨٩) .

وفى ضوء ما هو متاح تحت ايدينا من معلومات وردت فى ثنايا المصادر (٩٠) ، يمكن تتبع مراحل هذه الحروب بشىء من التركيز قدر الاستطاعة دون الدخول فى متاهات تفاصيلها المعروفة ، مكتفين بابراز ما يمكن استخلاصه منها مما يخدم موضوع البحث .

حملة اسامة بن زيد الى البلقاء واذرعات والداروم ومؤته (آخر ربيع الاول ١١ هـ / الخميس ٢٠ يونيو ٦٣٢ م) :

كنا قد ذكرنا انه فى صفر ١١ هـ (مايو ٦٣٢ م) كان الرسول (ﷺ) قبل انتقاله الى جوار ربه ، قد جهز حملة بقيادة اسامة بن زيد بن حارثه وجهتها البلقاء واذرعات والداروم ومؤته من ارض دمشق من الشام ، لتخويف البيزنطيين من ناحية ، وتأديب الغساسنة وهم العرب المتنصرة لمواقفهم العدائية من ناحية أخرى ، وقتلهم عددا من المسلمين من بينهم زيد والد اسامة من ناحية ثالثة . ولكن وفاة رسول الله (ﷺ) حالت دون خروج الحملة .

وبعد اتمام البيعة لابى بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين (١١ — ١٣ ﻫ / ٦٣٢ — ٦٣٤ م) ، اصر على انفاذ حملة اسامــة ، على الرغم من محاولات الصحابة المتكررة لتعطيلها أو ارجائها مطالبة تارة بتغيير اسامة من مركز القيادة لحداثة سنه ، وتارة أخرى بظهور حركة الردة بين العرب مما قد يؤدى الى تفرق جماعة المسلمين عنه ، وما يترتب على ذلك من آثار • ولكن ابا بكر رفض كل هذه الحجج ، مصرا على ارسال الحملة بقيادة اسامة • وكان ذلك فى آخر شهر ربيع الاول سنة ١١ ﻫ (الخميس ٢٠ يونيو ٦٣٢ م) (٩١) •

وهكذا خرج أبو بكر يودع اسامة من الجرف حيث كان يعسكر هو وجنده ، بعد ان اوصاهم بما يجــب أن يكون عليه سلوك الجنــد اثناء الحرب • وخرج اسامة فى ثلاثة آلاف من الجند متخذا طريق ذى المروة والوادى حتى وصل الى قبائل قضاعة فأغار عليها وعلى بطون من جذام ولخم وبنى آيل من قرى مؤتة • فأعمل السيف فيمن تعرض لجيشه ، وحصل على بعض الغنائم • وعندما شاهد العرب المتنصرة جيش اسامة متجها الى اطراف الشام الجنوبية كفوا عما كانوا يستعدون له (٩٢) •

وفى تلك الاثناء كانت حركة الردة قد تفاقمت ، ولم يكن بوســع ابى بكر ارسال الجند للقضاء عليها فى مهدها بسبب انشغال جيشــه فى الشام • فكان يحاول اقناع أهل الردة حوالى ثلاثة اشهر الى أن رجع جيش اسامة ، فلم يتوان عن محاربتهم (٩٣) •

وبعد ان استتب الامر لابى بكر ، رأى توسيع عملية الفتح لتشمل حدود الامبراطورية البيزنطية • فعقد مجلسا من كبار رجال الصحابــة وعلى رأسهم عمر وعثمان وعلى ليعرض عليهم موضوع غزو البيزنطيين بارض الشام • وبعد التداول ومناقشة الامر من كافة نواحيه ، وافقوا على ذلك • وخرج أبو بكر الى عامة المسلمين داعيا اياهم الى « جهــاد

الروم بأرض الشام » ، والاستعداد لذلك • ثم بعث بالكتب الى اليمن يستنفر اهلها لفتح الشام ، فاستجابت القبائل اليمنية ، وتتابعت مسرعة الى المدينة تلبية لنداء الجهاد (٩٤) •

وقعة مرج الصفر (١٩ جمادى الاولى ١٣ هـ / ٢١ يوليو ٦٣٤ م) :

وكان الخليفة ابو بكر قدجعل خالد بن سعيد بن العاصى ، قائدا على الجيش بدلا من عمر بن الخطاب الذى قام بعزله • وامره ان ينزل بتيماء ، وهى بليدة فى اطراف الشام ، بين الشـــام ووادى القرى ، ودعوة من حوله للانضمام اليه • فلما حل بها انضمت اليه جموع كثيرة• ولما وصلت اخبارهم الى الدولة البيزنطية ، استنفرت متنصرة العرب المقيمين على 'طراف الشام الجنوبية • فتوافدت جموع من لخم وجذام وغسان وغيرهم ، وعسكر الامبراطور البيزنطى فى مكان غير بعيد مـــن القوات الاسلامية • وكتب خالد بن سعيد الى ابى بكر بأخبار تجمعات البيزنطيين وحلفائهم من المستعربة ، فأمره بالتقدم نحوهم مع توخى الحذر • وتقدم خالد بمن معه ن المقاتلين ، ونزلوا على معسكر متنصرة العرب الذين تفرقوا تاركين معسكرهم مكشوفا • وواصل خالد وقواته تقدمهم حتى أصبحوا على مقربة من تجمعات البيزنطيـــين • ودارت معركة انهزم فيها البيزنطيون ، ولاذ قائدهم بالفرار هو ومن تبقى من رجاله على قيد الحياة ، ووصلوا مدينة دمشق •

ولكن هذا النصر الذى حققه خالد بن سعيد اعقبته هزيمة قاسية على يد البيزنطيين • فعندما ارسل الى ابى بكر يبشره بالنصر ويطلب منه ارسال المزيد من القوات ، استجاب لطلبه وبعث اليه بالمدد • فأسرع خالد وجيشه بالهجوم على البيزنطيين ، وشق طريقه الى مرج الصفر شرقى بحيرة طبرية • ولكن الجيش البيزنطى التف حوله ، وقطع عليه هو ومن معه خط الرجعة ، واعمل فيهم السيف • فلاذ خالد بن سعيد بالفرار الى ذى المروة بالقرب من المدينة تاركـــا جيشه تحت رحمـــة

البيزنطيين وسيوفهم • ولكن الجيش الاسلامى تكمن من الانسحاب بعد تدبير عناء ، حيث عسكر على مقربة من الشام • وكانت هذه الوقعة يوم الخميس ١٩ جمادى الاولى ١٣ هـ (٢١ يوليو ٦٣٤ م) (٩٥) •

الجيوش الاربعة التى اعدها ابو بكر لفتح الشام :

وعندما علم ابو بكر بما حدث كتب اليه معنفا لهروبه من المعركة • ثم عزله وعين محله يزيد بن أبى سفيان قائدا على الجيش الذى بلغ تعداده حوالى سبعة آلاف مقاتل • وبذلك كان قائد أول جيش اسلامى يتجه الى الشام لفتحها • وخرج أبو بكر فى صحبة يزيد وجنده لوداعهم ، كما فعل من قبل مع اسامة وجيشه • وزودهم — كعادته — بنصائحه فى كيفية التعامل مع العدو • كما ارشدهم الى الطريق الذى يسلكونه لتحقيق الهدف دون الوقوع فى كمائن العدو • وكان الطريق الذى سلكوه هو تبوك — البلقاء — دمشق • ولحق معاوية ومن معه بجيش اخيه يزيد ، تنفيذا لتعليمات الخليفة • وبعد ذلك ، وجه ابو بكر شرحبيل ابن حسنة بجيش بلغ تعداده سبعة آلاف مقاتل الى الاردن عبر طريق تبوك ، وذلك بعد ثلاثة أيام من مسير يزيد بن أبى سفيان •

ثم ارسل ابو بكر جيشا ثالثا قوامه سبعة آلاف جندى بقيادة أبى عبيدة بن الجراح الى حمص ، وحدد له طريق الجابية ، وهو طريق الحج والتجارة الذى يربط المدينة بدمشق•أما الجيش الرابع فكان بقيادة عمرو بن العاص ، وقوامه تسعة آلاف مقاتل ، ووجهة الخليفة الى العربة بأرض فلسطين ، وعين له طريق ايلة رأسا الى فلسطين (٩٦) • وزود قواته بنصائحه فى الاغارة على العدو لاقلاقه ، وعدم التوغل فى أرضه حتى لاينقض عليه العدو من الخلف • كما أمرهم بعدم قتل الاطفال والشيوخ والنساء • ويدل هذا على بعد نظر أبى بكر فى وضع خطة الفتوحات وتكتيكاتها ، واسلوب مقاتلة العدو ، مما يبين استيعابه الواضح للفنون العسكرية ، فضلا عن تحليه بالجانب الانسانى (٩٧) •

وفى تلك الاثناء استدعى ابو بكر قائده خالد بن الوليد من العراق،

وامره بالتوجه هو ونصف القوات التى تحت أمرته وعـددها حوالى تسعة آلاف ، الى الشام • وجعل امارة الجيوش كلها فى الشام اليه ؛ لحنكته وخبرته فى فنون الحرب والقتال التى تكشفت اثناء انتصاراته على الفرس فى العراق • وبدأ مسيرته فى شهر ربيع الآخر ١٣ هـ (يونيو ٦٣٤ م) • وكان عليه اختيار طريق وعرة مقفرة جدباء حتى ينزل خلف الجيش البيزنطى ويتمكن من نجدة الجيش الاسلامى ، وحتى لايقطع البيزنطيون الطريق بينه وبين بقية الجيوش الاسلامية (٩٨) • وبمساعدة دليل يسمى رافع بن عميرة الطائى ، تمكن خالد من اختراق تلك القفار مارا بعدة مواقع الى أن بلغ بصرى ثغر الشام الشرقى • وكان جانب من جند المسلمين قد سبقه اليها ، ومن بينهم شرحبيل وقواته • وبدأ المسلمون فى ضرب الحصار حولها • وقد صمدت المدينة فى البداية لقوة دفاعاتها وتحصيناتها ، ولصمود البيزنطيين ، ودفاع اهلها عنها • ولكنها اضطرت آخر الامر الى طلب الصلح حقنا للدماء ، فأجابهم خالد اليه مقابل دفع الجزية (٩٩) •

وقعة اجنادين (١٨ جمادى الاولى ١٣ هـ / ٢٠ يوليو ٦٣٤ م) :

واصل خالد بن الوليد وجيوشه سيرهم مـن بصرى الى العربة بفلسطين ، ومنها الى اجنادين ، تلك البلدة الواقعة بين الرملـة وبيت جبرين من أرض فلسطين • وكانت قوات ضخمة من الجيش البيزنطى قد نزلت عليها بلغ عددها مائة الف مقاتل ، وتحصنت بداخلها • هذا ، بينما بلغت جيوش المسلمين حوالى عشرين الفا وقيل ثلاثين الفا • وقد يكون فى اعداد الجيش بعض المبالغة ، الا أنها تدل على كثافـة قوات الفريقين فى المعركة •

على أى حال ، قام خالد بتنظيم قواته ، واخذ يتنقل بينها موجها اليها النصح والمشورة ، مطالبا اياها بعدم التعجل فى انهـاء القتال ، هادفا انهاك قوى العدو ، واطالة فترة القتال قدر الاستطاعـة • وقد

نجحت الخطة ، واثمرت بالحاق هزيمة شديدة بالجيش البيزنطى الذى ذهبت اعداد كبيرة منه بين قتيل واسير وجريح • أما من تبقوا على قيد الحياة بعد المعركة ، فقد ولوا هاربين الى القدس ودمشق وقيسارية للنجاة بأنفسهم • ووصلت اخبار الهزيمة الى الامبراطور البيزنطى ، وكان وقتها مقيما فى القدس يتابع المعركة ، فتركها الى حمص ليواصل منها القتال ضد المسلمين • وارسل خالد بن الوليد بالبشرى الى الخليفة ابى بكر ، وهو على فراش الموت • وقد استمرت موقعة اجنادين طوال يوم ١٨ جمادى الاولى ١٣ هـ (٢٠ يوليو ٦٣٤ م) (١٠٠) •

فتح فحل (٢٨ ذى القعدة ١٣ هـ / ٢٣ يناير ٦٣٥ م) ومرج الصفر (المحرم ١٤ هـ / مارس ٦٣٥ م) :

تولى الخلافة بعد وفاة ابى بكر الصديق امير المؤمنين عمر بن الخطاب (١٣ — ٢٣ هـ / ٦٣٤ — ٦٤٤ م) ، وكان قد عقد العزم على اتمام فتوح الشام • وكانت أول خطوة أقدم عليها هى عزل خالد بن الوليد عن امارة جيوش الشام ، واحل محله ابا عبيدة من الجراح ليكون قائدا على الشام كله (١٠١) • وقد اختلفت آراء المؤرخين القدامى حول تحديد وقت عزل خالد ، وعما اذا كان ذلك اثناء مسير الجيوش الاسلامية الى دمشق ، ام اثناء حصارها لها ، ام بعد فتحها • كذلك ثار الخلاف بين اولئك المؤرخين حول اسباب تنحية عمر له ، وعما اذا كان ذلك لخشيته منه ، أم لسعيه فى تولى على بن ابى طالب بعد وفاة الرسول (ﷺ) ، ام لغير هذا وذاك من الاسباب (١٠٢) •

ومهما قيل فى هذا الشأن ، فقد سار أبو عبيدة وجنده حتى بلغوا مرج الصفر ، وهو موضع بين دمشق والجولان ، بينما تجمع الجيش البيزنطى فى منطقة فحل بأرض الاردن ، وهرقل آنذاك مقيم بحمص التى جعلها مركزا حربيا لجيوشه ، ومنها كان يبعث بالمدد الى أهل دمشق • وبعث أبو عبيدة الى الخليفة عمر يسأله بأيهما يبدأ : بدمشق

أم بفحل • وكان رد أمير المؤمنين يـدل على الملم بالخـدع والتكتيكات الحربية ، اذ اشار على قائده بمناوئة العدو بقسم من الجيش ليشغله عنه ، بينما يتجه هو الى جهة أخرى بمعظم الجيش لفتحها •

وتنفيذا لتعليمات عمر بن الخطاب ، بعث ابو عبيدة بعشرة مـن قواده مع كل قائد الف جندى ، والقائد الاعلى لهم شرحبيل بن حسنة ، ووجههم الى فحل حيث تجمعت بها القوات البيزنطية • ودارت بـين الجانبين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين ودخولهم فحل • هذا ، بينما لحقت بالبيزنطيين هزيمة قاسية ، وذهب الآلاف منهم بين قتيـل وجريح ، واسرعت فلولهم الباقية بالهرب الى دمشق • وكان هذا النصر يوم الاثنين ٢٨ ذى القعدة ١٣ هـ (٢٣ يناير ٦٣٥ م) ، بعد حصار دام قرابة أربعة أشهر (١٠٣) •

ومن فحـل واصل المسلمـون طريقهم الـى مرج الصفـر التى بلغوها فى المحرم ١٤ هـ (مارس ٦٣٥ م) • وتمكنوا بعد قتال عنيف من فتحها ، وبذلك اصبح الطريق ممهدا أمامهم لفتح دمشق (١٠٤) •

فتح دمشق (١٥ رجب ١٤ هـ / ٤ سبتمبر ٦٣٥ م) :

كانت خطة ابى عبيدة بن الجراح ان يبعث الى دمشق بجيوشه لحصارها وتطويقها من كل جانب • فأرسل فرقة بقيـادة ذى الكلاع الحميرى نزلت دمشق من جهة حمص لمنع المدد الذى كان هرقل يرسله اليها ، ولقطع الاتصال بينها وبين القيادة البيزنطية فى حمص ، وبذلك يسد عليها الطريق المؤدى الى فلسطين • كما بعث بفرقة ثانيـة بقيادة علقمة بن كليم لتطويق المدينة من الجهة الاخرى • أما الجيش الرئيسى بقيادة ابن عبيدة ومعه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، فقد نزل على دمشق من ثلاث جهات • وتم ضرب الحصار حولهـا ، الذى اختلف المؤرخون القدامى فى مدته • فمن قائل أنه سبعين يوما ، ويرى فريق

آخر أنه امتد أربعة اشهر ، بينما يرى فريــق ثالث أنه استمــر ستة أشهر • وبينما المدينة محاصرة ، كان هرقل يتابع الموقف من حمص • واشتد القتال بين الطرفين الذى راح ضحيته الآلاف من الجانبين • وقد اختلفت الآراء حول فتحها ، وعما اذا كــان ذلك عنوة ام صلحــــا • والسبب فى ذلك ان خالد وبعض قواته اقتحموا باب الحصن عنوة ، بينما تم فتح بقية الابواب صلحا • وبعد التداول بين القادة المسلمين ، اتفق على اعتبار فتح دمشق صلحا • وكــان ذلك فى ١٥ رجب ١٤ هـ (٤ سبتمبر ٦٣٥ م) (١٠٥) •

فتح صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وتدمر وحوران وبيسان وطبرية :

بعد سقوط دمشق ادركت مدن الساحل الشامى والمدن الداخلية انها واقعة لا محالة فى قبضة المسلمــين • فتمكن يزيــد بن ابى سفيان ومعه جنده من فتح مدن الساحل وهى صيدا وعرقة وجبيل وبيروت • هذا ، بينما تمكن دحية بن خليفة الكلبى من فتح تدمر • وفتــح ابو الزهراء القشيرى حوران وما جاورها • وكان الصلح بين هذه البلاد وبين المسلمين على نفس شروط صلح دمشق (١٠٦) •

وواصلت الجيوش الاسلامية تقدمها وانتصاراتها • فوجه ابــو عبيدة بن الجراح قسما من الجيش بقيادة شرحبيــل بن حسنة وعمرو ابن العاص الى بيسان • وبعد قتال شديد تمكنا من فتحها صلحا عــلى شروط دمشق ، وذلك بناء على طلب أهلها • أمــا ابو الاعور فقــد نزل بجنوده على طبرية ، فطلب أهلها هم أيضا الصلح عــلى نفس شروط دمشق • وبعث عمرو بن العاص بالبشرى الى أمــير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وبذلك تم صلح الاردن (١٠٧) •

فتح حمص وقنسرين :

خلف ابو عبيدة على دمشق يزيد بن ابى سفيان ، وعــلى الاردن

شرحبيـــل بن حسنة ، وعـــلى فلسطين عمرو بن العـــاص • ثم خرج بالجيوش قاصدا حمص • وعندما علم هرقل بذلك ، وجه حشودا هائلة من الجند المرتزقة للدفاع عنها • ومحاولة منه لتشتيت جموع المسلمين، اتجه جانب من قواته لمهاجمة دمشق • فبادر ابو عبيدة بارسال جيش بقيادة خالد بن الوليد للتصدى للقوات البيزنطية • وتمكن يزيد مـــن داخل دمشق وخالد من خارجها من الاطباق على القـــوات البيزنطية والقضاء عليها • وقفل خالد عائدا بقواته الى ابى عبيدة •

واصل ابو عبيدة وخالد بالجيوش الاسلامية الطريق الى حمص التى بلغوها سنة ١٥ هـ (٦٣٦ — ٦٣٧ م) ، وضربوا الحصار حولها • وكان الوقت شتاء والبرودة شديدة ، فتحمل المسلمون قسوة الشتاء • وبعد انتهاء فصل الشتاء ، لجأ خالد بن الوليد الى حيلة ماكرة ، وهى الانسحاب من امام اسوار المدينـــة والتظاهر بالهزيمـــة ، حتى يبتعد البيزنطيون عن الاسوار وينزلوا من الحصن • حينئـــذ ينقض المسلمون عليهم ويلحقون بهم هزيمة شديدة • ووافق ابو عبيـــدة على الخطة ، ودار قتال عنيف بين الفريقين انتهى بهزيمة شديدة للقوات البيزنطية • فاضطرت المدينة الى طلب الصلح على شروط دمشق مع دفع الجزية • وزاد ابو عبيدة شرطا على أهلها هو عدم بناء كنائس جديدة لهم • وكتب ابو عبيدة الى الخليفة عمر بذلك ، فوافقه عليه (١٠٨) •

بعد ذلك ارسل ابو عبيدة وجنوده الى قنسرين على مقربة مـــن حلب • فلما صاروا بالقرب منها دار قتال شديد بينهم وبـــين القوات البيزنطية انتهى بالقضاء على معظمها وقتل قائدها • هذا ، بينما تقدم خالد نحو قنسرين واهلها متحصنون بداخلها • ولما ايقنوا انهم هالكون، طلبوا الصلح على شروط حمص مع دفع الجزية • واشترط خالد عليهم تخريب حصنهم حتى لايتحصنوا بداخله مرة أخرى ضـــد المسلمين ، فقبلوا ذلك (١٠٩) •

فتح بعلبك وحماه وشيزر واللاذقية وجبلة وبانياس وانطرطوس :

بعد هذه الانتصارات الساحقة المتلاحقة التى احرزها الفاتحون المسلمون فى الشام ، تأكد هرقل من ضياع ملكه فى هذا الاقليم الحيوى من الامبراطورية ، وكان مقيما فى انطاكية ومعه العرب المتنصرة • هذا، بينما انهارت تماما قوى المقاتلين البيزنطيين ، وانهارات معنوياتهم فى بقية البلدان التى كانت لاتزال بأيديهم ، وقد سقطت تباعا فى ايدى ابى عبيدة وخالد • وعلى هذا تم فتح بعلبك بعد أن طلب أهلها الصلح ووافقهم أبو عبيدة على ذلك ،مع تعهدهم بدفع الجزية • بعدها استسلمت حماه صلحا بعد تعهد اهلها بدفع الجزية والخراج • وهكذا فتحت شيزر من أعمال حمص ، ومعرة حمص ، واللاذقية من اعمال حلب ، وجبلة وهى قلعة بساحل الشام من اعمال حمص ،ومعرة حمص ، واللاذقية من اعمال حلب أيضا ، وبانياس ، وانطرطوس • وتم ترتيب من يتولى أمر هذه المدن والمعاقل والحصون ومن يقوم بحراستها والدفاع عنها • ثم توجه أبو عبيدة بقواته المظفرة الى الجابية (١١٠) •

موقعة اليرموك (٦ رجب ١٥ هـ / ١٤ أغسطس ٦٣٦ م) :

تأتى بعد ذلك آخر واكبر المعارك اثناء حركة الفتوحات العربية الاولى ، وهى معركة اليرموك • كان هرقل فى انطاكيـة آنذاك يراقب الموقف عن كثب ، ويعمـل على حشد الجند بكـل الوسائل استعدادا للمعركة الفاصلة المرتقبة • وارسل بحشود منها الى المدن التى لم تسقط بعد فى قبضة المسلمين ، وهى قيسارية وعكا وطبرية وبيت المقدس • كذلك انضم اليه جيش كبير من الارمن بقيادة باهان الارمنى ، وجعل قيادة الجيوش كلها اليه لكفاءته وخبرته القتالية • كما جعل فى مقدمة الجيش بضعة آلاف من مستعربة الشام من الغساسنة ولخم وجذام ، حتى يكون العرب المسلمون وجها لوجه أمام عرب الشام المستعربين •

وعندما علم أبو عبيدة بأنباء استعدادات هرقل ، عقد مجلسا من كبار القادة للتشاور فى الامور • ورأى خالد بن الوليد ترك الجابية القريبة من قيسارية ، والتوجه الى اليرموك التى تمتاز بأرضها الفسيحة الواسعة ، بحيث تسهل فوق ساحتها حرب الكر والفر التى يجيدها المسلمون ، وحتى يمكن لامير المؤمنين ارسال المدد اليهم تباعا • وتمت الموافقة على هذا الرأى ،واتخذت جيوش المسلمين طريقها الى اليرموك•

والحديث هنا يطول عن خطط الفريقين فى القتال ، وكيفية تنظيم الجيوش وترتيب مواقعها ، والمعارك التى دارت بينهما التى ذهب ضحيتها الآلاف من كلا الطرفين ، والتى افاضت المصادر فى ذكر تفاصيلها • ولكن الجديد فى المعركة ، ان النساء المسلمات شاركن فيها الى جانب الرجال مشاركة فعالة كان لها أثرها • ومما يذكر ان المعركة بدأت أول النهار فى ٦ رجب ١٥ هـ (١٤ أغسطس ٦٣٦ م) ، وانتهت عندما ارخى الليل سدوله بهزيمة مروعة للبيزنطيين (١١١) •

وجدير بالذكر أن المؤرخ الارمينى سبيوس ، المعاصر لتلك الاحداث ، زودنا برواية مفصلة لهادلالتها عن تلك المعركة الفاصلة التى قررتمصير الشام • يقول ان الجيش البيزنطى عبر نهر الاردن متسللا الى بلاد العرب ، تاركا معسكره مكشوفا على شاطىء النهر • وذهب أفراده للقاء العدو وهم مشاة • هذا ، بينما تربص جانب من الجيش الاسلامى فى كمائن متفرقة استعدادا للانقضاض على البيزنطيين • وقد اقام المسلمون خيامهم حول معسكرهم ، ثم أحاطوا الخيام والمعسكر بالجمال بعد أن ربطوا ارجلها بالحبال • هذا ، عن تحصينات وتكتيكات المسلمين • أما البيزنطيون ، فقد كانت قواتهم منهوكة القوى بسبب سيرها لمسافات طويلة • وبالرغم من ذلك ، فقد انقضت على المسلمين • حينئذ انطلق المسلمون من كمائنهم ، وهاجموا القوات البيزنطية التى اصابها الهلع والاضطراب • وعندما ارادت الفرار للنجاة بنفسها ، فشلت بسبب غزارة الرمال ، لدرجة ان الجندى البيزنطى كان ينغرس

فيها حتى ركبتيه ، بينما المسلمون يطاردون فلول الفارين • يضاف الى ذلك ، ان البيزنطيين لم يتحملوا شمس الشرق المحرقة فى مثل هذا الوقت من العام • وهكذا تساقطوا بين قتيل وجريح ، ولم يفلت من المذبحة سوى عدد قليل (١١٢) •

ونكشف رواية سبيوس ان المسلمين كانوا امهز من البيزنطيين فى اعداد الحيل والخدع والتكتيكات الحربية ، وانهم كانوا اعلم من اعدائهم بدروب المنطقة ومسالكها ، واكثر تحملا لجوها الذى الفوه •

فتح حلب واعزاز وانطاكية ونابلس وسبسطيه والد وعمواس وبيت جبرين ويافا ومرج عيون وعكا وعسقلان وقيسارية :

بعد هذه الضربة القاصمة التى تلقاها الجند البيزنطيون فى اليرموك ، واصل ابو عبيدة ، ورجاله تقدمهم حتى بلغوا حلب ، وكانت من اعمال قنسرين • وقد قاومت فى بداية الامر ، ولكن اهلها طلبوا من ابى عبيدة الصلح والامان ، فوافقهم على أن تكون شروط الصلح والجزية كشروط حمص • كما تمت الموافقة على تخريب حصن المدينة • ومن حلب اتجهت جيوش المسلمين الى انطاكية مركز تجمع الجيوش البيزنطية ، وحامية ظهر بيزنطة وعاصمتها فى الشام • وفى الطريق اليها تم فتح اعزاز بدون قتال • وما ان بلغ المسلمون انطاكية حتى ضربوا الحصار حولها • وانتهى أمرها بطلب الصلح ، والاقرار بالجزية • ووافق ابو عبيدة على ذلك ، ودخلها المسلمون الفاتحون (١١٣) •

كانت السن تتقدم بهرقل ، والعلل تتسرب الى جسده ، والحسرة تملأ قلبه • وكان سقوط انطاكية بمثابة ضربة قاضية بالنسبة له • وكان وقتها مقيما فى الرها ، فتركها متوجها الى عاصمة ملكة القسطنطينية ، وقد ادرك فعلا ضياع ملكه فى الشام • وربما يكون قد عاد بذاكرته الى الوراء ، ليرى مظاهر التمزق الدينى الذى عانت منه الشام الامرين ، وآثار حروبه مع الفرس التى اوصلت الدولة الى حالة الخراب

والافلاس المادى والبشرى • وربما يكون قد ادرك ، أيضا ، ان ما يحدث امام ناظريه كان أمرا متوقعا ، وان المسألة مسألة وقت فحسب •

ومهما يكن ، فقد رأى المسلمون — تأمنيا للفتوحات الاسلامية فى الشام من الجبهة الشمالية — ان يمدوا فتوحاتهم لتشمل مدن الجزيرة • فتم فتح الكوفة صلحا فى منتصف شعبان ١٨ هـ (٢٠ أغسطس ٦٣٩ م) ، ومن بعدها الرها وحران وسميساط وبقيــة المدن مثل منبج وآمــد وماردين • وقد طالبوا جميعا بشروط وتمت الموافقة على ذلك • وفى سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) واصل المسلمون فتوحاتهم فى بلاد مــا بين النهرين • فتم فتح ميافارقين ، وكفر توثا ، ونصيبين ، وارزق ، ورأس العين ، ودارا ، ودرب الروم ، وبدليس ، وخلاط • وتم فتحها جميعا صلحا (١١٤) •

كان طبيعيا ان تصبــح بيت المقدس مركــزا لتجمعات القوات البيزنطية بعد ان فقدت بيزنطة معظم مواقعها فى الشام ، وان تصبح ملاذا للذين خرجوا من مدنهم التى فتحها المسلمون • هذا ، بينما كانت الجيوش الاسلامية ، تواصل فتوحاتهــا • فتم لعمرو بن العــاص فتح مدن فلسطين فى وقت قصير • اذ تم صلحا فتح نابلس ، وسبسطية ، واللد ، وعمواس ، وبيت جبرين ، ويافــا ، ومرج عيون ، وعكــا ، وعسقلان • واقرت جميعها بالجزية والخراج • وكان ذلك فى سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) (١١٥) • وذلك باستثناء كل من الرملة وغزة اللتين حاصرهما علقمة بن مجزر • أما بالنسبة لقيسارية ، الواقعة بين عكا ويافا عــلى ساحل البحر ، فقد توجه اليها معاوية بن أبى سفيان وجنوده ، وضربوا حولها الحصار ، واشتعل قتال عنيف أحرز المسلمون فيه النصر عــلى البيزنطيين ، وتم لهم فتحها (١١٦) •

فتح بيت المقدس (ربيع الآخر ١٦ هـ / مايو ٦٣٧ م) :

لم يتبق بعد ذلك سوى مدينة بيت المقدس ، اذ ضرب عمرو بن العاص ورجاله الحصار حولها الذي استمر أربعة شهور لم ينقطع خلالها القتال الذى استخدم فيه البيزنطيون النشاب والمنجنقيات ، وقد منى المسلمون بخسائر فادحة ، وزاد من متاعبهم شدة البرد ، فقد كان الوقت شتاء ، وحاول القائد البيزنطى اطالة امد القتال لانهاك المسلمين والحاق الهزيمة بهم ، أو على احسن الفروض لاجبارهم عنى فك الحصار عن المدينة ، وعندما طلب عمرو بن العاص من الخليفة عمر المدد ، ارسل الى ابى عبيدة بن الجراح ليكون مددا له ، فتوجه بجيشه من الجابية الى البيت المقدس ، وبدأت الروح المعنوية لجيش المسلمين فى الارتفاع ، بينما تسلل الخوف الى قلوب أهل بيت المقدس ، ووجدوا ان الاسلم هو تسليم المدينة وطلب الصلح على نفس الشروط التى عقد بها على اهالى المدن الاخرى التى فتحها المسلمون ، ولكنهم خافوا تسليم المدينة الى عمرو بن العاص خشية الانتقام منهم للاضرار الشديدة التى الحقوها بالمسلمين ، وطالبوا بتسليمها الى الخفيفة عمر ابن الخطاب نفسه ، وان يتولى هو عقد الصلح معهم ، وبينما الاتصالات جارية وصل أبو عبيدة الى بيت المقدس سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) ، فطلبوا منه ان يصالحهم بشروط أهل دمشق ، وان يكون الخليفة هو الذى يتسلم المدينة ويعقد معهم الصلح ، فكتب أبو عبيدة وعمرو بن العاص الى عمر بذلك ،

كان عمر آنذاك بالمدينة ، فاستخلف عليها على بن ابى طالب ، وخرج قاصدا الجابية احدى قرى حوران ، وطلب من امراء الاجناد ان يوافوه فى الجابية بعد أن يستخلفوا على أعمالهم من ينوبون عنهم فى فترة تغيبهم ، وفى الجابية بدأت مشاورات الخليفة مع امراء جيوشه ، وفى تلك الاثناء وصلته وفود أهل بيت المقدس طالبة الامان والصلح على

يديه • فوافقهم وكتب لهم عهدا بذلك فى ربيـع الآخر ١٦ هـ (مايو ٦٣٧ م) (١١٧) • ووصل الخليفة عمر ومعه المسلمون مدينة بيت المقدس حيث أقام بها بعض الوقت ، ثم قفل عائـدا الى الجابيـة لاستكمال مشاوراته مع امراء الجيوش فى مختلف شئون المسلمين ، وما يتعلـق بنظم الدولة الاسلامية التى برزت على مسرح الاحداث ، والتى اتسعت رقعتها اتساعا هائلا فى عهده •

ويلخص جيفوند ذلك كله بقوله انه بعد فتح بيت المقدس اصبح المسلمون سادة على فلسطين وبلاد الشام (١١٨) • بينما يعلق احـد المؤرخين الغربيين على تلك الاحداث بقوله بأن الاقاليم الشرقية للدولة البيزنطية ، وعلى رأسها الشام وفلسطين ، استسلمت للفاتحين بسهولة تدعو الى السخرية (١١٩) •

لاشك ان سقوط بيت المقدس يعتبر من الاحداث الفاصلـة فى الحرب بين المسلمين والبيزنطيين • وكان الامبراطور هرقل فى ذلك الحين قد جاوز الستين من عمره ، وبدأت صحته فى التدهور ، واشتد عليه المرض الذى اضطره الى الاقامة فى عاصمته ، بينما أوفد ابنـه الاكبر قسطنطين الثالث (٦٤١ م) الى ميدان القتال لاسترداد شمال الشام • لكنه لقى هزيمة شديدة سنة ٦٣٨ م (١٧هـ) • وهكذا انتهت حركةالفتوح فى دورها الاول بانتزاع الشام وفلسطين كلها من ايدى البيزنطيين •

وتمثل موقعة اليرموك وفتح بيت المقدس اقصى اتساع للفتوحات الاسلامية المبكرة • اذ لاحقت المشاكل الداخلية الدولـة الاسلامية الناشئة فى عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٥ هـ / ٦٤٤ ـ ٦٥٦م)، وتفاقمت بعد مقتله بسبب الفتنة الكبرى التى أدت الى قيام حرب أهلية بين المسلمين زمن رابع الخلفاء الراشدين على بن ابى طالب (٣٥ ـ ٤٠ هـ / ٦٥٦ ـ ٦٦١م) ، ونتج عن ذلك توقف وقتى للفتوح • وقـد

خرج من هذا الصراع منتصرا القائد السياسى المحنك معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الاموية التى استعاد المجتمع الاسلامى فى عهدها استقراره الداخلى ، واستأنفت الجيوش الاسلامية فى ظل هذا الاستقرار فتوحاتها المظفرة .

الخلاصة المستفادة من الصراع الاسلامى البيزنطى فى الشام :

لعلنا نخلص من كل ماتقدم ان قوة جديدة ظهرت خلال العقود الاولى من القرن السابع الميلادى (السنوات الاولى من القرن الاول الهجرى) ، لتؤدى دورها على مسرح الاحداث ، هى الدولة العربية الاسلامية الفتية الناشئة ، التى احرزت انتصارات سريعة مذهلة فى سنوات قلائل ، على حساب جارتها الدولة البيزنطية التى كانت تعانى وقتها من عوامل الضعف والانحلال ، بينما كان الغرب الجرمانى يعيش فى عصر الظلام .

وما يستلفت النظر ان الدولة البيزنطية ، بتراثها العتيد ، وارثها الذى ورثته عن الامبراطورية الرومانية القديمة ، وقفت عاجزة عن الدفاع عن اقليم الشام ، وصد الجيوش الاسلامية المحاربة . لقد كانت القوات البيزنطية من الجند المرتزقة ، على الرغم من كثرة عددها، ضعيفة منهوكة القوى ، ليس هناك مبدأ أو هدف يجمع بينها . بينما غام المسلمون بفتوحاتهم قومة رجل واحد ، نشرا للاسلام وتأمينا له . كما لمعت بين حكامهم وقادتهم اسماء لرجال شجعان محاربين على معرفة تامة بفنون الحرب واساليب القتا ل. والنماذج عديدة نسوق بعضها على سبيل المثال . نضرب مثلا بموقف الخليفة ابى بكر عندما اصر على انفاذ حملة اسامة عقب توليه الخلافة ، وهى التى كانت قد توقفت بعد وفاة رسول الله (ﷺ) . وكان هدفه ان يعلن للبيزنطيين والمستعربة ان الفتوح لن تتوقف ، والا يستهينوا بقوة الدولة الاسلامية الناشئة . وهذا دليل على ما كان يتمتع به أول الخلفاء الراشدين من اجادة لفن

المناورة السياسية والحربية • ثم ان اصراره على مواصلة فتوحات الشام يدل على أن تلك الفتوحات ــ حسبما اسلفنا ــ لم تكن عفوية أو مصادفة ، انما أعدت ونفذت وتمت نتيجة خطط مرسومة وتدابير محكمة • اذ كان أبو بكر ، ومن بعده عمر بن الخطاب ، يدعوان ــ كلما دعت الضرورة ــ الى عقد مجلس شورى من كبار رجال الصحابة والقادة للبحث والمناقشة فى أمر « جهاد الروم بأرض الشام » • وقد يدور النقاش حول خطة للاستيلاء على مدينة ما ، أو الطريق الذى تسلكه الجيوش الاسلامية للوصول الى هدف مرسوم ، أو عقد صلح ؛ أو كيفية تنظيم القوات فى معركة ما ضد العدو • ولذلك كانوا يصلون دائما الى الرأى الاصوب والافضل • ويعزز هذا سير مجرى الاحداث منذ العهد النبوى •

واذا امعنا النظر فى النصائح التى كان يوجهها أبو بكر الى امرائه وجيوشه قبل ذهابهم لقتال البيزنطيين ، سوف نجد أنها تتضمن العديد من التعليمات والتوجيهات التى يمكن اعتبارها نواة أولى للنظم والقوانين التى أستنت فيما بعد كى تتعامل بموجبها الجيوش المتحاربة• والى جانب ذلك امتاز ببعد نظره ، وثاقب بصيرته ، واجادته لفن التكتيك الحربى • مثال ذلك عندما ارسل أربعة جيوش لفتح الشام ، خرجت من المدينة فى طرق متباعدة حددها هو لهم ، لتكون بمثابة رؤوس حراب تحيط بالعدو وتطوقه من كل جانب • وقد اثمرت هذه الخطة وحققت النتيجة المرجوة منها •

يضاف الى ماتقدم بروز قادة محنكين اثناء فتوحات الشام ، منهم ــ على سبيل المثال ــ خالد بن الوليد وعمرو بن العاص • ولهما مواقف عديدة تكشف عن عبقرية قتالية فذة • آية ذلك عندما طالب خالد بن الوليد قواته اثناء موقعة اجنادين باطالة مدة القتال مع البيزنطيين لانهاك قواهم حتى يسهل الانقضاض عليهم والحاق الهزيمة بهم • كذلك

اجاد المسلمون الاول فن التكتيك والاستراتيجية العسكرية . يكشف عن ذلك موقف الخيلفة عمر بن الخطاب . ذلك أنه اثناء فتـــوح الشام بلغ أبو عبيدة بن الجراح وجيشه مرج الصفر ، بينمـــا كانت القوات البيزنطية وقتها متمركزة فى فحل ، والامبراطور هرقل مقيما بحمص يتابع سير المعركة . وعندما طلب قائـــد الجيش الاسلامى رأى أمـــير المؤمنين ، كان رده واضحا وهو مناوشة العدو بجزء من الجيش لشغله عنه ، بينما يتم الهجوم بمعظم الجيش على جهـــة أخرى . كذلك كـــان من استراتيجية عمر بن الخطاب شغل البيزنطيين فى عدة جبهات فى آن واحد ، بتوجيه جيوشه الى بعض المدن التى كانت لاتزال فى قبضتهم ، وبذلك يحول بينهم وبين نجدة الهدف الذى يستعد المسلمون لفتحه . حدث هذا بعد فتح المسلمين لحب واعزاز وانطاكية عنـــدما طلب أمير المؤمنين توجيه بعض الجيوش الاسلامية الى الرملة وغـــزة وقيسارية وكانت لاتزال تحت الحكم البيزنطى ، ليشغل بيزنطة عن نجدة مدينة بيت المقدس التى كان يستعد لفتحها .

يضاف الى ماتقدم ، اجادة المسلمين لحرب الكر والفر ، واستخدام عنصر المفاجأة فى الحرب ، وخفة الحركة ، الى جانب قوة الاحتمال . وهذه وغيرها أمور لايمكن اغفالها عنـــد تقييم الصـــراع الاسلامى البيزنطى فى الشام فى هذه الفترة المبكرة ، فى ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين فى العصر الوسيط ، وهو ما سنتناوله بالدراسة والتحليل فى العنصر الثالث والاخير من هذا البحث .

الصراع الاسلامى البيزنطى فى الشام وتخومه فى صدر الاسلام فى ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين فى العصور الوسطى

بعد ان استعرضنا الغزوات والسرايا والبعوث الموجهة الى اعالى الشام فى العهد النبوى ومـــا تكشف عنهـــا من دلالات ، والاحتكـــاك العسكرى المباشر بين المسلمـــين والبيزنطيين فى الشـــام زمن الخلفاء

الراشدين حتى موقعة اليرموك وفتح بيت المقدس وما تمخض عنه من نتائج — يأتى دور تحديد مكان هذا الاحتكاك فى ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين فى العصور الوسطى .

من المعروف — بداءة — ان التاريخ عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الوقائع والاحداث المتراصة المترابطة المتماسكة ، التى لا يمكن تفتيتها أو تجزئتها أو فصلها عن بعضها ، وان أى تقسيم لها يعتبر تفتيتا لاحداث التاريخ . ومن المعروف ، أيضا ، ان كل حلقة منها عبارة عن فترة تغير وانتقال من السابق الى اللاحق . ومن المعروف ، كذلك ، أنه فى غمرة هذا الانسياب لاحداث التاريخ ، قام الصراع العنيف بين شقى العالم خلال عصور التاريخ القديم والوسيط والحديث ، بل وفى عصر ما قبل التاريخ . وهو ، دائما ، صراع بين قوتين كبيرتين وحضارتين مختلفتين ، كل منهما تحاول أن تفرض نفسها على الاخرى . فاذا تعادلت القوتان ، سياسيا وحضاريا ، كان هذا يعنى اعتدال ميزان القوى فى الصراع بينهما ، بحيث لايمكن لاى منهما أن تحرز تفوقا أو نصرا حاسما على الاخرى . بل تقفان وجها لوجه فى فترة تربص واستطلاع وحبس بنض . وهذا ما نسمية باعتدال كفتى الميزان فى الصراع بينهما . ويستمر الوضع على هذا الحال الى أن يتغير توازن القوى ، الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بتغير الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها لدى كل منهما . فاذا رجحت احدى القوتين على الاخرى ، بادت — عادة — باتخاذ سياسة الهجوم وتوجيه الضربة الاولى ، بينما تلتزم الاخرى بسياسة الدفاع عن نفسها وعن كيانها بوجه عام . وعادة مايحرز الاقوى النصر على الاضعف . والعكس صحيح ، اذا ما تفوقت القوة الثانية على الاولى ، تبادر باتخاذ سياسة الهجوم ، ويميل مركز الثقل الى جانبها ، بينما تلتزم الاخرى بسياسة الدفاع ، ويرتبط هذا التغير فى توازن القوى صعودا وهبوطا — الى حد بعيد — بالاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة فى وقت ما فى

كلا العالمين كما ذكرنا • ثم ان موازين القوى ومراكز الثقل هذه ترتبط هى الاخرى ، ببعض المفاهيم الهامة ، وفى مقدمتهـا الافعال وردود الافعال ، والاسباب والمسببات ، والنتائج والخواتيم • بمعنى ان لكل فعل رد فعل ، ولكل نتيجة سبب • فاذا بدأ الاقوى بتوجيـه الضربة الاولى التى يتقبلها الاضعف مستسلما ، فان هذا الاخير ينتهز الفرصة المواتية التى تتيح له اعـادة التوازن ورجحان كفته ليوجـه الضربة المضادة الى خصمه ، وهكذا •

من هذا المفهوم ، بدأ الصراع منذ أقدم العصور بحروب طرواده التى خلدها الشاعر هوميروس فى اشعاره المعروفة باسـم « الالياذة والاوديسية » • ثم قامت الحروب الميدية بين الفرس والاغريق منـذ القرن الخامس قبل الميلاد ، التى انتهت بسيادة الاسكندر المقدونى على أكثر بقاع العالم وقتذاك ، وما استتبع ذلك مـن فرض الحضارة الهيلينية عليها بعد قضائـه على دولة الفرس التى اصبحت عاصمتهم المدائن احدى الولايـات الداخلة فى نطـاق الامبراطورية الجديدة • واعقب ذلك ظهور الرومان على مسرح الاحداث ، وتوسعهم فى الشرق ، وانتزاعهم السلطة من الاغريق بعد معارك عنيفة حملت رومـا بعدها لواء الكفاح فى الغرب ، وورثت الاغريق سلطانهم ونظمهم وحضارتهم • وتظل روما عاصمة لدولة شامخة حتى اخريات القرن الخامس الميلادى عندما نزل الجرمان البرابرة فى جوفها ، وقضوا عليها وعلى معالمها ، بعد ان انهكتها الازمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، واقاموا على انقاضها دولا جديدة ذات انظمة وحضارة جديدة مغايرة •

وهنا يطوى التاريخ احدى صفحاته ، ليبدأ عصر جديد هو العصر الوسيط • ففى اوائل القرن الرابـع الميـلادى اعترف الامبراطور الرومانى قسطنطين الكبير (٣٠٥ — ٣٣٧م) بالديانة المسيحيـة التى اصبحت الدين الرسمى للدولة الرومانية ، وبخاصة فى القسم الشرقى منها الذى عرف باسم الدولة الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية أو

دولة الروم كما كان يسميها المؤرخون العرب فى مصادرهــم ، وعرف أهلها باسم الروم • واخذ الصراع منذ ذلك الحين يصطبــغ بالصبغة الدينية • فقامت الحروب بين بلاد فارس والدولة البيزنطية ، فى وقت استعادت فيها الاولى قوتها وشهدت نهضة دينية كبيرة ارتبطت بالديانة الزرادشتية ، بينما كانت الثانية تدين بالمسيحية • وكان من اثر ذلك استيلاء خسرو ملك الفرس على بيت المقدس والصليب الذى يعتقد المسيحيون أن المسيح صلب عليه • وكان رد الفعل هــو تلك الحروب المضادة التى قام بها الامبراطور البيزنطى هرقل التى انتهت سنة ٦٢٨م باسترداد البيت المقدس وصليب الصلبوت من قبضة الفرس • وكانت نتيجة هذا الصراع الطويل المرير هى خروج المنتصر والمهزوم متهالكين •

وفى بدايات القرن السابــع الميلادى ، بينما كــان الصراع بين البيزنطيين والفرس على اشده ، ظهر الاسلام فى شبه الجزيرة العربية، وبدأت الغزوات والسرايا عنــد تخوم الشام فى عهــد النبى (ﷺ) • واعقبتها حركة الفتوحات الاسلاميــة الكبرى فى دورهــا الاول زمــن الخلفاء الراشدين ، والتى اسفرت عن فقدان الدولة البيزنطية لممتلكاتها فى بلاد الشام ، ودخول هذه الممتلكات فى اطار الدولة العربية الفتية التى أخذت تتكون آنذاك •

ومنذ ذلك الحين ، أى منذ ظهور الاسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى (القرن الاول الهجرى) ، وحتى نهاية العصور الوسطى فى اواخر القرن الخامس عشر الميلادى (القرن التاسع الهجرى) ، كــان الصراع سجالا بين المسلمين والمسيحيين • تسعمائة عــام من الصراع الممتد المتصل ، الدامى فى معظم الاحيان والهادىء فى بعض الاحايين ، بين هاتين القوتين الكبرتين ، تبادلا فيها النصر والهزيمة ، وفقا لمقتضيات الظروف والاحوال فى كلا العالمين الاسلامى والمسيحى (١٣١) •

ويعتبر الصراع الاسلامى البيزنطى فى صدر الاسلام ، والذى

كان مسرحه بلاد الشام وتخومها ، مرحلة هامة ودورا اساسيا ، من مراحل وادوار الصراع الاسلامى المسيحى ، وان بدا فى كل مرحلة فى ثوب مغاير ، وان اتخذ شكلا معينا يتناسب والظروف الموضوعية القائمة وقتها • فهذا الصراع — باختصار — بمثابة حلقات متتابعة فى سلسلة واحدة ممتدة عبر مئات من السنين ، والاقوى فيه يوجه الضربة المؤثرة الى الاضعف ، محاولا احتواءه وفرض سيطرته وحضارته عليه •

واذا انتقلنا من التعميم الى التخصيص ووضعنا المفاهيم السابقة موضع التطبيق العملى ، نقول انه بظهور الاسلام وبداية حركة الفتوحات ، ظهرت قوة جديدة على مسرح الاحداث ترتبط بالدين الجديد • وكانت توجد وقتذاك قوتان اخريان ، الغرب الجرمانى الذى قام على انقاض الامبراطورية الرومانية القديمة فى غرب اوروبا ، والدولة البيزنطية أو دولة الروم التى قامت على انقاضها فى شرق اوروبا • هذا ، بينما كانت دولة الفرس قد انتهى أمرها على أيدى المسلمين •

أما غرب اوروبا فكان يمر وقتذاك فيما عرف اصطلاحا بفترة العصور المظلمة أو العصور الوسطى المبكرة • كان مسرحا لغزوات الجرمان البرابرة الذين تمكنوا من القضاء على الدولة الرومانية ، التى كانت قد انهكتها الازمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية والعسكرية ، وعلى نظمها وحضارتها ليقيموا على انقاضها دولا وممالك جديدة مغايرة • حدث هذا فى وقت انتصرت فيه الديانة المسيحية على الوثنية وعبادة الاباطرة بعد صراع دام عنيف • وكان هذا يعنى ، بكلمة مختصرة ، نهاية عصر بأنظمته وقوانينه وحضارته وتقاليده • لقد انهار ذلك الصرح الشامخ فى السياسة والدين والاجتماع ، والاقتصاد والفلسفة والقانون والفكر الذى كان سائدا عند الرومان القدماء ، لتحل محله أمم جديدة لها حضارتها وتفكيرها ومشاكلها الادبية والمادية والاجتماعية الخاصة بها • وترتب على ذلك

ان وجدت فى الغرب حالة واضحة مـن الفوضى والاضطراب فى شتى مناحى الحياة ومختلف أفرع المعرفة الانسانية خلال القرون الاولى من العصر الوسيط ، حتى ان كثـيرا من المؤرخين الغربيـين الحديثين المشتغلين فى هذا الميدان نظروا اليها على أنها فترة جمود وبرودة ، ليس فيها أى خير للبشرية ، وليس فيها من نور العلم والمعرفة شىء يذكر • وعاش الفرد فى الغرب اسير هذه الظروف ، داخل هذه الدائرة الضيقة المحدودة للامور فى نطاق المسيحية وفلسفتها وتعاليم الكنيسة اللاتينية وقيودها • وشغل حياته بالكفاح من أجل كسب القوت اليومى فحسب ، وكفاه فى ذلك الكفاف من العيش (١٢٢) •

هكذا عانى الغرب وقت ظهور الاسلام واثناء حركة الفتوحات من حالة الفوضى السياسية والقحط الحضارى ، بحيث لم يكن بوسعه بالمرة مواجهة الاسلام أو حتى التصدى له • لقـد وقف بلا حراك أمام هذه الاحداث الجسام التى كانت الجزيرة العربية مسرحا لها ، لا حول له ولا طول ، ولا يحرك ساكنا • ولذلك لم يكن لـه أى دور فى المواجهة الساخنة التى تمت بين المسلمين والبيزنطيين فى الشام اثناء الدور الاول من حركة الفتوحات الاسلامية • وسكتت مصادره — بالتالى — عن الاشارة الى هذه الاحداث •

أما القوة الثانية التى قدر لهـا مواجهة حركة الفتوحـات ، فهى الدولة البيزنطية وريثة الدولة الرومانية القديمة ونظمها وحضارتها ، وعاصمتها القسطنطينية عند التقاء البسفور ببحر مرمرة ، التى اعتبرت بمثابة « روما ثانية » أو « روما جديدة » بعد انهيار روما الغرب تحت جحافل الجرمان • وقد أوضحنا فى مستهل هذه الدراسة انها كانت تمر خلال الحقبة الاخيرة من القرن السادس وبدايات القرن السابع الميلادى بحالة من الفوضى والاضطراب فى كافة النواحى والمجـالات ، بحيث وقفت — هى الاخرى — عاجزة أو شبه عاجزة أمام تطور الاحداث •

ومع ذلك ، لا خلاف أن هذه الدولة التى قدر لها أن تعمر ألف عام أو يزيد ، والتى تميزت بدستورها المحكم ، ونظامها الادارى المتين ، مع وجود قواعد ثابتة للوراثة والوصاية فى الكرسى الامبراطورى ، والتى اشتهرت بقوة معظم اباطرتها ودهائهم وطموحهم ، وبسياسة الاقتصاد النقدى التى سارت عليها والتى جعلت خزينـة الامبراطور التى هى خزينة الدولة عامرة دائما بالمال الذى كان ينفق منه على مختلف اجهزة الدولة مما هيأ لها الاستقرار — هذه الدولة بكل امكاناتها كـان قد انتابها الاعياء والشلل قبيل ظهور الاسلام وعنـد ظهوره وانتشاره ، ليس فقط بسبب حروبها الطويلة مع الفرس ومـع العناصر المتبربرة شمال الدانوب وفى البلقان ، منذ قيامها زمن قسطنطين الكبير وفى عهد كل من جستنيان وهرقل بوجه خاص ، بل أيضا بسبب ما ترتب عـلى هذه الحروب من آثار مدمرة اصابتها فى الصميم •

فاذا تناولنـا الجـانب العسكرى ، نجد أن الدولـة البيزنطية استخدمت فى جيشها عناصر مختلفة من الجند المرتزقة ، مـن اجناس وميول مختلفة ، ضمانا لعدم توحيد كلمة الجيش المتشعب فى الاصل والاتجاه واللغة والجنس والعادات والتقاليد تحت أمرة رجل واحد ، فلا يمكن جمع كلمتهم وتوجيهها ضد الامبراطورية • وكان هذا الجيش يقوم بمهامه خير قيام اثناء قوة الدولة وعظمتها • ولكن بسبب حروب جستنيان ضد العناصر الجرمانية فى الغرب والشمال الافريقى وضـد الفرس فى الشرق ، واستمرار الحرب ضد الفرس زمن هرقل ، وضد الآفار والسلاف فى البلقان ، قل عدد الجند بشكل ملموس وقت ظهور الاسلام ، وانتشاره خارج شبه الجزيرة ، ونضبت الجهات التى كانت تمون الدولة بأكفأ رجالها وقادتها • وفضلا عن ذلك ، فان هذا الجيش المتهالك المرتزق لم يعد بحكم تكوينه ومآل اليه ، الدفـاع عن املاك الدولة التى اخذت هى الاخرى تقتصد فى نفقاته بسبب ظروفها الماليـة السيئة بعد حروبها فى أكثر من جبهة (١٢٣) • يضاف الى ما تقدم أنـه

وجدت عناصر عديــدة معارضة داخــل الجيش نفســه كانت تشجع الدسائس لمصالحها الخاصة على حساب السلطة الحاكمة ، مما أسهم فى اضعاف قدرة هذا الجيش أكثر وأكثر (١٢٤) •

وفضلا عن ذلك ، وقــع البيزنطيون اثنــاء الصراع الاسلامى البيزنطى فى الشام فى أخطاء استراتيجية جسيمة • كمــا كان للعوامل الطبيعية والجغرافية والطبوغرافية اثرها فى هزيمتهم أمــام القوات الاسلامية • وفى هذا يقول جيفوند فى معرض حديثة عن معركة اليرموك ان البيزنطيين ارتكبوا خطأ فاحشا عندما تركوا خيولهم وامتعتهم داخل معسكرهم وابتعدوا عنه • ثم انهم كانوا يقاتلون المسلمين وهم مشاة تحت وطأة اسلحتهم الثقيلة فى أرض وعرة غزيرة الرمــال ، وفى جــو شديد الحرارة • وكانت النتيجة ان دب الخلل والاضطراب فى صفوفهم، ولقوا الهزائم المريرة على أيــدى الجيوش الاسلامية (١٢٥) • وهكــذا تلقى الجيش البيزنطى الضربات تباعا اثناء فتحوحات الشام ، ولم يكن باستطاعته الصمود امام القوات الاسلامية التى كانت أقل عددا ولكنها أكثر تنظيما واعدادا ، وتدافع عن عقيدة راسخة تؤمن بها • وتعزيزا لذلك يقول ريتشارد سالیفان ان أولئك العرب نشأوا فى أول الامــر كمحاربين غير نظاميين فى الصحراء • ولكنهم سرعــان ما تطوروا الى مجتمع قوى منظم يؤلف بين رجاله الدين الاسلامى بمبادئه الواضحة ومفاهيمة الاخلاقيــة (١٢٦) • وترتب على ذلك اختــلال فى التوازن العسكرى بين القوتين المتحاربتين • وكان هذا الوضع فى صالح الجانب الاسلامى •

وقد واكب هذا الانهيار الذى حل بالعسكرية البيزنطية آنذاك على ايدى القوات الاسلامية ، هزائم فى الحروب التى خاضتها قبــل احتكاكها المباشر بالمسلمين فى الشام • وبدا كما لو ان نجم الامبراطورية قد اخذ فى الافول • واضطرت الدولة لمواجهة مشاكلها المــالية المتفاقمة

الى فرض المزيد من الضرائب على ولاياتها ، وخصوصا بلاد الشام ، الامر الذى أدى الى تصاعد استياء اهالى هذه البلاد ، وانتهازهم أية فرصة سانحة للتخلص من نير الحكم البيزنطى • وقد واتتهم تلك الفرصة أثناء حركة الفتوح الاسلامية فى الشام (١٢٧) •

واذا اضفنا الى ماتقدم الجانب الدينى ، سوف نجد أن ولاية الشام البيزنطية كانت ـ كما اسلفنا ـ تعانى الامرين من الخلافات المذهبية بين الملكانيين أصحاب الطبيعتين واليعاقبة أو المونوفيزيين اصحاب الطبيعة الواحدة للمسيح • وقد ادت محاولة هرقل لتوحيد المذاهب المسيحية الى عكس ما أراد • اذ كانت ولاية الشام تغلى ضد بيزنطة • وحسمت الامر تلك الحروب الاسلامية البيزنطية التى كانت الشام مسرحها ، والتى انتهت بفقدان الامبراطورية لها الى غير رجعة (١٢٨) • لقد رحب اهالى الشام بالفاتحين المسلمين الذين وجدوا فيهم مخلصين لهم من هذا النير الدينى الذى فرضته عليهم بيزنطة (١٢٩) • يؤكد ذلك ما ذكره جيفوند من ان أهل الشام طلبوا من المسلمين الاسراع بمساعدتهم وتخليصهم من الاضطهاد الدينى الذى مارسته بيزنطة قبلهم • وكان هذا من بين العوامل التى يسرت عملية الفتح (١٣٠) • لقد كانت هذه نقطة ضعف أخرى عانت منها بيزنطة اثناء فتوحات الشام ، ساعدت على رجحان الكفة الاسلامية فى أول صراع بين الطرفين •

وثمة مسألة أخرى ترتبط بسابقتها ، وهى اختلاف المسيحية الاولى عن الاسلام فيما يتعلق بنظرة كل من المسيحية الى فكرة الحرب المقدسة والاسلام الى فكر الجهاد • لقد كانت تعاليم الدين المسيحى تنادى بالسلام وعدم الاقتتال وازهاق الارواح باعتبارها من الامور التى يحرمها الله • وكان هذا رد فعل طبيعى للديانة الوثنية التى تميز تبالعنف والقسوة والوحشية • وظلت الكنيسة البيزنطية متمسكة

بهذا المبدأ ، وهو ان الحرب أمر يتنافى والتعاليم التى نادى بها المسيح ، ولذلك لم تبارك حروب هرقل ضد المسلمين • أما بالنسبة للاسلام ، فقد حث القرآن الكريم المسلمين على الجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه • فالجهاد فى الاسلام مبدأ وعقيدة ، وضرورة سياسية وحربية استلزمتها الظروف التى صاحبت نشر الاسلام وتأمينه • ومن هنا كانت تلك الحماسة المنقطعة النظير التى تجلت اثناء حركة الفتوحات فى الشام ، والتى يقابلها تقاعس اهالى الشام المستاءين من الحكم البيزنطى ، وعدم مساندتهم للجيش الامبراطورى ، وسلبية الكنيسة البيزنطية (١٣١) •

ومما يشد الانتباه ان سبيوس ، وهو المؤرخ الارمينى المعاصر للفتوحات الاسلامية المبكرة ، ركز فى مؤلفه على أهمية الجهاد فى الاسلام (١٣٢) • بينما اعترف جيفوند الذى عاش فى القرن الثامن الميلادى (القرن الثانى الهجرى) بأن الحماسة الدينية التى بثها رسول الله (ﷺ) ، ومن بعده الصحابة ، فى نفوس الجيوش الاسلامية المقاتلة ، وحثها على الجهاد فى سبيل الله للفوز بفردوس النعيم ، وما جاء فى كتاب الله من ان الاسلام هو دين العالمين ، وان رسالته يجب ان تبلغ لكافة البشر — اعترف جيفوند ان الايمان بالله ورسوله دفع المقاتل المسلم للاستشهاد فى سبيل نشر هذا الدين خارج الجزيرة العربية والدفاع عنه • ومن هنا كان الجندى المسلم اشد حماسة وايمانا فى خوض غمار الحرب من الجندى البيزنطى (١٣٣) •

لقد حول الاسلام القبائل العربية الهائمة على وجهها والمتشاحنة فيما بينها فى شبه جزيرة العرب ، الى قوة عالمية هائلة تصدت لواحدة من اعظم امبراطوريات العالم وقتها ، وهى الدولة البيزنطية ، والحقت بها الهزيمة تلو الاخرى فى واحدة من أهم واخصب ولاياتها فى الشرق وهى بلاد الشام • ولاشك ان الفاتحين الجدد كان يدفعهم الاسلام

باعتباره قاعدة خلاقة أدت الى مولد حضارة جديـــدة ديناميكية مبدعة ، قدر لها ان تترك آثارها على تاريخ حوض البحر المتوسط بخاصة ، وعلى العالم المعروف وقتها بصفة عامة (١٣٤) •

وفى تقييم ساليفان لفتوح الشام ومـــا تمخضت عنه يقول انها تروى قصة النجاح الساحق المذهل الذى حققه شعب كان منذ فترة غير بعيدة ضعيفا مفككا ، ولكنه تحول بسرعة بفضل الدين الجديد الى قوة جبارة • ويستطرد مبينا ان العالم لم يشهد ابدا منذ اقدم العصور مثل هذه الدولة الشاسعة المترامية الاطراف التى أخذت تتكون مع بدايات القرن السابع الميلادى ، وتحددت معالمها فى أواسط القرن الثامن ، حتى أنه لم يكن باستطاعة احد ان يجادل فى أمر ظهـــور قوة عالميـــة كبرى قادرة ليس فقط على ترك بصماتها على حوض البحر المتوسط ، بـــل على تغيير مجرى التاريخ البشرى (١٣٥) •

كان طبيعيا ، اذن ، بعد ان ظهر الاسلام كقوة جديدة على مسرح الاحداث ، وفى ضوء الاعتبارات سالفة الذكر ، ان يميل مركز القوة الى جانبه فى أول صراع له ضد الدولـــة الرومانية الشرقية اثنـــاء فتوح الشام • واستمرت كفة الاسلام هى الراجحة فى صراعه ضـــد اوروبا المسيحية بشقيهـــا الشرقى والغربى طوال القـــرون السابع والثامن والتاسع وبدايات القـــرن العاشر الميـــلادى (القـــرون الاول والثانى والثالث وبدايات القرن الرابع الهجرى) ، تكونت خلالها الدولة العربية الاسلامية فتية مترامية الاطراف من المحيـــط الى الخليج ، بينمـــا كان العالم المسيحى يعانى من الفوضى والتدهور والاضطراب • كما أصبح البحر المتوسط بحيرة اسلامية بعد ان كان بحرا رومانيا حسبما يقول المؤرخ هنرى بيرين (١٣٦) • وهكذا وقفت اوروبا مكتوفة الايدى أمام العالم العربى الاسلامى • وقد صاحب القوة السياسية التى تمتع بها ، ازدهار حضارى شمل مختلف النواحى والمجالات •

ولكن اعتبارا من أوائل القرن العاشر الميلادى (بدايات القرن الرابع الهجرى) ، حدث تغير فى توازن القوى بين العالمين الاسلامى والمسيحى • ففى الجبهة الشرقية بدأت الدولة البيزنطية تسترد قوتها فى عهد اسرة من أقوى الاسرات التى حكمت فيها ، وهى الاسرة المقدونية (٨٦٧ — ١٠٥٩ م) ، وبخاصة فى عهد كل من الاباطرة نقفور الثانى فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م) ، ويوحنا الاول تزمسكيس (٩٦٩ — ٩٧٦ م) ، وبازيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥ م) • هذا ، بينما أخذ التفكك والانقسام يدبان فى أوصال العالم العربى الاسلامى • وكانت النتيجة ضربات قوية وجهتها الى المسلمين ، وبخاصة فى رقعة المشرق الاسلامى، واحرزت فيها عدة انتصارات [١٣٧] •

ومع بدايات القرن الحادى عشر الميلادى (بدايات القرن الخامس الهجرى) ، كان الغرب الاوروبى ، هو الآخر ، قد افاق من كبوته بعد قرون طويلة من الظلام ، وبدأ يسترد انفاسه اللاهثه ، ويستجمع قواه ، ويشق طريقه نحو التقدم ، بعد توقف غزوات البرابرة ، واستقرار الاحوال فيه • وفى نفس هذا الوقت تصاعدت حدة الخلافات والانقسامات السياسية والمذهبية فى العالم العربى الاسلامى ، واتسعت هوته • وكان هذا يعنى ان زمام المبادأة أصبح فى قبضة الغرب الذى وجه أولى ضرباته ضد المسلمين بالاستيلاء على صقلية والجنوب الايطالى خلال القرن الحادى عشر الميلادى (القرن الخامس الهجرى) • هذا ، بينما كانت الممالك المسيحية فى شمال اسبانيا ، وهى اراجون وليون وقشتالة ونافار ، تساندها بقية دول الغرب ، وفى مقدمتها فرنسا ، تواصل صراعها ضد المسلمين لاخراجهم من شبه الجزيرة الايبيرية • وتلتها الضربة الثانية المؤثرة فيما عرف اصطلاحا باسم « الحروب الصليبية » التى شغلت ثلاثة قرون من الزمان ، هى القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية) ، والتى تعتبر مرحلة هامة من

مراحل الصراع الطويل بين العالمين الاسلامـــى والمسيحى فى القرون الوسطى ، ودورا رئيسيا من ادواره •

والحديث عن الصراع الصليبى الاسلامى وتغير مراكز الثقل فيه بين المسلمين والصليبيين يطول ، ولا يزال بحاجة الى مزيد من الدراسات المتأنية المتعمقة الدءوبة (١٣٨) • ولكن يكفى القول هنا أن هذا الصراع مر — بدوره — بأكثر من مرحلة • أولاها عندما وقف الغرب على قدميه، وامسك بزمام المبـــادأة ، ووجه الضربة القويـــة ضد الشرق الادنى الاسلامى فى السنـــوات الاخيرة من القرن الحـــادى عشر الميلادى (السنوات الاخيرة من القرن الخامس الهجرى) ، وتمكـــن من تأسيس مملكة له فى قلب فلسطين ، بالاضافة الى ثلاث أمـــارات هى : الرها وانطاكية وطرابلس الشام • وقد تلتها مرحلة افاقة اسلامية مع بدايات القرن الثانى عشر الميلادى (بدايات القرن السادس الهجرى) ، عندما استشعر المسلمون بالخطر المحدق بهم • وادى ذلك الى توازن القوى، أى اعتدال كفتى الميزان فى الصراع بين الطرفين ، بحيث لم يكن بوسع أى منهما توجيه ضربة حاسمة الى خصمه • وكانت فترة ترقب وانتظار تلتها عملية التكتل الاسلامى ، بحيث أصبح مركز الثقل يميل بشكل واضح لصالح المسلمين ، بينما بدأ الضعـــف يدب فى الكيان اللاتينى المتداعى فى الاراضى المقدسة لاسباب عديدة متداخلة فى بعضهـــا ، فى الوقت الذى انشغلت فيه اوروبا عن نجدة اخوانها أفرنج الشام بسبب مشاكلها الخاصة ومشاغلها الداخلية من جهة ، وفتور الحماسة الدينية للفكرة الصليبية نفسها وتشكك الاوروبيين فيها وفى جدواها وفائدتها من جهة أخرى • وهكذا ، أصبح زمام المبادأة فى يد المسلمين الذين اخذوا يوجهون ضرباتهم القوية الى افرنج الشام ، حتى انتهى الامـــر باخراجهم منها فى اواخر القرن الثالث عشر الميلادى (اواخر القرن السابع الهجرى) ، وفشل جميع الحملات التى وجهتها أوروبا ضـــد العالم الاسلامى فى القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى)،

والتى عرفت اصطلاحا باسم الحروب الصليبية المتأخـرة (١٣٩) • ثم اعقبت ذلك الضربات المضادة التى وجهها المسلمون ضد مراكز الفرنج أو محالفيهم فى كل من ارمينيـة وقبرص ورودس اعتبارا مـن اواخر القرن الثامن وحتى بدايات القرن العاشر الهجرى (١٤٠) • وبها تطوى صفحة من التاريخ سجلت صراع تسعمائة عام أو يزيد بين المسلمين والمسيحيين ، لتبدأ صفحة أخرى فى العصر الحديث الذى يشهد مرحلة جديدة من مراحل الصراع بـين الشرق والغرب وقـد اتخذت شكلا يتناسب واوضاع عالمنا المعاصر •

وانكان هذا البحث يدور حول ظهور قوة جديدة عـلى المسرح العالمى ، بظهور الاسلام والفتوحات المظفرة التى احرزها فى الشام على حساب الدولة البيزنطية ومحالفيها من مستعربة الشام فيما بين عامى ٦٢٦ و ٦٣٧ م (٥ — ١٦ هـ) ، وما ترتب على ذلك من تغير فى مراكز القوى باندلاع الصراع بين العالم الاوروبى المسيحى والعالم العربى الاسلامى طوال أكثر من تسعة قرون من الزمان ، الا أنه لايزال موضوعا خصبا يفتح آفاقا رحبة واسعة لمزيد من الدراسات الجديدة فى هذا الميدان الحيوى الهام (١٤١) •


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حواشى البحث

(١) Runciman, S., Byzantine Civilisation, London, 1948, P. 38;
Baynes, N.H., The Byzantine Empire, London, 1939, pp. 44 - 45.

(٢) Baynes, N.H. and Moss, H. St. B. (eds.), Byzantium : An Introduction to East Roman Civilization, Oxford, 1953, pp. 9 - 10.

(٣) بتلر (الفردج) : فتح العرب لمصر ، عربه محمــد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٣ م ، ص ١ — ٢ .

(٤) Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Trans. by J. Hussey, Oxford, 1956, pp. 83 - 84.

(٥) Runciman, op. cit., p. 40.

(٦) Sullivan, R.E., Heirs of the Roman Empire, New York, 1960, pp. 22 - 23.

للمزيد من المعلومات عن العرب قبل الاسلام ، انظر احمد عبد الحميد الشامى (دكتور): فى تاريخ العرب والاسلام : حضارة العرب قبل الاسلام — حياة محمد وظهور الاسلام ، ط . ثانية ، القاهرة ١٩٨٢ ، وخاصة القسم الاول بفصوله الخمسة ، ص ٧ — ١٤٧، السيد عبد سالم (دكتور) : تاريخ الدولة العربيــة ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ٣ — ٣٢ .

(٧) اومان (ش .) : الامبراطورية البيزنطية ، تعريب د . مصطفــى طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٢٧ . جــدير بالذكر أن جورج موناخوس المعروف بجورج همرتولوس لم يذكر شيئا فى مؤلفه عن تلك الفترة سوى اشارة ورد فيها اسم الرسول (ﷺ) باعتباره زعيما للعرب المسلمين . وبنص قوله :

«.... Mahometus, Saracenorum princeps».

انظر : Georgius Monachus (Hamartolus). ed. Migne, Patrologia Graeca, t. CX, Paris, 1863, P. 835.

أما المعلومات الواردة فى كتاب ثيوفانيس عن الفتـــرة موضوع الدراسة فهى مركزه للغاية ، ومبعثرة ، ومشوشة الى حد بعيد ، مع وقوع اخطاء عديدة فى تواريخ الوقائع والاحداث • ولعـــل ذلك يرجع الى بعده الزمنى عنها ، فضلا عن عدم وجود مؤرخ بيزنطى معاصر قام بتسجيلها •

انظر : Theophanis, S.P.N., Chornographia, ed. Migne, Patrologia Graeca, t. CVIII, Paris, 1863, pp. 681, 687, 691, 695, 699.

وفيما يتعلق بمعاصره نقفور جريجوراس فقد مـــر على احداث السنوات الاولى من فتوحات الشام مر الكرام • انظر :

Nicephorus, S., Breviarium Historicum de Rebus Gestis post Imperium Mauricii, ed. Migne, Patrologia Graeca, t.C., Paris (N.D.) PP. 911 - 912.

(٨) معلوماتنا قليلة للغاية عن سبيوس وحياته الخاصة ، وكل ما نعرفه عنه أنه كان من رجال الدين • انظر :

Hübschmann, H., Armenishce Grammatik, Leipzig. 1897, P. I.

ويرجح أنه كتب مؤلفه خلال الربـــع الاخير من القـــرن السابـــع الميلادى • انظر :

Sébêos, Histoire d'Héraclius. Trad. F. Macler, Paris, 1904, p. VIII.

ويلاحظ أن سبيوس — شأنه شأن غيره ممـــن كتب فى تلك الفترة السحيقة من الزمن — لم يستخدم وسائل النقد والتحليـــل فى كتاباته • والمعروف أن معظم مؤرخى العصر الوسيط قد اعتادوا على هذا النمط من الكتابة •

(٩) غيرمعروف تاريخ مولده أو وفاته • ويرجح أنـــه عاش فى القرن الثامن الميلادى (القرن الثانى الهجرى) • ونظرا لتفقهه فى علم اللاهوت وثقافته الدينية ، فقد طغى الاسلوب الدينى على مؤلفه• اذ كان ينسب الاحداث التى سجلها فى كتابه الى تدخـل المشيئة الالهية • وقد ادى هذا الى ابتعاده عن المنهج التحليلى السليم • انظر :

Thopdschian, H., Die inneren Zustände von Arménien unter Asot I, Berlin, 1904, p. 4.

(١٠) المسعـودى (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) : ابو الحسن عـلى بن الحسين بن على : كتاب التنبيه والاشراف ، نشر دى غويه ، ليدن (مطبعة بريل) ١٨٩٣ ، ص ٢٤٨ •

(١١) دومة الجندل بضم الدال ، وهى غير دومة بالفتح • هى طرف من افواه الشام ، بينهـا وبين دمشق خمس ليـال ، وبينهـا بين المدينة خمس عشرة ليلة • انظر ابن قيم الجوزيـة (ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) : زاد المعاد فى هدى خير العباد محمد (ﷺ) — خاتم النبيين وامام المرسلين ، ٤ جـ ، نسخة مصورة عن طبعـة المطبعة المصرية بالقاهرة ١٣٧٩ هـ ، مكة (بدون تاريخ) ، ص ١١٢ ، ابن سعـد (ت ٢٣٠ / ٨٤٤ — ٨٤٥ م) : كتـاب الطبقـات الكبرى ، ٨ جـ ، القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، ج ٢ق ١ ، ص ٤٤، المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٨ • وسميت بدوم بن اسماعيل بن ابراهيم لانه كان نزلها • كما سميت دومة الجندل لان حصنها مبنى بالجندل ، وهى حصن وقرى بين الشام والمدينة • انظر : ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) : معجم البلدان، ٥ جـ ، بيروت ١٩٧٧ ، جـ ٢ ، ص ٤٨٧ ، النويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) : نهاية الارب فى فنون الادب ، جـ ١٧ ، ص ١٦٢ •

(١٢) المسعودى : التنبية والاشراف ، ص ٢٤٨ .

(١٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٤ .

(١٤) النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ .

(١٥) ابن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٤ م) : سيرة النبى ، ٤ مجلدات ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ ، مـج ٣ ، ص ١٦٨ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٤ ، الطبرى (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م): تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ ج ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط ٤ ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ج ٢ ، ص ٥٦٤ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٢ ، ص ١١٢ ، ابن كثير (ت٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) : البداية والنهاية ، ١٤ ج ، ط ٣ ، بيروت ١٩٨٠ ، ج ٤ ، ص ٩٢ . أما البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) : أنساب الاشراف ، ج ١ ، تحقيق د . محمد حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٣٤١ ، فيقول أنه سباع بن عرفطة الكنانى . ويقول المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٩ ، ان الرسول (ﷺ) استخلف على المدينة ابن أم مكتوم .

(١٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٤ . انظر ايضا الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ، ص ٥٦٤ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٢ ، ص ١١٢

(١٧) أى : الابل الحمولة : ومثلها الضافطة ، كما فى : الفيروز ابادى، والقاموس المحيط ، مادة (ض ف ط) .

(١٨) البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

(١٩) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٨ .

(٢٠) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٩٢ .

(٢١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٤ . راجع أيضا البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٤١ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٢ ص ١١٢ . ويضيف ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٩٢ ، ان الدليل يقال له مذ كور هاد خريت . والخريت هو الدليل الحاذق ، كما فى الفيوز ابادى ، والقاموس المحيط مادة (خ ر ث)

(٢٢) انظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٤ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٢ ، ص ١١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٤ ، ص ٩٢ . أما ابن هشام فيقول فى سيرته (مج ٣ ، ص ١٦٨) ان الرسول (ﷺ) رجع الى المدينة قبل أن يصل الى دومة الجندل ، الامر الذى لايتفق مع ماورد فى المصادر الاخرى . انظر أيضا ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ — ١٠٧١ م) : الدرر فى اختصار المغازى والسير ، تحقيق د . شوقى ضيف ، ط . ثانية (القاهرة ١٩٨٣)، ص ١٦٨ .

(٢٣) ابن سعد : الطباقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٥ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ .

(٢٤) الواقدى (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ — ٨٢٣) : مغازى رسول الله ، ط . أولى ، القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م ، ص ٦ ، ابن سعد . الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٦٣ — ٦٤ ، المسعودى : التنبيه

والاشراف ، ص ٢٥٣ • راجع أيضا : الطبرى : تاريخــه ، ج ٢ ، ص ٦٤١ — ٦٤٢ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ١٧٨ — ١٧٩ • أما حسمى فهى أرض ببادية الشام،بينها وبين وادى القرى ليلتان•وهى أرض غليظة ، وماؤها لذلك لاخير فيه تنزلها قبيلة جذام • ومـــن جبال حسمى جبل يعـــرف بارم وهو شديد الارتفـــاع • انظر ياقوت • معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ •

(٢٥) البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٧٧ • وجاء فى آخر نص البلاذرى « ويقال أن هـــذه السرية كانت فى سنة سبـــع » • وهذا يرجع ، بلا شك ، الى الاختلاف الواقع اساسا فى تاريـــخ مكاتبة الرسول (ﷺ) الى الملوك • فالبعض يؤرخه بأواخر سنة ٦ هـ ، والبعض سنة ٧ هـ •

(٢٦) الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٦ ، المسعـــودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٥٣ • وجاء فى البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٧٨ ، ان الرسول (ﷺ) عمم عبد الرحمن بن عوف بيده حين بعثه على السرية ، وقال له : « ان اطاعوك ، فتزوج ابنـــة » ملكهم •» فلما اسلم القـــوم تزوج تماضر بنت الاصبع • راجـــع أيضا : ابن سعـــد : الطبقـــات الكبـــرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٦٤ — ٦٥ ، الطبرى :تاريخـــه ، ج ٢ ، ص ٦٤٢ ، ابن كثـــير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ١٧٩ • ويضيف ابن هشـــام : سيرة النبى ، مج ٤ ، ص ٢٣٩ — ٢٤١ ، ان الرسول (ﷺ) أمر بلالا أن يسلمه اللواء ، ثم قال : « خذه يا ابن عوف فاغزوا جميعا فى سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله ••• » ويلاحظ ان ابن هشام لم يذكر هذه السرية من قبل ، واوردهـــا هنا استرسالا عنـــد ذكر السرايا والبعوث مجتمعة ، كما أنه لم يحدد لها تاريخا •

(٢٧) المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٥٦ • وكانت سورة الروم قد نزلت فى هذا من قبل (آيات ١ — ٣) : وتحقق ما نزلت فيه• انظر ايضا : النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٢٠٩ •

(٢٨) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٥٩ و ٢٦١ •

(٢٩) النويرى : نهاية الارب ، ج ١٨ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ • ومصادره فى هذا الدمياطى ، وابن اسحق ، وابن هشام •

(٣٠) البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٥٣١ ••

(٣١) ابن هشام : سيرة النبى ، ج ٤ ، ص ٢١٦ •

(٣٢) يطلق عليه ابن هشام : سيرة النبى ، ج ٤ ، ص ٢١٧ لقب « ملك تخوم الشام » •

(٣٣) ابن هشام : سيرة النبى ، ج ٤ ، ص ٢١٦ — ٢١٧ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ٦٤٤ وما يليها ، ابن عبد البر : الدرر ، ص ٢٤١ — ٢٤٢ . المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٦٠ — ٢٦١ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٨ ، ص ١٥٨ وما يليها ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ وما يليها • وللمزيد من التفاصيل عن مبعوثى الرسول (ﷺ) الى هرقل وغيره من الملـوك ، وكتبه اليهم ، وموقف هرقل من دعوة النبى اليـه للدخول فى الاسلام ، انظر السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : « أول اشتباك حربى بين العرب والروم على مشارف الشام قبيل الشروع فى حركـة الفتوحات الاسلامية » ، بحـث تحت الطبع فى المجلـد الخاص بالندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بالرياض ، السعودية ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م •

(٣٤) الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٣٢٣ — ٣٢٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٤، ص ٢٦٢ — ٢٦٨ ، النويرى : نهاية الارب، ج

١٨ ، ص ١٥٨ وماپليها • ومصدر النويرى فى هذا هو البخارى • وفى آخر نص النويرى (ص ١٦٢) اشارة الى هرقــل وتحقق نبوءته عن النبى • انظر ايضا النويرى : نهايــة الارب ، ج ١٦ ، ص ١٥٠ — ١٥٣ •

(٣٥) الطبرى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ٦٤٩ — ٦٥١ •

(٣٦) أسماها الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٧ « غزوة » ، بينما وردت فى المصادر الاخرى تحت لفظ « سرية » ، وهذا الاصح لانها لم تكن بقيادة الرسول (ﷺ) •

(٣٧) انظر الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٧ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٩٢ ، البلاذرى : انساب الاشراف ، ص ٣٨٠ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٢٩ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٦٥ • ويلاحظ ان الاسم ورد عند الطبرى ، عن الواقــدى ، « عمرو بن كعب الغفــارى » ولكنــه جــاء عــن الواقدى والمصــادر الاخرى التاليــة عليه أنه « كعب بن عمــير الغفارى » •

(٣٨) البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٨٠ ، اليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) : تاريخه ، جزءان ، بيروت (بدون تاريخ) ، ج٢ ص ٧٥•

(٣٩) الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٧ ، ابن سعد : نفس المصدر والصفحة ، الطبرى : نفس المصدر والصفحة ، المسعودى : نفس المصدر والصفحة ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٢٧٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٤١ •

(٤٠) الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٢٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٤١ •

(٤١) الواقدى : نفس المصدر والصفحة ، ابن سعــد : نفس المصدر والصفحة ، البلاذرى : نفس المصدر والصفحة ، المسعــودى :

نفس المصدر والصفحة ، النويرى : نفس المصدر والصفحة •
ويلاحظ أن كلا من اليعقوبى وابن كثير لم يحدد تاريخا لها • انظر تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٧٥ ، البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٤١ • بينما لم يحدد الطبرى فى تاريخه ، ج ٣ ، ص ٢٩ ، الشهر واكتفى بذكر السنة (٨ هـ) •

(٤٢) ابن سعد : نفس المصدر والصفحة ، المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٦٥ • ويتضح من رواية كل من البلاذرى . انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٨٠ ، والطبرى : تاريخه ، ج ٣ ص ٢٩ ، والمسعودى : نفس المصدر والصفحة ، ان الذى نجا من المعركة هو قائد السرية كعب بن عمير ، بينما ذكر اليعقوبى ، تاريخه ، ج ٢ ، ص ٧٥ ، ان الجميع استشهدوا ولم يرجع من السرية احد • وذكر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٤١، انه « ارتث منهم رجل جريح فى القتلى » دون ان يحدد اسمه • وقد جاء فى الفيروز ابادى ، والقاموس المحيط ، مادة (ر ث ث) شرح الكلمة فيما يلى « •••• ارتث — على المجهول — حمل من المعركة رثيثا : أى جريحا وبه رمق » •

(٤٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٩٢ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٢٧٧ •

(٤٤) اشار الى وقعة مؤتة تحت اسم « غزوة » الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٧٠ ، وان كان قد ذكرها فى صفحة ٣٢٢ تحت اسم « سرية » و « قصة مؤتة » • كما ذكرها تحت اسم « سرية » ، المسعودى : التنبية والاشراف ، ص ٢٦٥ • أما ابن هشام : سيرة النبى (ﷺ) ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ و ٣٣١ ، فقد اوردها تحت لفظ « يوم مؤتة » •

(٤٥) كان النبى (ﷺ) بعد اداء عمرة القضاء فى شهر ذى القعدة ٧ هـ (مارس ٦٢٩ م) ، رجع الى المدينة فى ذى الحجة من السنة نفسها (ابريل ٦٢٩ م) ، واقام فيها بقية ذى الحجة سنة ٧ هـ

ثم المحرم وصفر وشهرى ربيع أول وثان سنة ٨ هـ (يوليو — اغسطس ٦٢٩ م) • ثم بعث بسرية زيد بن حارثه فى جمادى الاول سنة ٨ هـ • انظر سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٣١٩ وما بعدها ، الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٣٢٠ •

(٤٦) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٦٥ •

(٤٧) الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٣٢٢ •

(٤٨) سيرة ابن هشام ، ج٣ ، ص ٣٢٢ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٦٥ • ويلاحظ ان الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٣٢٢ ، لم يحدد تاريخا • وابن عبد البر هو الوحيد الذى ذكر انها كانت فى جمادى الآخرة سنة ٨ هـ • انظر الدرر ، ص ٢٠٩ •

(٤٩) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢١٥ •

(٥٠) المسعودى : نفس المصدر والصفحة ، وان كان عدد افراد الجيش البيزنطى مبالغا فيه ، وليس تحت ايدينا تحديد دقيق للقوات البيزنطية •

(٥١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٩٢ — ٩٤ ، ابن خياط (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) خليفة بن خياط العصفرى البصرى: تاريخ خليفة بن خياط ، رواية بقى بن مخلد ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ١٩٦٨ ، ق ١ ، ص ٥٦ ، البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٨٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٤١ وما يليها • وتمتاز المعلومات التى أوردها ابن كثير بأنها وفيرة ، ومسهبة ، وان كانت الصفحات الاخيرة فيها بعض الاستطرادات ولكنها تتصل بالموقعة على كل حال •

(٥٢) الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٣٢٢ ، سيرة ابن هشام ، ج

٣ ، ص ٣٢٦ — ٣٢٩ • ويذكر المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٦٥ • أن عدد الجرحى بلغ نيفا وتسعين •

(٥٣) سيرة ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٣١ — ٣٣٧ ، ابن عبد البر : الدرر ، ص ٢١٠ • للمزيد من التفاصيل عن سرية مؤتة ، انظر النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٢٧٧ — ٢٨٣ • واشار ابن هشام فى سيرته ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، الى سرية قادها زيد بن حارثة الى مدين ، وبعث الرسول (ﷺ) معه ضميرة مولى على بن أبى طالب واخا له • وقد أصاب سبيا من أهل السواحل ، وكانت عامرة بالناس ، وقد بيعوا جميعا • ويلاحظ أن ابن هشام لم يذكر هذه السرية من قبل ، ولكنها وردت هنا استرسالا عند ذكر الغزوات والبعوث • كما أنه لم يحدد لها تاريخا • ولما كان زيد ابن حارثه قد استشهد فى مؤتة فى جمادى الاولى عام ٨ هـ (أغسطس ٦٢٩ م) فربما تكون على هذا الاساس قد حدثت فى تلك السنة أو قبلها • وهذه السرية تحتاج الى مزيد من التحقيق •

(٥٤) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ ، البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٨٠ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٦٥ •

(٥٥) وفقا لرواية كل من الواقدى ، والبلاذرى ، والمسعودى ، والنويرى ، وابن كثير • أما الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٣١ ، فقد ذكر السنة ولم يحدد الشهر • واما ابن هشام : سيرة النبى ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ ، فلم يحدد لها تاريخا •

(٥٦) ذكر البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٨٠ — ٣٨١ ، ان عمرو بن العاص كان قد « قدم من عند النجاشى مسلما ، فلقى فى طريقه عثمان بن طلحة وخالد بن الوليد يريدان النبى (ﷺ) فأسلموا فى صفر سنة ثمان » • وهذا التاريخ يقابل شهر يونيو سنة ٦٢٩ م •

(٥٧) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ •

(٥٨) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٦٥ •

(٥٩) البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ص ٣٨١ • وفى سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ ، انه عندما كان عمرو على مـاء بأرض جذام يقال له السلسل ، اشتقت المعركة تسميتها منه فعرفت بذات السلاسل •

(٦٠) البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٨٠ • وللمزيـد مـن المعلومات عن تلك السرية ، انظر : سيرة ابن هشام ، نفس الجزء والصفحة ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٩٤ — ٩٥ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٦٦ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٢٨٣ — ٢٨٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ وما يليها •

(٦١) الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٣٤٠ ، وان كان قد اشار فى صفحة ٣٤١ أنه يعنى بلاد الروم عندما قال لرجاله مشجعا اياهم: « فسارعوا معى الى الشام لعلكم ان تصيبوا شباب الاصفر » •

(٦٢) ابن هشام : سيرة النبى ، ج ٤ ، ص ١٢٨ و١٢٩ • انظر ايضا ابن عبد البر : الدرر ، ص ٢٣٨ •

(٦٣) البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٦٨ • والمقصود بذلك شباب الروم •

(٦٤) تبوك موضع بين وادى القرى والشام ، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب الى النبى (ﷺ) • وموقع تبوك بين جبل حسمى وجبل شرورى ، وحسمى غربيهـا ، وشرورى شرقيها ، انظـر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٤ •

(٦٥) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٢٨ .

(٦٦) نفس المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢٩ .

(٦٧) الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٣٤٠ . وذكر البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ، ان الرسول (ﷺ) جهز عددا كبيرا بلغ ثلث القوات وربما أكثر وانفق عليهم بسخاء . أما ابو بكر فقد اعطاهم جميع مابقى من ماله .

(٦٨) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٧١ . وجاء فى الفيروز ابادى ، وقاموس المحيط ، مادة (حمل) : « والحملان — بالضم — مايحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة » .

(٦٩) سيرة ابن هشام، ج ٤ ، ص ١٢٩ — ١٣١ . راجع أيضا النويرى: نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٣٦١ — ٣٦٨ .

(٧٠) والروايات متفقة فى ذلك . ولكن يلاحظ ان المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٧٠ ، لم يعنون الحوادث قبل غزوة تبوك واحداثها بعنوانه التقليدى (ذكر سنة كذا ...) ، واكتفى بقوله « ... ثم غزوة رسول الله (ﷺ) فى رجب » ، والغزوة تقع فى سنة٩ هـ على كل حال ، ويدل عليها عند المسعودى التواريخ قبلها.

(٧١) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٧٠ — ٢٧١ ، البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .

(٧٢) ايلة مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام حتى آخر الحجاز وأول الشام . وهى مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير . وقد سميت بأيلة بنت مدين بن ابراهيم . وقيل هى مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطىء بحر القلزم تعد فى بلاد الشام . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

(٧٣) اذرح اسم بلد فى اطراف الشام من اعمال الشراة ، ثم من نواحى البلقاء • وجاء فى معجم البلدان ان أهلها ، بعد فتح الرسول (ﷺ) لها سنة ٩ هـ ، صولحوا على مائة دينار جزيــة • انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٢٩ — ١٣٠ •

(٧٤) سيرة ابن هشــام ، ج ٤ ، ص ١٣٨ ، المسعــودى : التنبيــه والاشراف ، ص ٢٧٢ • انظر نص كتــاب الرسول (ﷺ) الــى صاحب ايلة فى سيرة ابن هشام •

(٧٥) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٤٠ • وقد ذكر ان الرسول أقام بتبوك « بضع عشرة ليلة لم يجاوزها » ، بينما ذكر الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٣٤١ ، أنه أقام بهــا شهرين • وحــــدد المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٧١ ، أنه أقــام بهــا بضع عشرة ليلة وقيل عشرين • للمزيد من المعلومات انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ١١٨ وما يليهــا ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ وما يليها ، ابن خياط : تاريخه ، ق ١ ، ص ٦٤ •

(٧٦) جاء فى البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ، انه عندما سار الرسول (ﷺ) الى الاعداء « هابوا محاربته ، فلم يلق كيدا » ، وان رسل هرقل اتته وهو بتبوك « فكساهم وردهم » • راجــع أيضا ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٥ ، ص ١٥ وما بعدها •

(٧٧) البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٨٢ • وذكر المسعودى: التنبيه والاشراف ، ص ٢٧٢ ، ان الشخص الذى اسره خالد بن الوليد هو اكيدر نفسه ، والصحيح اخاه • للمزيد من المعلومات عن هذه السرية أنظر الطبرى : تاريخــه ، ج ٣ ، ص ١٠٨ — ١٠٩ ، ابن كثير • البداية والنهايــة ، ج ٥ ، ص ١٧ — ١٨ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٣٥٦ — ٣٥٨ •

(٧٨) اكتفى المسعودى بذكر السنة دون الشهر ، وهى — على كل حال — أما فى شهر ربيع الاول (يونيو ٦٣١ م) أو قبله ، لان السرية التالية — وكانت لخالد بن الوليد — تؤرخ بشهر ربيع الاول سنة ١٠ هـ . انظر التنبيه والاشراف ، ص ٢٧٣ .

(٧٩) جاء فى ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٤ ق ١ ، ص ٤٦ ، فى ترجمة اسامة بن زيد قوله : « أقر رسول الله (ﷺ) اسامه بن زيد وأمره ان يغير على أبنى من ساحل البحر » . وربما تكون نفس السرية المذكورة فى التنبيه والاشراف .

(٨٠) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢١٦ .

(٨١) البلقاء كورة من اعمال دمشق بين الشام ووادى القرى ، قصبتها عمان ، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة . وسميت البلقاء لان بالق من بنى عمان بن لوط عمرها . ورأى آخر أنها سميت ببلقاء بن سويده من بنى عسل بن لوط . أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

(٨٢) اذرعات بلد فى اطراف الشام يجاوز أرض البلقاء وعمان ، وقيل هى مدينة بالبلقاء خرج منها طائفة من أهل العلم المعروفين . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٣٠ — ١٣١ .

(٨٣) الداروم قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر ، وقد خربها صلاح الدين لما ملك الساحل فى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) . ويقال لها الدارون أيضا . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٢٤ .

(٨٤) يرى د . أحمد الشامى ان الغرض من الحملة — فضلا عما تقدم — هو تخويف الروم ومنعهم من التفكير فى مهاجمة المسلمين ، والثأر لما حل بالمسلمين فى موقعة مؤته ، وردا على المواقف العدائية التى وقفها أمراء العرب المتنصرة من المسلمين . هذا ، بالاضافة الى اتاحة الفرصة لنشر الاسلام بين المدن العربية فى شبة الجزيرة

ثم فى خارجها • انظر : الخلفاء الراشدون ، ط • أولى ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٣٩ • ونتفق مع د • احمد الشامى فيما أورده من عوامل ، فيما عدا العامل الاول الخاص بمنع الروم من التفكير فى مهاجمة المسلمين • فقد كانت دولة الروم وقتها فى حالة لا تسمح لها بالمرة فى التفكير فى مهاجمة المسلمين •

(٨٥) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٤٩ ، البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٢٧٧ — ٢٧٨ •

(٨٦) استهل المؤرخ الارمينى جيفوند الفصل الاول من كتابة وعنوانه « حروب العرب الاولى وأوائل فتوحاتهم لاراضى الامبراطورية البيزنطية » بذكر وفاة الرسول (ﷺ) • لكنه لم يشر الى ظهور الاسلام ، وانتشاره ، والانتصارات العسكرية التى حققها المسلمون فى العهد النبوى • ووردت اشارات سريعة مركزه للغاية عن الفتوحات العربية فى الشام فى عهد كل من ابى بكر الصديق وعمر بن الخطاب • وهى لاتضيف جديدا • انظر :

Ghévond, Histoire des Guerres et des Conquêtes des Arabes en Arménie. Trad. G.R. Chahnazarian, Paris, 1856, pp. 1 — 2.

(٨٧) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ • ويلاحظ أن ابن هشام لم يحدد تاريخ هذه الحادثة ، ولكن سياق الاحداث يدل على أنها وقعت فى سنة ١٠ هـ (٦٣١ م) •

(٨٨) Sullivan, Heirs of the Roman Empire, p. 25.

(٨٩) انظر جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ — ١٤٥٣) ، ط • أولى ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ١١٠ — ١١١ •

(٩٠) انظر ما سبق ، صفحة ٥ — ٦ من هذا البحث •

(٩١) ابن خياط : تاريخه ، ص ٧٩ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ — ٢٢٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٦ ، ص ٣٠٤ — ٣٠٥ ، ابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٢٤ م) : الكامل فى التاريخ ، جـ ٢ ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٩٢) الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٢٤٣ و ٢٤٩ و ٢٥٤ وما يليها ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ٤٦ — ٤٩ .

(٩٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، نشر وتعليق رضوان محمد رضوان ، ط . أولى ، القاهرة ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م ، ص ١١٥ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٢٤٣ ، و ٢٤٩ و ٢٥٤ وما يليها ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ وما يليها .

(٩٤) الواقدى : فتوح الشام ، جزءان فى مجلد ، القاهرة ١٣٤٨ هـ ، ج ١ ، ص ٢ — ٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٥ .

(٩٥) ابن خياط : تاريخه ، ص ١٠٤ ، المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٨٦ .

(٩٦) الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٣٨٧ و ٤١١ و ٤٢٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ . وذكر البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٦ ، أن عقد هذه الالوية كان يوم الخميس أول صفر ١٣ هـ (٥ مايو ٦٣٤ م) . راجع أيضا ابن بطريق (ت ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ — ٩٤٠ م) : كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٩ ، ص ٩ .

(٩٧) ابن بطريق : كتاب التاريخ المجموع ، ص ٩ .

(٩٨) فيما يتعلق بنشاط خالد بن الوليد فى مشارف الشام بعد تركه العراق ، انظر : البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٧ و ١١٨

و١١٩ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١١٦ و ١١٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٦ ، ص ٣٥٠ — ٣٥٢ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

(٩٩) الواقدى : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٩ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٠ ، ابن خياط : تاريخه ، ص ١٠٣ .

(١٠٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٠ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٢٠ و ١٦٩ — ١٧٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٥٤ — ٥٥ . وفيما يتعلق بالاختلاف حول تاريخ يوم اجنادين ، انظر البلاذرى : نفس المصدر ، ص ١٢١ . وذكر ابن خياط ان الوقعة كانت يوم الجمعة ٢٧ جمادى الاولى ١٣ هـ (٢٩ يوليو ٦٣٤ م) انظر تاريخ ابن خياط ، ص ١٠٣ . ويلاحظ ان ابن الاثير اورد وقعة اجنادين بعد وقعة اليرموك ، انظر الكامل، ج ٢ ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

(١٠١) الواقدى : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٥٨ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٣ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٤٣٤ وما يليها و ٦٢٣ وج ٤ ، ص ٣٩ و ٦٦ وما يليها ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٦ .

(١٠٢) احمد الشامى (دكتور) : الخلفاء الراشدون ، ط . أولى . القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٢٠٦ — ٢٠٨ .

(١٠٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٢ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٢٥ — ٢٦ . وذكر ابن خياط فى تاريخه ، ص ١١٢ — ١١٣ ، ان الوقعة كانت يوم السبت ٢١ ذى الحجة ١٤ هـ (٥ فبراير ٦٣٦ م) مما لا يتفق وتسلسل الاحداث . والتناقض واضح فى

روايته ، اذ ذكر فى نهايتها ان حصارهـا دام أربعة اشهر هـى رجب وشعبان ورمضان وشوال وان الصلح تم فى ذى القعـدة دون ان يحدد السنة •

(١٠٤) البلاذرى : فتوح البلـدان ، ص ١٢٥ — ١٢٦ • وذكر ابن خياط : تاريخه ، ص ١٠٤ ، ان الوقعة كانت يـوم الخميس ١٩ جمادى الاولى ١٣ هـ (٢٠ يوليو ٦٣٤ م) ، مما لا يتفق مـع تسلسل الاحداث •

(١٠٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٧ — ١٣١ ، الطبرى : تاريخه، ج ٣ ، ص ٥٤٢ — ٥٤٣ ، ابن بطريق : كتاب التاريخ المجموع ، ص ١٤ — ١٦ ، ابن كثير ، البداية والنهايـة ، ج ٧ ، ص ١٩ — ٢٥ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٥٥ — ١٥٦ • ويلاحظ ان النويرى لم يحدد هنا تاريخ فتحها ، ومصدره هو « الكامـل فى التاريخ » لابن الاثير • وفى صفحة ١٦٠ ذكر انها فتحت فى رجب سنة ١٤ دون أن يحدد اليوم • وكان ابن خياط : تاريخه ، ص ١١٢ ، اكثر تحديدا عندما ذكر ان الصلح تم يوم الاحد ١٥ رجب ١٤ هـ (٤ سبتمبر ٦٣٥ م) •

(١٠٦) الواقـدى : فتوح الشـام ، ج ١ ، صـ ٢٠ و ٤٨ — ٥٠ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٢ — ١٣٣ •

(١٠٧) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٣ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣، ص ٦٠٥ وما يليها ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٦١ • ويلاحظ انه لم يذكر تاريخ فتح كل منهما ، ومصدره هو الكامل لابن الاثير •

(١٠٨) الواقدى فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٦٨ — ٦٩ و ٩١ ومـا يليها ، ابن خياط :تاريخه ، ص ١١٧ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٦

— ١٣٧ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٥٩٩ — ٦٠١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٥٢ .

(١٠٩) الواقدى : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٧٠ — ٧٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٥٠ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٦٠١ — ٦٠٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٥٢ — ٥٣ ، ويلاحظ أن النويرى لم يحدد تاريخا لفتحها ، ومصدره الكامل لابن الاثير .

(١١٠) الواقدى : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٧٣ وما يليها ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٤ و ١٣٦ و ١٣٧ و ١٣٨ و١٣٩ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٦٢ وما يليها . وقد ذكر أنها فتحت سنة ١٥ ه ، ومصدره هو الكامل لابن الاثير .

(١١١) الواقدى : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٠٢ وما يليها ، ابن خياط : تاريخه ص ١١٨ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤٠ — ١٤٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٤ — ١٦ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٨١ — ٢٨٤ . هذا ، والاختلاف كبير بين المؤرخين القدامى حول تاريخ هذه الموقعة . فمن قائل انها حدثت سنة ١٣ ه (٦٣٤ — ٦٣٥ م) ، ومن يرى انها كانت سنة ١٥ ه (٦٣٦ م) . انظر الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٥٧١ — ٥٧٢ ، ابن كثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٦ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٢١ — ١٢٥ و١٦٠ .

(١١٢) Sébêos, op. cit., p. 971; cf. Ghévond, op. cit., p. 3.

(١١٣) الواقدى : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١١٦ وما يليها ، ابن خياط : تاريخه ، ص ١٢٤ ، ويحدد ابن خياط التاريخ بسنة ١٦ ه (٦٣٧م) ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٥٢ — ١٥٣ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٦٥ — ١٦٧ . ويلاحظ أنه لم يذكر تاريخ

فتحها ، وسياق الحديث عنده يدل على أن ذلك كان فى سنة ١٥ هـ (٦٣٦ — ٦٣٧ م) ، ومصدره هو الكامل لابن الاثير •

(١١٤) الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٥٣ وما يليها •

(١١٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤٤ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ص ١٦٩ — ١٧٠ • ويلاحظ أنه لم يحدد تواريخ الفتح ، ومصدره هو الكامل لابن الاثير •

(١١٦) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤٥ — ١٤٧ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٦٠٣ — ٦٠٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٥٣ — ٥٤ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٦٨ • وقد ثار الخلاف حول تاريخ فتح قيسارية • انظر البلاذرى : نفس المصدر ، ص ١٤٨ ، ابن خياط : تاريخه ، ص ١٣٤ •

(١١٧) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤٤ — ١٤٥ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٦٠٧ — ٦١٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٥٥ — ٦٠ • انظر نص كتاب عمر بن الخطاب الى أهل بيت المقدس فى ابن بطريق : كتاب التاريخ المجموع ، ص ١٧ • وفيما يتعلق بالاختلاف حول تاريخ فتح بيت المقدس انظر النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٧١ — ١٧٣ ، ومصدره هو الكامل لابن الاثير ، الواقدى : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٥٤ وما يليها • انظر ايضا : Theophanes, Chronographia, I, p. 699.

(١١٨) Ghévond, op. cit., p. 4.

(١١٩) Sullivan, op. cit., p. 30.

(١٢٠) انظر الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٦٧ وما يليها ، و٢٤٠ وما يليها و٤٢٧ وما يليها و٤٤٣ وما يليها وج ٥ ص ٥ وما يليها و٩٤

وما يليها و١٣٣ وما يليها و١٥٨ وما يليها ، ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧ ، ص ١١٦ وما يليها و٢٢٣ وما يليها .

(١٢١) انظر عن ذلك :

Arnold, T. and Guillaume, A. (eds.), The Legacy of Islam, London, 1952, pp. 40 - 41; Atiya, A.S., Crusade, Commerce and Culture, Bloomington, 1962, pp. 19, 24 ff., 156 ff.; Grousset, R., The Sum of History, English Version by A. and H. Temple Patterson, Oxford, 1951, pp. 7 - 12.

راجع أيضا توينبى (أ .) : مختصر دراسة للتاريخ ، ٢ ج ، ترجمة فؤاد محمد شبل ، القاهرة ١٩٦٠ — ١٩٦١ ، ج ٢ (القاهرة ١٩٦١) ، ص ٧٠ — ٧١ ، والحضارة فى الميزان ، ترجمة أمين محمود الشريف ، القاهرة (بدون تاريخ) ص ١٩٢ — ١٩٥ . كذلك استعرض رينيه جروسيه فى كتابه « امبراطورية شرقى البحر المتوسط : تاريخ المسألة الشرقية » ، الصراع الطويل بين الشرق والغرب ، مبينا أن الحركة الصليبية لم تكن الا دورا من ادواره . وسرد وقائع هذا الصراع منذ حروب الاسكندر المقدونى فى القرن الرابع قبل الميلاد حتى واقعة ليبانتو فى أواخر القرن السادس عشر . ويخلص مما تقدم ان المسألة الشرقية ليست وليدة القرن السابع عشر ، انما هى ابعد من ذلك بكثير . انظر

Grousset, R., L'Empire du Levant : Histoire de la Question d'Orient, Paris, 1949, pp. 21 ff., 46 ff., 67 ff., 186 ff

(١٢٢) انظر مرثاة البابا الرومانى جريجورى الاول التى تحدث فيها عما اصاب روما من خراب ودمار فى أواخر القرن السادس الميلادى ، فى :

Sullivan, Heris of the Roman Empire, pp. 1, 4 - 5, 10.

راجع ايضا :

Paintci, S., A History of the Middle Ages : 284 - 1100, London, 1966, pp. 10 ff; Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médiéval, Paris, 1965, 27 ff; Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe, New York, 1900, pp. 69, 71, 83.

(١٢٣) Sullivan, op. cit., p. 17; Bury, J.B., History of the Later Roman Empire, Vol. II, New York, 1958, p. 358.

ويقول ساليفان (ص ١٨ — ١٩) أنه نتيجة للمساوىء التى ترتبت على اعتماد الدولة على الجند المرتزقة الذين اثقلوا كاهلها بعبء مضاعف فى سبيل الحصول على القوات القاذرة وجمع الدخل الكافى للانفاق عليها ، سعت الى صبغ المجتمع البيزنطى بصبغة عسكرية • فبعد حروبها المستمرة خلال القرن السابع الميلادى التى ترتب عليها فقدانها مقاطعاتها الغنية والدخل الوفير ، حل محل الجند المرتزقة فى مناطق الحدود نظام الثيمات أى الوية الحدود أو الوية الثغور ، الذى امتاز فى كفاءته عن النظام القديم ، كما ادى الى توجيه كافة موارد الدولة لمواجهة المتطلبات العسكرية• للمزيد من المعلومات ، انظر هارتمان (ل•م•) وبارا كلاف (ج•) : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ، ترجمة وتعليق د • جوزيف نسيم يوسف ، ط • رابعة ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ٩٩ وح ٣ و ١٠٠ و ١٤٥ • وايضا :

Hussey, J. M., The Byzantine World, London, 1957, p. 25.

(١٢٤) Sullivan, op. cit., p. 13.

(١٢٥) Ghévond, op. cit., p. 3.

(١٢٦) Sullivan, op. cit., p. 22.

(١٢٧) Sullivan, op. cit., pp. 12 - 13; cf. also : Bury, op. cit., II, p. 359

(١٢٨) Runciman, Byzantine Civilization, p. 40.

(١٢٩) Sullivan, op. cit., p. 13.

وذكر ساليفان (ص ١٤) ان العرب استولوا على هذا الاقليم الحيوى من الامبراطورية بسرعة مثيرة للدهشة ، وانهم اقاموا بفتوحاتهم المظفرة بداية لدولة جديدة بعد سقوط الشام وفلسطين فى قبضتهم بالرغم من جهود هرقل العسكرية المستميتة واليائسة التى بذلها لحفظ هذا الاقليم . كذلك يرى أن الهزيمة التى لحقت بالدولة البيزنطية تعزى — الى حد ما — الى سياسة الامبراطور الدينية الفاشلة ، وان مسيحيى الشام فضلوا حكم العرب عن سياسة القهر التى فرضتها عليهم القسطنطينية .

(١٣٠) Ghévond, op. cit., p. 2.

(١٣١) ساليفان (ر . أ .) : ورثة الامبراطورية الرومانية : الغرب الجرمانى — العالم الاسلامى — الدولة البيزنطية ، ترجمة وتقديم د . جوزيف نسيم يوسف ، الاسكندرية ١٩٨٥ ، ص ٩ . راجع أيضا : أومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٢٧ . وغير صحيح ما ذكره موس من ان حركة الفتوحات التى اعقبت وفاة الرسول (ﷺ) عام ٦٣٢ م ، قد غذتها الظروف الاقتصادية السيئة فى شبه الجزيرة العربية ، والتى ترتب عليها قيام جماعات صغيرة من المغيرين من راكبى الخيل بالاغارة فى كل اتجاه بحثا عن الطعام ورغبة فى الغزو والتخريب انظر :
Banyes and Moss, Byzantium, p. 11.

(١٣٢) Sébêos, op. cit., pp. 95 - 96.
كما أورد فى كتابه الآية القرآنية « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » انظر نفس المصدر ، ص ٩٦ .

(١٣٣) Chévond, op. cit., p. 2.

(١٣٤) Sullivan, op. cit., pp. 9, 21, 29 - 30.

(١٣٥) Sullivan, op. cit., p. 32.

(١٣٦) Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe, London. 1951, pp. 2-3; Idem, Medieval Cities, English Trans. by F.D. Halsey, Princeton, 1948, pp. 15-16.

(١٣٧) Bloy, L., Constantinople et Byzance, Paris, 1917, pp. II ff; Bailly, A., Byzance, Paris, 1939, p. 240 ff; Diehl, Ch., Histoire de l'Empire Byzantin, Paris, 1920, pp. 97, 99 f.

(١٣٨) للمزيد من المعلومات عن توازن القوى فى الصراع بين المسلمين والصليبيين فى عصر الحروب الصليبية ، أنظــر : جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبى ، ط • ثانية ، بيروت ١٩٨١ ، وبخاصة صفحات ٢١ وما يليها و٢٧ وما يليها و٣٧ ومايليها و٤٥ وما يليها • ويعبر احسن تعبير عن هذه الفكرة كل من رينيه جروسيه وستيفن رانسيمان فى كتابيهما الكبيرين عن الحركة الصليبية • انظر :

Grousset, R., Histoire des Croisades, 3 Vols., Paris, 1948; Runciman. S., A History of the Crusades, 3 Vols, Cambridge, 1954 - 1955.

ويمثل كل جزء من هذه الاجزاء الثلاثة ، فى كلا الكتابين ، مرحلة من مراحل الصراع بين القوتين الاسلامية والصليبية •

(١٣٩) يعتبر كتاب الدكتور عزيز سوريال عطية عن هذه الحروب أفضل ما ظهر حتى الآن • انظر

. . A, The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.

(١٤٠) انظر عن ذلك : جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ٤٠ — ٤٣ .

(١٤١) لا يفوتنى ان أقدم للزميل الدكتور درويش محفوظ النخيلى مدرس التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، والمعار حاليا لكلية الآداب بجامعة اليرموك بالاردن ، خالص شكرى وامتنانى على المعلومات القيمة التى زودنى بها ، والتى كانت خير عون لى فى اعداد هذا البحث .

المصـــادر والمراجــع

أولا — المصـــادر العربيـــة

ابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٢٤ م) :

الكامل فى التاريخ ، ج ٢ ، بيروت ١٩٦٧ .

ابن بطريق (ت ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ — ٩٤٠ م) :

كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٩ .

ابن خياط (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) :

تاريخ خليفة بن خياط ، رواية بقى بن مخلد ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ١٩٦٨ .

ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ — ٨٤٥ م) :

كتاب الطبقات الكبرى ، ٨ ج ،القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م.

ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ — ١٠٧١ م) :

الدرر فى اختيار المغازى والسير ، تحقيـــق د . شوقى ضيف ، ط . ثانية ، القاهرة ١٩٨٣ .

ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ / ١٢٥٠ م) :

زاد المعاد فى هدى خير العباد محمد — (ﷺ) — خـــاتم النبيين وامام المرسلين ، ٤ ج ، القاهرة ١٣٧٩ .

ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) :

البداية والنهاية ، ١٤ ج ، ط . ثالثة : بيروت ١٩٨٠ .

ابن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٤ م) :

سيرة النبى (ﷺ) ، راجع اصولها وضبط غريبها وعلق حواشيها ووضع فهارسها محمد محيى الدين عبد الحميد ، ٤ مج ، القاهرة ١٩٨٣ .

البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) :

(١) فتوح البلدان ، نشر وتعليق رضوان محمد رضوان ، ط . أولى ، القاهرة ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م .

(٢) انساب الاشراف ، جـ ١ ، تحقيق د . محمد حميد الله فى مجموعة « ذخائر العرب » رقم ٢٧ ، القاهرة ١٩٥٩ .

الطبرى (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) :

تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ ج ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط . رابعة ، القاهرة [بدون تاريخ] .

المسعودى (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) :

كتاب التنبيه والاشراف ، نشر دى غويه M.J. de Goeje ليدن ١٨٩٣ .

النويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٠ م) :

نهاية الارب فى فنون الأدب ، السفر ١٧ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، نشر المؤسسة العربية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة [بدون تاريخ] .

الواقدى (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ — ٨٢٣ م) :

(١) فتوح الشام ، جزءان فى مجلد ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .

(٢) مغازى رسول الله ، نشر جماعة نشر الكتب القديمة ، ط • أولى ، القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م •

ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) :

معجم البلدان ، ٥ ج ، بيروت ١٩٧٧ •

اليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) :

تاريخ اليعقوبى ، ٢ ج ، بيروت [بدون تاريخ] •

ثانيا — المراجع العربية

أحمد الشامى (دكتور) :

(١) فى تاريخ العرب والاسلام : حضارة العرب قبل الاسلام — حياة محمد وظهور الاسلام ، ط • ثانية ، القاهرة ١٩٨٢ •

(٢) الخلفاء الراشدون ، ط • أولى ، القاهرة ١٩٨٢ •

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

(١) الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبى ، ط • ثانية ، بيروت ١٩٨١ •

(٢) تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ — ١٤٥٣) ، ط • أولى ، الاسكندرية ١٩٨٤ •

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

(١) دراسات فى تاريخ العرب — الجزء الثانى : تاريخ الدولة العربية، الاسكندرية ١٩٨٤ •

(٢) أول اشتباك حربى بين العرب والروم على مشارف الشام

قبيل الشروع فى حركة الفتوحات الاسلامية » ، بحث تحت الطبع فى المجلد الخاص بالندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بالرياض بالسعودية سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م •

ثالثا — المراجع المعربة

أومـان (ش •) :
الامبراطورية البيزنطية ، تعريب د •مصطفى طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣ •

بتلر (الفرد ج •) :
فتح العرب لمصر ، عربه محمد فريد ابو حديد ، القاهرة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م •

توينبى (أ •) :
(١) مختصر دراسة التاريخ ، ٢ ج ، ترجمة فؤاد محمد شبل ، القاهرة ١٩٦٠ — ١٩٦١ •
(٢) الحضارة فى الميزان ، ترجمة أمين محمود الشريف ، القاهرة [بدون تاريخ] •

ساليفان (ر • أ •) :
ورثة الامبراطورية الرومانية : الغرب الجرمانى — العالم الاسلامى — الدولة البيزنطية ، ترجمة وتقديم د•جوزيف نسيم يوسف ، ط • أولى ، الاسكندرية ١٩٨٥ •

هارتمـان (ل • م •) و بارا كلاف (ج •) :
الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ، ترجمة وتقديم وتعليق د • جوزيف نسيم يوسف ، ط • رابعة ، الاسكندرية ١٩٨٤ •

رابعا — المصادر الاجنبية

Georgius Monachus (Hamartolus), cf. Patrologia Graeca, ed. Migne, t. CX, Paris, 1863.

Ghévond, Histoire des Guerres et des Conquêtes des Arabes en Arménie. Trad. G.R. Chahnazarian, Paris, 1856

Nicephorus, S., Breviarium Historicum de Rebus Gestis post Imperium Mauricii, cf. Patrologia Graeca, ed. Migne, t. C, Paris, N. D.

Sébêos, L'Evêque, Histoire dê Héraclius. Trad F. Macler, Paris, 1904.

Theophanis, S.P.N., Chronographia, cf. Patrologia Graeca, Migne, t. CVIII, Paris, 1863.

خامسا — المراجع الاجنبية

Arnold, T. & Guillaume, A. (eds.), The Legacy of Islam, London, 1952.
Atiya, A.S.

1 The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.

2 Crusade, Commerce and Culture, Bloomington, 1962.

Bailly, A., Byzance, Paris, 1939.

Baynes, N.H., The Byzantine Empire, London, 1939.

Baynes, N.H. & Moss, H. St. B. (eds.), Byzantium : An Introduction to East Roman Civilization, Oxford, 1953.

Bloy, L., Constantinople et Byzance, Paris, 1917.

Bury, J.B., History of the Later Roman Empire, from the death of Theodosius I to the death of Justinian, 2 vols., New York, 1958.

Diehl, Ch., Histoire de l'Empire Byzantin, Paris, 1920.

Grousset, R.,

1 Histoire des Croisades, 3 vols., Paris., 1948.

2 L'Empire du Levant : Histoire de la Question d'Orient, Paris, 1949.

3 The Sum of History. English version by A. & H. Temple Patterson, Oxford, 1951.

Hübschmann, H., Armenische Grammatik, Ersten-Teil : Armenische Etyologie, Leipeig, 1897.

Hussey, J.M., The Byzantine World, London, 1957.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe, New York, 1900.

Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médiéval, Paris, 1965.

Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Trans. by J. Hussey, Oxford, 1956.

Painter, S., A History of the Middle Ages : 284 - 1100, London, 1966.

Pirenne, H.,

1 Medieval Cities. English trans. by F.D. Halsey, Princeton, 1948.
2 Economic and Social History of Medieval Europe, London, 1961.

Runciman, S.,

2 Byzantine Civilisation, London, 1948.

2 A History of the Crusades, 3 vols., Cambridge, 1954-1955.

Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire, New York, 1960.

Thepdschian, H., Die inneren Zuslände von Arménien unter Asot I, Berlin, 1904.

الموضوع الثانى

دراسة فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية
فى ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين فى العصور الوسطى

العلاقات السياسية بين العـالم العربى الاسلامى والعالـم الاوروبى المسيحى فى العصور الوسطى ، وانعكاسها على الجانب الحضارى :

أ ــ تفهم طبيعة العلاقات بين العالمين فى ضوء الصراع الطويل الممتد بين الشرق والغرب •

ب ــ الصراع بين المسلمين والمسيحيين حلقة من حلقات الصراع المتصل بين شقى العالم •

جـ ــ تفهم الصراع السياسى والحضارى بين العـالمين فى ضوء توازن القوى بينهما •

الحضارة العربية الاسلامية ، ومراكز اشعاعها فى العصور الوسطى :

أ ــ نظرية هنرى بيرين ورد ارشيبالد لويس عليها •

ب ــ تفهم حركة الفتح فى ضوء فكرة الجهاد فى الاسلام •

جـ ــ التفكير العلمى فى اوروبـا فى الفترة المبكـرة من العصور الوسطى •

د ــ الحضارة العربية الاسلامية : دعائمها ، نشأتها وازدهارها •

هـ ــ مراكز اشعاع الحضارة العربية الاسلامية ، ومعابرها الى العالم الاوروبى المسيحى •

بعض الميادين التى أثرت فيها الحضارة العربية الاسلامية عـلى المدنية الاوروبية فى العصور الوسطى :

أ ــ الادب .

ب ــ الجغرافية والرحلات .

جـ ــ نظم التعليم والجامعات .

المراجـــــع

العلاقات السياسية بين العالم العربى الاسلامى والعالم الاوروبى المسيحى فى العصور الوسطى ، وانعكاسها على الجانب الحضارى

أ ـ تفهم طبيعة العلاقات بين العالمين فى ضوء الصراع الطويل الممتد بين الشرق والغرب :

للتعرف على أصول الحضارة العربية الاسلامية وجذورها العميقة التى تمتد الى مئات خلت من السنين ، يحسن استعراض طبيعة وماهية العلاقات التى قامت بين شقى العالم منذ القدم وحتى اليوم • فتاريخ هذه العلاقات هو تاريخ الانسانية عبر العصور ، حيث احتكت العقول والافكار ، وتضاربت المشارب والاهواء ، ونبدت المطامع عارية ، وقامت الحروب الدامية ، واختفت دول وممالك وامبراطوريـات وظهرت أخرى على انقاضها ، واندثرت أنظمة وحضارات لتحل محلها مدنيات وثقافات جديدة مغايرة • وفى زحمة هذه الاحداث والتغيـيرات والانتفاضات والانقلابات قام الصراع بين شقى العالم فى شتى عصور التاريـخ • وهو ، دائما ، صراع بين قوتين كبيرتين وحضارتين متباينتين ، كل منهما تحاول أن تفرض نفسها على الاخرى •

وقد بدأ هذا الصراع منذ اقدم العصـور بحروب طروادة التى خلدها الشاعـر هوميروس فى القرن التاسـع قبل الميـلاد فى اشعاره المعروفة باسم « الالياذة والأوديسية » • ثم قامت الحروب الميديـة بين الفرس والاغريق منذ القرن الخامس قبل الميـلاد ، التى انتهت بسيادة الاسكندر المقدونى على أكثر بقاع العالم وقتذاك ، وما استتبع ذلك من فرض الحضارة الهلينية عليها بعد قضائه على دولة الفرس التى أصبحت عاصمتهم المدائن احدى الولايات الداخلة فى نطاق الامبراطورية الجديدة • واعقب ذلك ظهور الرومان على مسرح الاحداث ، وتوسعهم فى الشرق ، وانتزاعهم السلطة من الاغريق بعد معـارك عنيفة حملت

روما بعدها لواء الكفاح فى الغرب ، وورثت الاغريق سلطانهم ونظمهم وحضارتهم .

هكذا بدأ الصراع بين شقى العالم فى العصور القديمة ، قبل ظهور المسيحية والاسلام بقرون عدة . ولذلك لم يقدر له أن يصطبغ بالصبغة الدينية ، بل كان صراعا سياسيا وحضاريا بين قوتين كبيرتين ، يرمى الى سيطرة احداهما على الاخرى ، ومحاولة ضمها بالقوة المسلحة الى منطقة نفوذها .

ولكن الاوضاع سرعان ما تبدلت منذ أوائل القرن الرابع الميلادى ، وعلى وجه التحديد فى سنة ٣١٣ م عندما أصدر الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥ — ٣٣٧ م) مرسوم ميلان التى أصبحت المسيحية بمقتضاه الدين الرسمى للدولة الرومانية ، وبخاصة فى القسم الشرقى منها الذى عرف باسم الدولة الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية أو دولة الروم كما كان يسميها العرب .

واخذ الصراع منذ ذلك الحين يصطبغ بالصبغة الدينية فى وقت كان فيه التاريخ القديم قد طوى صفحته ، وبدأ عصر جديد فى تاريخ البشرية هو العصر الوسيط . فقامت الحروب بين بلاد فارس والدولة الرومانية الشرقية ، فى وقت شهدت فيه الاولى نهضة دينية كبيرة ارتطبت بالديانة الزرادشتية ، بينما كانت الثانية تدين بالمسيحية . وكان من أثر ذلك استيلاء خسرو ملك الفرس سنة ٦١٤ م على بيت المقدس والصليب الذى يعتقد المسيحيون ان المسيح صلب عليه . وكان رد الفعل هو تلك الحروب المضادة التى قام بها الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) التى انتهت سنة ٦٢٨ م باسترداده بيت المقدس وصليب الصلبوت من قبضة الفرس .

وفى أوائل القرن السابع الميلادى ظهرت قوة جديدة فى الميدان

بظهور الاسلام فى شبه الجزيرة العربية ، وقيام الدولة العربية الفتية. واصبح الكفاح منذ ذلك الحين بين المسلمين والبيزنطيين من ناحية ، وبين المسلمين واللاتين من ناحية أخرى ، أمرا واقعا . وقد امتد حتى أواخر العصور الوسطى . وكانت اهم مراحله وأكثرها ضراوة هى الحروب الصليبية التى شغلت القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابـــع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية) .

ويستمر الحال على هذا المنوال الى أن برغت شمس النهضة التى آذنت بنهايـــة القـــرون الوسطى بمبادئهـــا ونظمهـــا وفلسفتهـــا ، وبداية العصور الحديثة بأوضاعها المغايرة . وفيها يأخذ الصراع مظهرا جديدا يتلائم ومقتضيات الظروف والمتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى العالم ، ونعنى بذلك بداية التوسع الاوروبى فى العالم العربى والشمال الافريقى بخاصة ، وفى آسيا وافريقية بصفـــة عامـــة . واستتبع ذلك يقظة الشعوب العربية الآسيوية الافريقية ، وقيامها مـــن سباتها لتحرير نفسها من ربقة الاستعمار فى شتى صوره ومظاهره .

واذا امعنا النظر فى حقيقة الصراع الذى قام بين شقى العـــالم خلال العصور المتعاقبة ، نجد أنه اتخذ فى كل عصر شكـــلا معينا يتناسب والظروف القائمة وقتها ، وان اتحد فى الغاية والهدف . فقد كـــان فى العصور القديمة صراعا سياسيا حربيا حضاريا فى عالم يدين بالوثنية ، بينما اتخذ العالم الاوروبى المسيحى من الدين فى العصـــور الوسطى ستارا لتحقيق نفس الاغراض والغايات . وفى العصـــر الحديث بدا الصراع سافرا ، سواء اتخذ الشكل العسكرى أو الاقتصادى أو غيرهما من الأساليب . وهكذا تشابهت اسباب هذا الصراع الطويل المرير فى شتى مراحله ، وان بدا فى كل مرحلة فى ثوب مغاير . أو هـــو بمثابة حلقات متتابعة فى سلسلة واحـــدة ممتدة عبر القرون والاجيـــال . والاقوى فيه — عادة — يوجه الضربة الاولى الى الاضعف ، محـــاولا احتواءه وفرض سيطرته وحضارته عليه .

ب ـ الصراع بين المسلمين والمسيحيين حلقة من حلقات الصراع المتصل بين شقى العالم :

كانت الحروب الصليبية التى شغلت ثلاثة قرون من الزمان ، مرحلة هامة من مراحل الكفاح العنيف بين شقى العالم . وهى لم تقم فجأة ولم تنته فجأة ، انما جاءت نتيجة عمليات تطور بطيئة مستمرة فى فترات متباعدة غير قصيرة ، كما أنها تركت آثارها لاحقاب أخرى بعد نهايتها بمعناها الدقيق . وعلى هذا من الخطأ أن نضع الخط الواضح الذى يفصل بينها وبين المراحل التى سبقتها وتلك التى اعقبتها . فهذا الصراع عبارة عن مجموعة متراصة من الوقائع والاحداث ، ومن العقل والفكر والنظم والحضارة ، المترابطة المتماسكة التى لايمكن تفتيتها أو تجزئتها أو فصلها عن بعضها ، وان كل مرحلة فيها ما هى الا فترة انتقال من السابق الى اللاحق . لهذا لايمكن الأخذ بفكرة بدايتها أو نهايتها فى سنة معينة أو يوم بذاته . فتحديد السنين والتواريخ مسألة اعتبارية بحتة المقصود بها تسهيل فهم أى موضوع وتقريبه الى الاذهان قدر الاستطاعة .

ويمكن القول ان هذه الظاهرة التاريخية تمثل روح العالم الاوروبى الوسيط والافكار السائدة فيه وقتذاك تمثيلا صادقا فى ناحيتين هامتين رئيسيتين هما : ناحية الدين وناحية الحرب . فالاولى أوحت بها منذ البداية الديانة المسيحية التى سادت أوروبا بعد صراع رهيب مع الوثنية واباطرة الرومان فى اخريات عهدهم . واصبح للدين والكنيسة قوة عظيمة فى تلك القرون حتى أن كل من كان يخالف تعاليمها كان يعرض نفسه لاشد أنواع العقاب . وما أكثر اسلحة الكنيسة التى كانت تستخدمها ضد معارضيها ، وبخاصة فى ميدان السياسة ، من حرمان ولعنة ونقمة وقطع . لقد تحكمت بحكم الظروف التى احاطت بنشأتها عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ، فى مقدرات الافراد ، وفى حياتهم الخاصة والعامة ، لها الامر والنهى ، وعلى الجميع السمع والطاعه . وبلغت ذروة سطوتها اثناء الصراع الذى قام بينها وبين

القوى الزمنية فى الغرب وعلى رأسها الامبراطورية حول المسائل العلمانية • فأخذت تنكل بالاباطرة والملوك والامراء ، تحقيقا لمصالحها واطماعها التى لم تكن تقف عند حد •

وهكذا عاش الفرد فى المجتمع الاوروبى الوسيط ، وبخاصة فى الشق الغربى منه ، داخل هذه الدائرة الضيقة المغلقة التى وضعته فيها الكنيسة ، لا حول له ولا طول • هذا عن الدين ، أما عن الحرب فهى تقترن بالعناصر الجرمانية التى غزت اوروبا وقضت على الامبراطورية الرومانية ، واقامت على انقاضها دولا وممالك جديدة ذات انظمة جديدة مغايرة ، تختلف تماما عما كان سائدا عند الرومان القدماء • وهذه العناصر الجرمانية ترتبط بالنظام الاقطاعى وما يلحقه من نظم الفروسيه ، حيث يبرز الفارس ما تعلمه من فنون القتال • وقد تأثر العقل الاوروبى الوسيط بهاتين الفكرتين تأثرا كبيرا ، حتى أنه عندما دعا أحد بابوات روما ، وهو البابا اربان الثانى ، الى حمل الصليب فى خطبته التى القاها فى ٢٧ نوفمبر عام ١٠٩٥ م فى مؤتمر كليرمون بفرنسا ، وجد تجاوبا عجيبا من كافة الطبقات والطوائف والهيئات • واندفع الناس للانخراط فى سلك هذه الحروب من كل فج وصوب فى الغرب ، ذلك لانها اصطبغت بصبغة الدين والحرب • فالدين غدا من الصق الاشياء بحياة الناس وقتذاك ، بينما كانت الحرب صناعة الفارس الاولى • ويكفى ان النجاح الذى لاقته تلك الدعوة فى بدايتها فاق بكثير ما كان يأمله اربان نفسه بشهادة المؤرخين اللاتين القدامى الذين عاصروا احداثها وكتبوا عنها مثل فوشيه دى شارتر والبرت دكس وريمون داجيل والمجهول مؤرخ حملة بوهيموند النورماندى وروبرت الراهب ، ومن نقل عنهم من الحديثين مثل رينيه جروسيه وستيفن رانسيمان •

والحروب الصليبية ، ولو أنها تتفق مع الحروب السابقة عنها واللاحقة لها فى حقيقة دوافعها واتجاهاتها التوسعية ، الا أنها تختلف

عنها اختلافا بينا من حيث طبيعتها وماهيتها وخصائصها • فلها كيانها ومقوماتها والاسس التى ترتكز عليها ، مما يجعل لها وضعا خاصا فى تاريخ التوسع والاستعمار • وهى ، ايضا ، كثيرة معقدة امتدت ثلاثة قرون من الزمان ، اتصل فيها الكفاح بين الغرباء الوافدين من الغرب وبين أصحاب البلاد الاصليين •وتعرف حروب القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد (القرنان السادس والسابع الهجريان) بالحروب المبكرة ، والحملات الرئيسية منها تسع لما تميزت به من دوافع أدت بحق الى اعتبارها حملات مستقلة قائمة بذاتها • أما حروب القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) ، فقد عرفت اصطلاحا بالحروب الصليبية المتأخرة ، وقد تضمنت عدة حملات كبيرة من أهمها حملة بطرس الاول لوسنيان ملك قبرص اللاتينى على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م ، وحملة لويس الثانى دوق بوربون على مهدية تونس سنة ١٣٩٠ م ، وحملة نيقوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦ م • ولم تكن هذه الحملات ، المبكرة منها والمتأخرة ، قاصرة على أمة معينة أو جنس بذاته • فقد اشتركت فيها جميع فئات وطوائف واجناس الغرب الاوروبى ، كل حسب طاقته وظروفه • ولهذا كان المظهر الدولى هو الطابع المميز لها •

وجدير بالذكر ان اصطلاح « الحروب الصليبية » اطلق على كثير من الحروب التى قامت بين المسلمين والمسيحيين ، والتى تختلف عنها فى طبيعتها وخصائصها ومميزاتها • فينظر بعض المؤرخين ، وعلى رأسهم رينيه جروسيه وتوماس ارنولد ، الى الامبراطور البيزنطى هرقل باعتباره أول المحاربين الصليبيين فيما يتعلق بحروبه ضد المسلمين وهزيمته امام القوات الاسلامية فى واقعة اليرموك سنة ٦٣٦ م • ويكفى ان المؤرخ اللاتينى وليم الصورى الذى عاصر شطرا من الحركة الصليبية ، اشار فى بداية كتابة الى حروب هرقل باعتبارها ممهدة للحركة الصليبية نفسها • وهناك من يرى ان حروب الدولة البيزنطية فى عهد

الاسرة المقدونية ضد المسلمين فى الشرق الادنى فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (القرنان الثالث والرابع الهجريان) ، وبخاصة فى عهد كل من الامبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م) ، وخلفه يوحنا تزمسكيس المعروف عند العرب باسم حنا الشميشق (٩٦٩ — ٩٧١ م) ، هى ايضا من قبيل الحروب الصليبية • وأنه من باب التجاوز تعريف هذه الحروب التى قامت بها بيزنطة ضد المسلمين بالحروب الصليبية التى تختلف فى مدلولها الدقيق عن تلك الحملات البيزنطية • وهى وان اصطبغت بالصبغة الدينية فى وقت ما ، فقد كان يغلب عليها العنصر السياسى بحكم متاخمة الحدود بين العالم البيزنطى والشرق الادنى الاسلامى •

وهناك فئة اخرى من المؤرخين تعتبر حروب مسيحيى الغرب ضد المسلمين فى اسبانيا وصقلية وجنوب ايطاليا فى القرنين العاشر والحادى عشر للميلاد (القرنان الرابع والخامس الهجريان) ، هى الاخرى حروبا صليبية • وعلى رأس هذا الفريق المؤرخان ارنست باركر ، وشارل هومر هاسكنز • بل أن هناك من يرى ان الحروب التى قامت بين العالمين الاوروبى المسيحى والعربى الاسلامى منذ بدء الدعوة الاسلامية فى بدايات القرن السابع وحتى بدايات القرن السادس عشر الميلادى (من القرن الاول حتى القرن العاشر الهجرى) ، دون اعتبار للزمان أو المكان ، حروبا صليبية • وهذه التسمية بعيدة عن الحقيقة • ويمكن تعريف مثل هذه الحروب بأنها مقدمة للحركة الصليبية أو الحروب الممهدة لها • ويأخذ بهذا الرأى كل من جروسيه ورانسيمان • ويطلق بعض المؤرخين الحديثين على الحروب التى قامت فى القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) اسم « الحروب الصليبية المتأخرة » تمييزا لها عن الحروب الصليبية المبكرة • ويأخذ بهذا الرأى عزيز سوريال عطية • وهى ، فى واقع الامر ، خاتمة الحروب الصليبية الاولى وجزء لايتجزأ منها ، باعتبارها من أهم نتائجها وآثارها •

وبناء على ماتقدم ، عندما نقول ان الحركة الصليبية بدأت فى غام ١٠٩٥ م (٤٨٧ هـ) وانها انتهت فى عام ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) ، فهـذا لايعنى أنهابدأت دون ممهدات أو سابق انذار ، أو أنها انتهت دون أن يترتب عليها نتائج وآثار فى الاحقاب التالية • لقد اعتبرت سنة ١٠٩٥م كبداية لها ، لانها السنة التى اعلن فيها البابا اربان الثانى تلك الحركة فى كليرمون ، والتى دعا فيها الى حمل الصليب للاستيلاء علـى فلسطين وتأسيس امارات لاتينية هناك • كما اعتبرت سنة ١٢٩١ م كنهاية لها ، لانها السنة التى استولى فيها السلطـان المملوكى الاشرف خليـل على مدينة عكا ، وهى آخر معاقل الفرنج الحصينة بالساحل الشامى • لذا لايمكن للباحث المدقق أن يأخذ بهذا التحديد الزمنى الجاف • فقد كانت روح هذه الحركـة وصفاتها موجـودة فى الغرب قبل سنـة ١٠٩٥ م بعشرات بل بمئات من السنين ، ولم يكن ينقصها سوى أن تصطبـغ بالصبغة الرسمية ، وان يوجد الرجل الذى يعلن مولدها ، والظـروف التى تسمح بذلك ، وقد تم هذا فى عام ١٠٩٥ م • كذلك إتفق المؤرخون على اعتبار سنة ١٢٩١ م بمثابة نهاية هذه الحركة • ولكن بالرغم من ذلك قامت مشاريع وحملات اخرى تحمل نفس الطابع خـلال القرن الرابع عشر ، والتى تعتبر امتدادا للفكرة الصليبية واستمرارا لهـا • والواقع الذى لاخلاف بشأنه انه كانت هنـاك عوامل كثـيرة مختلفة متشابكة معقدة متفاوتة التأثير مهدت لتلك الحركة وادت فى نهايـة الامر الى قيامها • ولم تكن هذه العوامل بنت يوم وليلة ، وانما استغرقت وقتا طويلا قبل الحروب الصليبية نفسها • كما ظلت هذه الفكرة بعـد سقوط عكا نحو قرن من الزمان ، ولم تفقد صفاتها الحقيقية بمدلولهـا الدقيق الا بعد القرن الرابع عشر • بل ان هناك من يـرى ان حروب المسيحيين ضد غرناطة الاسلامية فى أخريات القرن الخامسـ عشر الميلادى (أواخر القرن التاسع الهجرى) هى امتداد طبيعى للحروب الصليبية •

. وخلاصة القول ان الصراع السياسى والحضارى بين المسلمين والصليبيين هو ، فى حقيقته ، دور من ادوار الصراع العام بين العالمين الاوروبى المسيحى والعربى الاسلامى ، منذ ظهور الاسلام فى أوائل القرن السابع وحتى نهاية العصور الوسطى فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى (ق ١ — ٩ هـ) .

ج — تفهم الصراع السياسى والحضارى بين العالمين فى ضوء توازن القوى بينهما :

لا يمكن تفهم حقيقة الصراع السياسى والحضارى بين العالمين الاسلامى والمسيحى فى الحقبة الوسيطة من التاريخ ، الا فى ضوء بعض الافكار والمفاهيم الهامة ، ستلقى بدورها الاضواء على الحضارة العربية الاسلامية ومعابر انتقالها الى العالم الاوروبى . وأول هذه المفاهيم يتعلق بما يعرف بعصور القوة والتماسك والتكتل ، وعصور الضعف والتفكك والتأخر فى كلا العالمين ، منذ أوائل القرن السابع وحتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى (ق ١ — ٩ هـ) . وهذا سوف يفسر لماذا كان الخط البيانى يرتفع احيانا ليسجل ذروة القوة والمنعة فى أى من العالمين ؛ ثم لا يلبث ان ينخفض ليشير الى فترة من التدهور والانحلال ، وما يترتب على ذلك من نتائج وآثار .

وثمة فكرة أخرى ترتبط بسابقتها ، وهى التغير الذى طرأ على توازن القوى بين العالمين واسبابه . ففى الوقت الذى ترجح فيه كفة العالم الاوروبى فى أى من جبهتيه ، لا يكون ميزان القوى فى صالح المسلمين اطلاقا . وبالعكس ، عندما ترجح كفة العالم الاسلامى فى المشرق أو المغرب ، كان يقابل ذلك انحطاط وتدهور فى اوروبا ، ويميل مركز الثقل الى جانب المسلمين . ومن هنا عندما يشعر الاوروبيون بأنهم الاقوى ؛ كانوا يقومون بهجماتهم على العالم العربى الاسلامى ، ويحرزون عادة انتصارات سريعة خاطفة . وعندما يستجمع المسلمون

قواهم ويكتلون انفسهم ، كانوا يقومون بهجمات وحروب مضادة تنتهى عادة بالحاق الهزيمة والخذلان بالجانب الآخر ، واستعادة ما استولى عليه • وعندما يعتدل ميزان القوى بين العالمين ، يعنى هذا عدم امكان أى منهما من احراز نصر حاسم على الآخر • وباختصار ، فقد اتخـذ كل من الاوروبيين والمسلمين فى عصور القوة بالنسبة لكل منهما سياسة الهجوم حيال الطرف الآخر ، بينما التزم كل منهما بسياسة الدفاع عن نفسه وعن كيانه بوجه عام فى عصور الضعف • ويرتبط كل هذا — الى حد بعيد — بالظروف والاحـوال السائدة فى كلا العالمـين من سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وغيرها • وعلى هذا ، عندما يعتدل ميزان القوى فى الصراع بين الفريقين ، كان هذا يعنى نوعا من الهدنة المؤقتة ، أو فترة مـن التربص والانتظار والاستطـلاع وجس النبض ، مـع الاستعداد والترقب لحين موافاة الفرصة المواتية للانقضاض • والنجاح يكون آخر الأمر لمن تهيىء له الظروف رجحان كفته • واذا حدث أثناء اعتدال ميزان القوى ان وقع اشتباك بين الطرفين ، فانه لايكون حاسما أو فاصلا • ويرتبط ما ذكرناه ببعض الافكـار مثل الافعـال وردود الافعال ، والاسباب والمسببات ، والنتائج والخواتيم • بمعنى ان لكل فعل رد فعل ، ولكل نتيجة سبب •

واذا انتقلنا من النظرية الى التطبيق ، فسوف نجد امثلة عديدة نستمدها من احداث التاريخ • فبعـد ظهور الاسلام وقيـام الدولة العربية الاسلامية ، فتية شامخة ، مترامية الاطراف من المحيط الـى الخليج ، كانت اوروبا بشقيها الشرقى والغربى تعـانى من التدهور والفوضى والاضطراب ، بعد سقوط الامبراطورية الرومانية القديمـة وغزوات البرابرة • ولذلك كانت كفة العـالم العربى الاسلامى هـى الراجحة فى كفاحه ضد كل من الدولـة الرومانية الشرقية والغـرب الاوروبى أثناء حركة الفتوحات • وقد لحقت بهما هزائم عـديدة خلال القرون الثلاثة الاول وبدايات القرن الرابع للهجرة (القرون السـابع

والثامن والتاسع واوائل القرن العاشر الميلادى) • وانتهى الأمر باقتطاع اجزاء كبيرة من ممتلكات دولة الروم فى القطاع الشرقى ، واهمها مصر والشام وجانب من آسيا الصغرى • وامتد التقدم الاسلامى غربا الى اسبانيا ، فاستولى المسلمون على الاندلس وعبروا جبال البرانس الى فرنسا • وتوقفت فتوحاتهم فى قلب اوروبا بمعركة بواتييه سنة ٧٣٢ م ايام شارل مارتل الذى يعرف فى المصادر العربية باسم شارل المطرقة ، بينما تعرف المعركة باسم معركة بلاط الشهداء • وقد ظل الصراع سجالا بين المسلمين ودولة الروم فى عهد الخلافة الاموية ، وبخاصة أيام كل من معاوية بن ابى سفيان وسليمان بن عبد الملك ، وايضا فى عهد الخلافة العباسية وبخاصة زمن كل من المأمون والمعتصم • وكان هدف هذه المحاولات الاستيلاء على القسطنطينية حتى يأمن المسلمون من مضايقات بيزنطة لهم • كذلك استولى المسلمون على معظم جزر البحر المتوسط مثل كورسيكا وسردينيا • وفى القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) استولوا على كريت ، وفى أوائل القرن العاشر الميلادى (أوائل القرن الرابع الهجرى) استولوا على صقلية وجنوب ايطاليا • وهكذا اصبح البحر المتوسط بحيرة اسلامية بعد أن كان بحرا رومانيا حسبما يقول المؤرخ هنرى بيرين •

وهكذا وقفت اوروبا مكتوفة الايدى امام الفتوحات الاسلامية فى البر والبحر ، التى كانت فى حقيقتها نشرا للدعوة وتأمينا لها من مناوشات ومضايقات جيرانها المستمرة على الحدود • وكان طبيعيا أن يصاحب ذلك انتعاش حضارى فى العالم العربى الاسلامى شمل مختلف النواحى والمجالات ، بينما لازمه ركود وخبو فى حضارة أوروبا ، حيث انعدمت الأصالة فى العلوم والآداب والفنون ، وتدهورت اللغة اللاتينية ، وعم الجهل • وكان طبيعيا ، ايضا ، ان يأخذ الاضعف من الاقوى ، والاقل مدنية من الاكثر رقيا وحضارة • وتم ذلك عن طريق

مراكز الاشعاع الثقافى العربية الاسلامية التى وجدت آنذاك ، وأهمها صقلية وجنوب ايطاليا والاندلس •

ولكن منذ أوائل القرن العاشر الميلادى (بدايات القرن الرابع الهجرى) حدث تغير فى توازن القوى بين العالمين العربى الاسلامى والاوروبى المسيحى • اذ بدأت الدولة البيزنطية تسترد قوتها فى عهد الأسرة المقدونية ، بينما أخذ التفكك والانقسام يدبان فى أوصال العالم العربى الإسلامى • وكانت النتيجة ضربات قوية وجهتها بيزنطة الى المسلمين فى الشرق الادنى ، واحرزت فيها عدة انتصارات •

ومع بدايات القرن الحادى عشر الميلادى (بدايات القرن الخامس الهجرى) ، كان الغرب الاوروبى ، هو الآخر ، قد افاق من كبوته بعد قرون طويلة من الظلام ، وبدأ يسترد انفاسه اللاهثة ، ويشق طريقه نحو التقدم ، بعد توقف غزوات البرابرة واستقرار الاحوال هناك • هذا ، بينما ازداد الخلف والانقسام ، السياسى والمذهبى ، فى العالم العربى الاسلامى ، واتسعت هوته • وكان هذا يعنى أن زمام المبادأة أصبح فى يد الغرب • ولذلك وجه الغربيون ضرباتهم ضد العالم العربى الاسلامى بالاستيلاء على صقلية والجنوب الايطالى خلال القرن الحادى عشر الميلادى (القرن الخامس الهجرى) • بينما كانت الممالك المسيحية فى شمال اسبانيا ، وعلى رأسها اراجون وليون وقشتالة ونافار ، تساندها بقية دول الغرب وفى مقدمتها فرنسا ، فى صراع ضد المسلمين لاخراجهم من شبه الجزيرة الايبيرية • وبعد ذلك ، وجه الغرب اللاتينى أولى ضرباته القوية ضد الشرق الادنى الاسلامى فى أخريات ذلك القرن فيما عرف باسم الحملة الصليبية الاولى التى انتهت بتأسيس مملكة وثلاث أمارات صليبية فى فلسطين على حساب الضعف والتمزق العربى وقتها • فالدولة الفاطمية فى مصر والشام فى طور الاحتضار ، والخلافة العباسية فى بغداد تعانى من الضعف والانقسام ، والسلاجقة فى آسيا الصغرى يقتطعون من أملاك هذه وتلك • ونتيجة لذلك توقف

المد الحضارى الاسلامى بصفة مؤقتة ، فلم تكن الظروف السياسية وقتها لتسمح باستمرار انطلاقه • وان كان العالم العربى الاسلامى قد تمتع فى بقية القرن العاشر وخلال القرن الحادى عشر للميلاد (بقية القرن الرابع وخلال القرن الخامس للهجرة) بنوع من الازدهار الحضارى ، فان ذلك يعتبر من نتاج عصر القوة الذى عاش فى ظله هذا العالم •

ومع بدايات القرن الثانى عشر الميلادى (أوائل القرن السادس الهجرى) ، حدث ، مرة أخرى ، انقلاب فى موازين القوى بين العالمين• اذ استشعر العرب بالخطر الماثل الذى كاد ان يأتى على الاخضر واليابس • وترتب على ذلك أن ظهرت بوادر صحوة عربية اسلامية فى اعالى الشام والعراق ، كان من روادها الاول مودود واق سنقر البرسقى ، وهدفها ايجاد تكتلات ثنائية لوقف الخطر الصليبى ومنع استفحاله • وقد تطورت هذه الصحوة الى يقظة عربية اسلامية شاملة أيام عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبى، استهدفت توحيد مصر والشام فى جبهة واحدة بحيث يصبح افرنج الشام بين شقى الرحى • وهنا حدث اعتدال فى كفتى الميزان اثناء الصراع السياسى بين اوروبا المسيحية والعالم العربى الاسلامى ، بحيث لم يكن بوسع اى منهما توجيه ضربة حاسمة الى خصمه • فكانت فترة ترقب وتربص وانتظار • وبكلمة أخرى ، لم يعد بوسع الغرب الاوروبى مواصلة توجيه ضربات مؤثرة ضد المسلمين •وآية ذلك أن كل الحملات الصليبية التى وجهها الغرب ضد المشرق والمغرب الاسلاميين اعتبارا من الحملة الثانية قد باءت بالفشل • وترتب على ذلك ان الحضارة العربية الاسلامية بدأت ، من جديد ، تستأنف ازدهارها وانطلاقها • بمعنى ان ازدهار الحضارة العربية الاسلامية كان يسير جنبا الى جنب مع القوة السياسية للعالم العربى الاسلامى نتيجة ترابطه وتماسكه ، والعكس صحيح •

ومع التكتل العربى الاسلامى ، وبخاصة فى منطقة الشرق الادنى، ايام خلفاء صلاح الدين من بنى ايوب وسلاطين دولة المماليك الاولى ، اصبح مركز الثقل يميل بشكل واضح لصالح المسلمين ، بينما بدأ الضعف يدب فى الكيان اللاتينى المتداعى فى الاراضى المقدسة لاسباب عديدة متداخلة فى بعضها ، فى الوقت الذى انشغلت فيه اوروبا عن نجدة اخوانها افرنج الشرق بسبب مشاكلها الداخلية ، وفتور الحماسة الدينية للفكرة الصليبية نفسها ، وتشكك الاوروبيين فيها وفى جدواها وفائدتها • وهكذا اصبح زمام المبادأة فى يد المسلمين الذين اخذوا يوجهون ضرباتهم القوية الى المعاقل والحصون الصليبية فى الشام ، الى أن انتهى الامر باخراجهم منها فى عهود الظاهر بيبرس ، والمنصور سيف الدين قلاوون ، وابنه الاشرف خليل فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (أواخر القرن السابع الهجرى) • وواصلت الحضارة العربية الاسلامية انتعاشها وتألقها ، ووجد مركز اشعاع آخر كنتيجة للحروب الصليبية ، تمثل فى مصر والشام ، يضاف الى المعابر التى اسلفنا اليها • وعن طريقه انتقلت العلوم والمعارف العربية الاسلامية الى العالم الاوروبى المسيحى ، فى وقت كان فيه متعطشا لذلك • وقد بنى عليها نهضته التى عرفت باسم « عصر النهضة الاوروبية » ، الذى يرتبط بالعصر الحديث ومدنيته العملاقة •

تلك هى الحقيقة الاولى التى ترتبط بموازين القوى ومراكز الثقل فى الصراع بين العالمين ، والارتباط الوثيق بينها وبين الاوضاع السياسية والحضارية فى كل منهما • أما الحقيقة الثانية فتنحصر فى أن الصراع بين العالمين كان يبدأ ، عادة ، بهجمات اوروبية ، كتلك التى قامت بها بيزنطة ضد العرب فى المشرق الاسلامى فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (القرنان الثالث والرابع الهجريان) ،والتى شنها الغرب ضدهم فى الغرب الاسلامى فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين (القرنان الرابع والخامس الهجريان) ، أو التى قام بها عند بداية الحركة

الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر ، وايضا حملات القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) • وقد استهدفت الحملات الصليبية المبكرة والمتأخرة العالم العربى الاسلامى من اقصاه الى اقصاه • ويلاحظ انه كان يعقب كل هجوم اوروبى يقظة عربية اسلامية، وحملات مضادة • مثال ذلك يقظة القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) التى اشرنا اليها من قبل • وكذلك الهجمات العربية الاسلامية المضادة التى قام بها المماليك والاتراك العثمانيون خلال القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر للميلاد (القرن التاسع وبدايات القرن العاشر الهجرى) ، ردا على الحروب الصليبية المتأخرة فى القرن الرابع عشر الميلادى •

ولمزيد من الايضاح بالنسبة لهذه الفكرة نقول ان الضربات التى كان العالم الاوروبى المسيحى يوجهها ضد العالم العربى الاسلامى ، تبدأ عادة عندما يكون الاخير منقسما على نفسه وفى حالة ضعف وتفكك، وتنتهى غالبا بانتصارات سريعة خاطفة على حساب المسلمين • ثم يعقب ذلك استشعار المسلمين أنفسهم بالخطر وعواقبه ، ومبادرتهم بالتكتل والتجمع « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » و « ان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون » • وغالبا ما تكون حركات التجمع العربى الاسلامى هذه فى أول الامر محلية وفى مناطق الخطر نفسها ، بقصد العمل على منع امتداده واستفحاله • وكانت تحرز نجاحا جزئيا وليس نهائيا أو حاسما • ولكنها ، على أية حال ، كانت تعتبر البداية الطبيعية لحركة اليقظة الشاملة التى تؤدى الى التئام شمل الشعوب العربية الاسلامية فى وحدة واحدة تحس بالخطر المشترك وتدرك ابعاده ، وتقدر عواقبه ومضاعفاته ، وتستعد لدفعه ودرء خطره، « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » •

وكانت هذه المراحل المتتابعة تؤدى فى نهاية الأمر الى المرحلة الاخيرة ، والمقصود بها الجهاد الاكبر أو الجهاد المقدس « انفروا خفافا

وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وانفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » • ويكون لهذا الجهاد نتائجه الحاسمة فى ظل الظروف والمتغيرات السياسية ، وينتهى باحراز النصر على الدخلاء « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » و « نصر من الله وفتح قريب » •

ولو امعنا النظر فى الصراع السياسى والحضارى بين العالمين العربى الاسلامى والاوروبى المسيحى خلال الحقبة الوسيطة من التاريخ ، وتتبعنا مراحله من بدايتها الى نهايتها ، لأمكننا تفهم هذه الفكرة التى استعرضناها •

وثمة فكرة أخرى ترتبط بسابقتها ، وهى أنه ضمانا للنصر الحاسم الاكيد ، يجب أن تسبق عملية الجهاد الاكبر ، عملية الجهاد الاصغر • والمقصود بذلك عملية توحيد الجبهة العربية الاسلامية • فهى مرحلة أولى ضرورية من مراحل هذا الجهاد الطويل الممتد • وهذه ظاهرة دورية عامة فى تاريخ العروبة والاسلام منذ الفتح فصاعدا • مصداق ذلك ان صلاح الدين ، ومن قبله نور الدين محمود ، لم يقوما بجهادهما المعروف ضد الفرنج فى الاراضى المقدسة ، الا بعد اطمئنانهما على تأمين الجبهة الاسلامية فى منطقة الشرق الادنى وتوحيدها • لقد كانت السياسة العامة التى سار عليها الزعماء والحكام العرب وقتذاك ، هى الامتناع قدر الاستطاعة عن مهاجمة الامارات اللاتينية بالشرق ، أو المغامرة فى حرب واسعة مع الخصم فى الوقت الذى كانوا يوحدون فيه جبهتهم ، اللهم الا اذا دعت الضرورة الى اتخاذ موقف خلاف ذلك• وقد تنبه الى ذلك أحد المؤرخين الغربيين الحديثين وهو وليم ستيفنسون ، واشار الى هذه الحقيقة فى كتابة « الصليبيون فى الشرق » • والخلاصة أن المسلمين خرجوا من كفاحهم مع اعدائهم عبر العصور بدرس هام هو ان عملية تكتيل القوى العربية الاسلامية مرحلة اساسية لا غنى عنها يجب أن تسبق مرحلة الجهاد المقدس ضمانا لنجاحه •

والواقع الذى لا خلاف بشأنه هو ان الوحدة العربية الاسلامية وجدت منذ أن وجد المسلمون • وهى وحدة قائمة غير مكتوبة على ورق، وحدة لها جذورها التى تمتد فى اعماق التاريخ ، وحدة تفرض نفسها فى اوقات المحن والأزمات التى مر ويمر بها العالـم العربى الاسلامى • فعندما كان العدو يهاجم إحدى الدول العربية ، كانت الشعوب العربية تهب من كل مكان للانتقام منه ودفعه • وتروى المصادر أن مصر عندما كانت تتعرض لهجوم صليبى ، يبادر أهل الشام بالهجوم عـلى معاقل الفرنج فى الاراضى المقدسة ، وذلك بقصد مضايقتهم ومحاولة صرفهم عماهم قادمون عليه • وكان هذا هو نفس ما يحدث عندما تتعرض بلاد الشام لعدوان صليبى ، فيبادر المصريـون الى مساندة اخوانهـم فى الشمال ضد العدو المشترك • كذلك وجد ارتباط روحى ومعنوى قوى بين مسلمى المشرق والمغرب خلال تلك الحقبة من الزمن • فبينما كان الاولون يجاهدون ضد الفرنج فى شرقى البحر المتوسط ، كان اخوانهم المغاربة يجاهدون هم أيضا ضد الاوروبيين فى غربى ذلك البحر •

واذا تتبعنا هذه الحقيقة فى شتى مناحى الحضارة والحيـاة فى العالم العربى الاسلامى من المحيط الى الخليج ، سوف نجد أنها حقيقة اصيلة يؤيدها الواقع • وهى تعبر عن وحدة عضوية شاملة لها أصولهـا وجذورها ، ولها عناصرها ومقوماتها ، منذ أن وجد الاسلام ليؤدى دوره الانسانى والحضارى على مسرح الحياة • وحدة فى اللغة ، وفى الدين، وفى الاصل ، وفى الجنس ، وفى الارض ، وفى التاريخ • فضلا عن وحدة فى التقاليد والعادات والتراث والثقافة والفكر والنظم الاجتماعية • وحدة فى المشاعر والآمال والآلام • وحدة تكشف عنهـا ، كما اثبت الاستاذ الدكتور أحمد فكرى فى موسوعته الرائعة « مساجد القاهرة ومدارسها » ، ناحية هامة من نواحى الحضارة العربيـة الاسلامية ، ونعنى بها الفنون التى تعتبر مرآة صادقـة تنعكس عليهـا مبادىء الشعوب ومثلها وافكارها ومناهجها فى الحياة • وحدة كانت تبعثهـا وتوقظها من غفوتها احداث الزمان للوقوف فى وجـه أى عدوان ، أيـا كان مصدره ، وفى شتى صوره ومظاهره ، وفى مختلف عصوره •

الحضارة العربيـــة الاسلامية

ومراكز اشعاعها فى العصور الوسطى

أ ـ نظرية هنرى بيرين ورد ارشيبالد لويس عليها :

يقول احد المؤرخين الغربيين الحديثين ، وهـو هنرى بيرين ، فى كتابه « تاريخ اوروبا الاجتماعى والاقتصادى فى العصور الوسطى » ، ان حركة الفتوحات الاسلامية تعتبر حدا فاصلا بين التاريـخ القديم بمثله ومفاهيمه والعصر الوسيط بأوضاعه الجديدة المغايرة • ويرى أن تلك الحركة جعلت من البحر المتوسط حاجزا بين شقى العالم بعد أن كان حلقة وصل بينهما ، وانها سبب ما اصاب اوروبا من كوارث وانهيار اقتصادى • وخلاصة هذه النظرية أن حركة الفتوحات أدت الى سيطرة المسلمين على البحر المتوسط ، وأنه ترتب على ذلك توقف التجارة بين الشرق والغرب ، وتوقف الحياة الاقتصادية فى الغرب •

ويزيد بيرين الامر وضوحا فيقول أنه بظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى وقيام حركة الفتوحات ، تغير الوضع فى العالم المعروف وقتها • فأصبح البحر المتوسط بحرا عربيا اسلاميا يفصل بين الشرق العربى الاسلامى والغرب الاوروبى المسيحى • ويستطـرد قائلا ان المسلمين نجحوا فى اقتحام البحر الادرياتى ، وغزو جنوب ايطاليـا ، والبحر التيرانى ، وتوغلـوا حتى اسبانيا ، واصبحت جـزر البليارد وكورسيكا وسردينيا وكريت وصقلية مراكز تجارية هامـة للاساطيل الاسلامية ، وان كل هذا قضى على نشاط اوروبا التجارى منـذ القرن الثامن الميلادى (القرن الثانى الهجرى) • وخلص من ذلك أن البحر المتوسط بعد أن كان بحرا رومانيا أصبح بحرا عربيا اسلاميا ، وبعـد أن كان حلقة اتصال بين الشرق والغرب أصبح حاجزا بينهما ، مما أدى الى كساد النشاط التجارى لدول الغـرب ، وتدهـور المدن الغربيـة

وتضاءل سكانها ، واخيرا تدهور الحياة الثقافية فيها ، الامر الذى هيأ الجو لظهور عصر الاقطاع •

ولكن احدث البحوث التاريخية المنزهة عن الميل والهوى ، اثبتت عدم صحة نظرية بيرين • اذ اثبت العالم ارشيبالد لويس فى كتابه « القوى البحرية فى حوض البحر المتوسط » ، ان حركة التجارة بين الشرق والغرب لم تتوقف بسبب حركة الفتح الاسلامى ، بل استمرت وان كان قد تضاءل حجمها نتيجة الظروف التى كان يمر بها العالم وقتذاك ، وان السبب الجوهرى لما حل بالغرب هو انهيار الاقتصاد الاوروبى فى نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط • اذ أصبح اقتصادا زراعيا يقوم على سياسة الاكتفاء الذاتى غير المتطور ، مما قضى على كل نشاط فى المجالين الصناعى والتجارى ، الامر الذى اصاب الحضارة الاوروبية فى الصميم • وقال ان ذلك كله حدث قبل ظهور الاسلام وقبل حركة الفتوحات بمئات من السنين • وبذلك انهارت تماما دعاوى بيرين بعد أن ثبت عدم صحتها ، وقيامها على أساس غير سليم •

ب — تفهم حركة الفتح فى ضوء فكرة الجهاد فى الاسلام :

جدير بالذكر أن عددا من المؤرخين الاجانب ، القدامى والحديثين ، نظروا الى الفتوحات الاسلامية نظرة حقد وتعصب لاتتفق بحال مع الامانة العلمية • وحاول البعض التقليل من شأن العرب وحماستهم • بينما فسر البعض الآخر حركة الفتح بأنها حركة استعمارية توسعية تستهدف الغزو والتوسع •

والباحث المدقق يدرك ان حركة الفتح ، وما ترتب عليها من قيام الدولة العربية الاسلامية ، وازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، كانت وليدة ضرورة سياسية وحربية اقتضتها الظروف وقتذاك • اذ

كان هدفها — حسبما اسلفنا — نشر الدعـوة وتأمين سلامة الدولـة الجديدة من جيران يتاخمونها الحدود ويناصبونها العداء • ولهذا فهى تقوم على فكرة هامة فى الاسلام هى فكرة الجهاد • ومن هنـا يجب تفهم حركة الفتح وما استتبعها فى ضوء هذه الفكرة ••

لقد نص الله سبحانه وتعالى فى كتابـه الكريم عـلى الفروض الخمسة الواجبة على كل مسلم قادر ان استطاع الى ذلك سبيلا ، وهى : الشهادة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج • وكتاب الله عامـر بالآيات التى توضح ذلك ، وبخاصة فى سور البقرة ومريم والتوبة • كذلك حرص الدين الاسلامى على تأكيد الجهاد فى سبيل اللـه ونصرة دينه ، كفرض واجب الاداء على كل مسلم ، باعتباره مبدأ وعقيدة • لقد حث كتاب الله على الجهاد دفعا للعدوان ، وحفاظا على الارض والعرض وعلى الديار والمقدسات • وآيات الجهاد عديدة فى كتاب الله ، وبخاصة فى سور البقرة والتوبة والنساء وآل عمران ، وفى السور المدنية بصفة عامة • وكانت دعوة الجهاد كافية لاثارة الحماسة بين الناس ، وكان كل من يشترك فى قتال اعداء الله يعتبر مجاهدا ، وكل من يموت فى سبيل الله يعتبر شهيدا • كما كانت الخطب والمواعظ الدينية التى تلقى مـن فوق منابر المساجد ، وكذلك رسائل الحكام وكتبهم الى ولاتهم بالاقاليم مليئة بالآيات التى تستنهض الهمم وتحث النفوس للقتال كلما دعـا الداعى • ومن هنا نشأ ما عرف باسم أدب الجهاد وفلسفة الجهاد • وظهرت المؤلفات العديدة فى العصر الاسلامى الوسيط فى فضائل الشام والبيت المقدس حيث قبة الصخرة والمسجد الاقصى أولى القبلتين وثانى الحرمين •

لذلك كان المسلمون فى حروبهم يجاهدون عن ايمان صادق وعقيدة راسخة ، ابتداء بحركة الفتح ، وبعد ذلك لمواجهـة الهجمات التى تعرضوا لها فى العصر الاسلامى الوسيط ، مثل الحركة الصليبية والغزو المغولى • وعندما كان العدو يهاجم احدى البلدان العربية ، كانت خطب

الأئمة ورسائل الحكام تخرج وفيها نذير ووعيد للعدو اذا ماسولت له نفسه المخاطرة بالهجوم • وعادة كانت تستهل أو تختتم بأية قرآنية مثل « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ، أو « اتى امــر الله فلا تستعجلوه » ، أو « وستعلمن نبأه بعد حين » • فاذا لم يتراجع العدو وواصل عدوانه ، كانت هذه الخطب وتلك الرسائل تتضمن آيات قرآنية تحض صراحة على الجهاد وقتال عــدو الله « انفروا خفافــا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وانفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خــير لكم ان كنتم تعلمون » ، أو « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » ، أو « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » • وعندما كان المسلمــون يلحقون الهزائم بأعدائهم ، وكان هذا يحدث فى فترات القوة والتماسك، كانت خطب الأئمة ومكاتبات الحكام الى الولاة بالاقاليم تبشر بالنصر ، وتختتم ــ عادة ــ بآية قرآنية • « نصر من الله وفتح قريب » ، أو « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » • وتزودنا مصادر التاريخ الاسلامى التى ترجع الى الحقبة الوسيطة من التاريخ ، بمعلومات هامة وقيمــة بهذا الخصوص • وهى لاتزال بحاجة الى مزيد من البحث •

وخلاصة القول انه يجب تفهم حركة الفتح ، وموقف العالم العربى الاسلامى من الهجمات التى تعرض لها ، فى ضوء فكرة الجهاد التى كان لها اثرها الفعال فيما احرزه المسلمون على اعدائهم من انتصارات عبر القرون الطويلة ، وبخاصة فى اوقات الوحدة والترابط • اذ كانت الدعوة للجهاد تجد استجابة سريعة من الناس الذين كانوا يضحون بأنفسهم وبكل غال ونفيس فى سبيلها •

جـ ــ التفكير العلمى فى اوروبا فى الفترة المبكرة من العصور الوسطى :

لمعرفة اثر الحضارة العربية الاسلامية على اوروبا ، يجب العودة قليلا الى الوراء حيث نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط الذى اقتطع من تاريخ الانسانية عشرة قرون من الزمان أو يزيد • فهو يبدأ

ــ عادة ــ بالقرن الخامس ، وينتهى فى القرن الخامس عشر أو السادس عشر الميلادى • يبدأ بسقوط روما وانهيار الامبراطورية الرومانية القديمة على أيدى الجرمان البرابرة سنة ٤٧٦ م ، وينتهى بسقوط القسطنطينية فى ايدى الاتراك العمثانيين سنة ١٤٥٣ م ، أو بحركة الاصلاح الدينى فى الغرب فى القرن السادس عشر • ويقسم المؤرخون الغربيون الحديثون تلك العصور الى فترتين متميزتين : العصور المظلمة وتقع بين عامى ٤٠٠ و ١٠٠٠ م ، والعصور الوسطى الحقيقية وتشغل القــرون الخمسة أو الستة التالية • ومنهم منيقسمها الى ثلاث حقب هى : العصور الوسطى المبكرة وتشغل القرون من الخامس الى العاشر ، والعصور الوسطى الحقيقية أو الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط وتشغل القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر ، والعصور الوسطى المتأخرة أو نهاية العصور الوسطى وتشغل القرنين أو القرون الثلاثة التالية • وهذا لا يعنى على الاطلاق وجود حد فاصل بين هذه الفترات ، اذ كانت متصلة بطبيعة الحال وان تميزت كل فترة منها بخصائص معينة • بمعنى أنــه لا يمكن الاخذ بفكرة التحديد الزمنى الجاف لمختلف الحقب والعصور ، وانما الهدف من مثل هذه التقسيمات هو تسهيل فهم التاريــخ وتقريبه الى الاذهان قدر الاستطاعة •

على أية حال ، بدأت العصور الوسطى فى اوروبا بالقرن الخامس عندما وقعت غارات البرابرة على الدولة الرومانية القديمــة ، وكانت آنذاك شبحا متهالكا بعد ان انهكتها الازمات السياسية والاقتصاديــة والاجتماعية والفكرية والدينية والعسكرية ، بحيث لم يجــد الجرمان صعوبة فى القضاء عليها وعلى نظمها وحضارتها ، ليقيموا على انقاضها دولا وممالك مغايرة • وبدأت تلك العصور ، أيضا ، فى وقت انتصرت فيه الديانة المسيحية على الوثنية وعبادة الاباطرة بعد صراع دام عنيف • وكان هذا يعنى ، بكلمة مختصرة ، نهاية عصر بأنظمته وقوانينه وحضارته وتقاليده ، وبداية عصر جديد له فلسفته ومفاهيمه الخاصة بــه • فقد

تحطم جهاز العمل الرومانى ، وانهار من اساسه ذلك الصرح الشامخ فى السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والفلسفة والقانون والفكر ، الذى كان سائدا عند الرومان القدمــاء ، لتحل محله أمــم جديدة لها حضارتها وتفكيرها ومشاكلها الادبية والمادية والاجتماعية الخاصة بها •

وترتب على ذلك ان وجدت حالة واضحة من الفوضى والاضطراب فى كافة انحاء اوروبا ، وبخاصة فى القسم الغربى منها ، مع نهاية التاريخ القديم وبداية العصور الوسطى ، • ولذلك عرفت القرون الاولى من تلك العصور باسم العصور المظلمة • ويقول المؤرخ المعروف ادوارد جيبون فى كتابه « تاريخ انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية » ، انه كان فى حكم المستحيل ان تحرز الانسانية اى تقدم فى ذلك العهد المضطرب • لقد تسلمت اوروبا العصور الوسطى تركد مثقلة بالمشاكــل والصعاب ، حتى ان كثيرا من المؤرخين الغربيين الحديثين المشتغلين فى هذا الميدان ، نظروا الى تلك العصور على أنها عصور جمود وظلام وبرودة ليس فيها اى خير للبشرية ، وعلى رأس هؤلاء و • ب • كير فى مؤلفــه « العصور المظلمة » • أما جيبون فيقول فى مقدمة كتابه عندما تعرض لفترة الانتقال من التاريخ القديم الى العصر الوسيط ، انه انما يمسك بقلمه لكى يسرد سيرة مليئة بحوادث التدهور والانحطاط التى تغلبت فيها البربرية والدين على النظام والحضارة • ويعنى بذلك تغلب الجرمان والمسيحية عــلى الجهاز الرومانى العتيق• لقد كانت القرون الاولى من العصور الوسطى فى اوروبا ، فى نظر كل من جيبون وكير ، عصور ظلام ليس فيها من نور العلم والمعرفة شىء يذكر • ذلك أن انهيار الدولة الرومــانية بقانونها ونظمها وحضارتها الزاهرة، واقتصادها النقدى وجهازها الادارى المحكم ونظامها الضرائبى المتين ، وقيام الدول والممالك المتبربرة على انقاضها ، وكذلك ظهور المسيحية وقضاءها على الوثنية وعبادة الامبراطور — انمــا يعنى فى نظر هذا الفريق من المؤرخين انهيار المدنية وبداية البربرية فى التاريخ الأوروبى •

والنتيجة ان الحضارة الرومانيــة انكمشت مع بدايــة العصور الوسطى ، ولم تبق منها سوى آثار ذابلة باهتة . اذ انتهت الاصالة فى العلوم والآداب والفنون التى تميز بها التاريخ الرومانى القديم . وحدث تدهور وانحلال فى كافة النواحى والمجالات ، وفى شتى افرع المعرفــة الانسانية . وساعد على ذلك ان قيام الديانة المسيحية لم يكــن ليتفق بحال مع بقايا الحضارة الرومانية التقليدية والتراث الكلاسيكى القديم . لقد كان هذا التراث فى نظرها تراثا ضارا عديم الفائدة لارتباطه بالوثنية وما تدعو اليه من الحرية والانطلاق وتعدد الآلهة بحكم تعــدد نواحى الحياة فى المجتمع .

ولمزيد من الايضاح ، فقد جاءت المسيحية كرد فعل للتاريخ القديم ووثنيته التى تدعو الى التمتع بالحياة فى شتى صورها ومظاهرها . وهذا أمر حرمته الديانة الجديدة دون رفق أو هوادة . وجاءت فلسفتها لتقول ان الحياة الدنيا مطية زائلة الى الدار الثانية باعتبارها دار الخلد والنعيم المقيم ،وان الفرد يجب أن يعد نفسه للحياة الابدية بأن يمتنع عن مباهج الدنيا وملذاتها باعتبارها متعا زائلة ، وان يعيش على العبادة والطهر والزهد والتقشف . ونادت بأن الخلاص هو الغاية النهائية لكل كائن حى، فى حين ان الوثنية كانت تتميز بالتحرر والانطلاق والتمتــع بالطبيعة وجمالها . وهكذا صبغت المسيحية الحياة فى المجتمع الاوروبى الوسيط بصبغة خاصة ظهر اثرها جليا فى العقل والفكر وفى النظم والحضارة . فالحب ، مثلا ، والتمتع بالجمال ، اعتبرتهمــا المسيحية اثما وخطيئة مميتة . فلم يكن يسمح للاديب أو الشاعر أو الفنان أو المفكر ، ان يعبر عن مثل هذه المشاعر والاحاسيس التى حرمتها المسيحية وفلسفتها ، تلك الفلسفة التى اعتبرت الاساس الاول للحياة والفكر فى العصــور المبكرة . ولهذا ساد الاعتقاد القائل بأن العقيدة والايمان يسبقان العقل والفكر . كذلك لم يكن مسموحا بتدريس آداب اليونان والرومان القدماء لما فيها من عناصر وثنية نبذتها الكنيسة اللاتينية . وبلغ من تعنتها حيال

التراث الكلاسيكى القديم ان حاربته بعنف ، حتى ان المتبقى منه الذى حفظه لنا الزمن من الضياع ضئيل جدا وضعيف فى مستواه •

وان تلك النظـرة المحـدودة الضيقة للامور فى نطـاق المسيحية وفلسفتها ، وتعاليم الكنيسة اللاتينيـة وقيودها ، والتى عـاش الفرد اسيرها قرونا عديدة ، جعلت الناس فى اوروبا لايفكرون فى استنباط قوانين الطبيعة ، ولم يحاولوا نتيجة لذلك التقدم فى العـلوم والآداب والفنون • واستعوزتهم القدرة على استخلاص ما فى الطبيعة من ثروات معدنية وزراعية ، واماتت فيهم روح الخلق والابداع • وشـغل الناس أغلب حياتهم فى فترة العصور المظلمة بالكفاح من أجـل كسب القوت اليومى فحسب ، وكفاهم فى ذلك الكفاف من العيش • ولذلك وجـد فى اوروبا مع الزمن شعور عام متزايد بالسأم والملل والضجر ، وحـالة واضحة من الضغط والكبت والحرمان • هذا ، بينما كانت اسلحة الكنيسة مسلطة على رقاب الناس ، والويل لمن كان يخالف تعاليمها وقوانينها • اذ كان يتعرض لاشد انواع العقاب من حرمان ونقمة ولعنة وقطع ، بل ومن احتمال حرق المخالف حيا بالنار •

هكذا عاشت اوروبا فى ظلام دامس فى القرون الاولى من العصور الوسطى ، حيث توقفت عجلة الحياة ، وبخاصة فى الغرب ، واحاط الحياة الثقافية والفكرية ظلام كثيف • وان ما اصاب التراث الكلاسيكى القديم اصاب اللغة اللاتينية أيضا • اذ اهملت قواعد النحو ، واختلطت اللهجات الجرمانية باللغة اللاتينية الفصحى القديمة التى فقدت نقاءها واصالتها • وانتهت تبعا لذلك البلاغة فى اللغـة ، وغدت الكتب نـادرة الوجود ، وتدهورت صناعة نسخها • كما تدهورت الدراسات الكلاسيكية فى اوروبا بعامة ، وفى غالة وايطاليـا بصفة خاصة ، واغلقـت المدارس أبوابها • وتدهور الخط ، وانحطت الكتابة ، وكثرت الاخطاء النحويـة واللغوية فيها • وانحصر العلم فى تلك القرون المبكرة داخل جدران المؤسسـات

الدينية • وغدا العلم دينيا خالصا الهدف منه تعليم الصبية الصغار بعض العلوم الدينية لكى يعملوا بعد تخرجهم فى سلك الكهنوت • وانحصر الانتاج الفكرى فى اعمال الآباء المسيحيين الاول ، وهو انتاج ضئيل وضعيف فى مستواه من حيث اللغة والاسلوب ، ويتميز بصفة دينية واضحة • وحتى فيما يتعلق بالنهضات المحلية التى قامت فى غرب اوروبا مثل النهضة العلمية الايرلندية فى القرن الثامن ، والنهضة الكارولنجية فى عصر شارلمان فى أوائل القرن التاسع ، والنهضة التى قامت على اكتاف الملك الفريد الانجلو سكسونى فى أواخر ذلك القرن — فقد كانت ترتبط بأشخاص من انتسبت اليهم اكثر من ارتباطها بالعصر نفسه • ثم أنها اتسمت — هى الاخرى — بسمة دينية واضحة • وفيما عدا ذلك ، فقد عاش الشعب فى الغرب فى جهالة مطبقة ، يستوى فى ذلك السادة الاشراف ملاك الارض والعاملون فى الارض من عبيد وارقاء واقنان وفلاحين اشباه أو انصاف احرار ، فى مجتمع اخذت ملامحه الطبقية الاقطاعية فى التبلور •

واستمر الغرب يعانى من حالة الفوضى والقلق وعدم الاستقرار والقحط الحضارى حتى أواخر القرن العاشر الميلادى (أواخر القرن الرابع الهجرى) • ومع بدايات القرن الحادى عشر (أوائل القرن الخامس الهجرى) ، بدأ الاستقرار بعد أن خفت حدة غزوات البرابرة وتوقفت الحروب ، وبدأ الغرب يتمتع بحالة من الامن والهدوء بعد أن نفض عن كاهله كابوس العصور المظلمة • وساعدت على ذلك ظروف عديدة من بينها اسطورة سنة ١٠٠٠ المعروفة التى يرى المؤرخ الفرنسى لويس هالفن انها تتميز بقيمتها الرمزية فحسب ، باعتبارها من اسباب نهضة اوروبا ، حتى اذا كان اواخر ذلك القرن قام الغرب بما عرف اصطلاحا باسم الحركة الصليبية ضد العالم العربى الاسلامى بوجه عام ، وضد الشرق الادنى الاسلامى على وجه الخصوص • وقد استمرت هذه الحركة قرابة ثلاثة قرون من الزمان هى القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية) •

وعلى الرغم من انها ادت الى صدام عسكرى بين الصليبيين والمسلمين ، الا انه كانت لها آثارها الواضحة على الناحية الفكرية كما سبق القول • اذ ادت الى احتكاك عقلى وفكرى واتصال تجارى أيضا بجانب الاحتكاك الحربى • وقد ترتب على ذلك وجود مركز جديد من مراكـز الاشعاع الثقافى هو مصر والشام ، وعن طريقه انتقلت الحضارة العربية الاسلامية الى العالم الاوروبى المسيحى لتساعده على النهوض من كبوته وشق طريقه نحو التقدم •

وخلاصة ما تقدم انه لايمكن تتبع جذور النهضة الحضارية ، التى ادت الى نقل الغرب من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ، ومن انظلام الى النور ، الا بعـد ذكر اثر الاسـلام والحضارة العربيـة الاسلامية وافضالهما عليه •

د ــ الحضارة العربية الاسلامية : دعائمها ، نشأتها وازدهارها :

أولا ــ دعائمهـا :

تقوم الحضارة العربية الاسلامية على دعامتين اساسيتين هما : اللغة العربية والديانة الاسلامية • أما عن العربيـة ، فهى الاداة التى عبرت بها القوة الحضارية الجديدة عن نفسها • وتعتبر العربيـة اغنى اللغات السامية ، وتتميز بالاصالة والخصب ، مما يجعل منها لغة حيـة دائمة الجدة والتجدد • وقد قامت بدورهـا خير قيام فى التعبـير عن الافكار ونقلها • ثم أنها تتميز بمرونتها الفائقة ، وقدرتها عـلى التعبير العلمى • كل هذا ساعد على سرعة انتشارها فى البلاد التى فتحها العرب شرقا وغربا بعد أن خرجوا من جزيرتهم الصغيرة للفتح • ولا أدل مـن قدرتها وحيوتيها ومرونتها وخصوبتها مـن أن العرب أصبحوا فى زمن قليل بعد الفتح يعبرون بها عن ادق نظريات اقليدس وفلسفة ارسطو وطب جالينوس وفلك بطليموس •

هذا عن الدعامة الاولى ، اما عـن الدعامة الثانيـة وهى الديانة الاسلامية فقد انتشرت بسرعة فى البلاد المفتوحة ، وكان انتشارا آمنا تلقائيا فى رقعة واسعة وبين شعوب عديدة كان بعضها قد اعتنق المسيحية، بينما احتفظ البعض الآخر بعقائده الموروثة • وقد نظـر بعض الكتاب الاوروبيين الى الاسلام نظرة حقد وتعصب اثناء انتشاره فى البلاد التى فتحها العرب مثل الشام ومصر وشمال العراق • وثبت ان هذه النظرة الضيقة بعيدة عن الحقيقة التاريخية ، وانها كانت تعبر عن وجهة نظـر الكنيسة اللاتينية فى العصور الوسطى • فقد اكدت الوثائق والاصول التاريخية ان العرب تسامحوا مع اهالى البلاد المفتوحة دون أن يفرضوا عليهم ديانة معينة • وقد نعمت الاقليات فى العـالم العربى الاسلامى بسياسة التسامح الدينى على مر العصور • ولاشك ان وحـدة اللسان الى جانب وحدة العقيدة الجديدة ، اوجدا رباطا قويا وحد بين الفاتحين العرب واهالى البلاد المفتوحة • وكان من ابرز نتائجه المحافظة عـلى اواصر الوحدة العقلية فى المنطقة الممتدة من المحيط الى الخليج • وهكذا أصطبغت الحضارة العربية الناشئة بصبغة دينية واضحة ، مما أكسبها فى التاريخ اسما مركبا شائعا هو الحضارة العربية الاسلامية ، كما يقول الدكتور سعيد عاشور فى مؤلفه « المدنية الاسلامية واثرها فى الحضارة الاوربية » •

ثانيا ــ نشأتهـا وازدهارهـا :

حتى الفتح لم يكـن للعرب تراث حضارى ملحوظ فى ميـادين الفلسفة والرياضيات والعلوم التجريبية (١) • ولكن حركة الفتح اتاحت

---

(١) ثمة رأى حديث يقول انه كان للعرب حضارة فى مجالات شتى من المعرفة الانسانية • وقد بنى هذا الرأى على نقوش عثر عليها اخيرا فى الجزيرة العربية • ولايزال التنقيب جاريا ، ويحتمل الكشف عن اشياء لم تكن معروفة من قبل •

لهم الفرصة للاحتكاك بحضارات عظيمة واقدم عهدا من حضارتهم • مثال ذلك حضارات مصر والشام والعراق والفرس واليونان والرومان ، فضلا عن حضارات الشرق الاقصى مثل الهند والصين • وقد افاد العرب من كل تلك الحضارات ، وعملوا على التنسيق بينها • وكانت الثمرة النهائية انصهار كل تلك الحضارات فى بوتقة واحدة انتجت حضارة جديدة شامخة لها مقوماتها وكيانها وخصائصها ومميزاتها الخاصة بها ، هى الحضارة العربية الاسلامية • لقد اخذت من هذه العناصر الحضارية السابقة أفضل مافيها ، تماما مثلما أفاد الرومان من حضارة اليونانيين القدماء ، ومثلما افاد اليونانيون القدماء من حضارة قدماء المصريين • فهذا التراث الحضارى للانسانية عبارة عن حلقات متتابعة فى سلسلة واحدة ممتدة عبر القرون والاجيال • وهذا لاينفى عن الحضارة العربية الاسلامية صفة الجدة والاصالة ، بل على العكس يؤكده ويدعمه • وليس ادل على اصالة الاسلام من قدرته الفائقة على تكييف كل هذه المدنيات الدخيلة لتتلائم وحاجاته ، وبالتالى فى نبذ كل مالا يقبل التكيف •

لقد احسن العرب اختيار العناصر الصالحة من الحضارات التى صادفوها ، ومزجوها ببعضها مزجا سليما ، وسدوا فجواتها ، وخرجوا من ذلك كله ببناء حضارى راسخ وشامخ لا يمكن أن يوصف الا بأنه عربى اسلامى • ويذكر العالم جوستاف جرونيباوم فى كتابه « حضارة الاسلام » كيف تكيفت هذه العناصر الحضارية الاجنبية فى ثوب اسلامى اصيل ، بحيث لا يستطيع احد معه تمييزها • ويستطرد قائلا ان الحضارة العربية الاسلامية كانت تتخير غذاءها من العناصر الحضارية التى احتكت بها تخيرا دقيقا واعيا ، مما ساعدها على الاحتفاظ بهويتها وسماتها العربية الاسلامية •

وهكذا سارت الحضارة العربية الاسلامية اثناء الفتح وانتشار الاسلام فى ركاب العرب اينما اتجهوا وحيثما حلوا • وقد ساعد على ازدهارها عدة عوامل ، من بينها انتشار الامن والعدل والاستقرار

والطمأنينة فى ربوع البلاد المفتوحة • وكذلك سياسة التسامـح الدينى التى انتهجتها السلطات الاسلامية حيال اهل الذمة • كل هذا أدى الـى انتعاش الاحوال الاقتصادية فى النواحى الزراعية والصناعية والتجارية• وكانت النتيجة ان عم الرخاء وازدادت الثروات • يضاف الىما تقدم ان الحضارة التى ارتكزت عليها الدولة العربية الاسلامية كانت حضارة مدنية • اذ كانت المدينة بسكانها الاحرار ونشاطهم الواسع فى الناحيتين الصناعية والتجارية ، هى عصب هذه الدولة وعمودها الفقرى • ولذلك سادها مايعرف اصطلاحا باسم الاقتصاد النقدى أو الاقتصاد المالى ، الذى يقوم على المعاملات التجارية ، وعلى البيع والشراء ، والتصدير والاستيراد ، وما يرتبط بذلك من انظمة ضرائبية وعملات • كل هذا أدى الى وجود معين لاينضب من المال نعم به العـالم العربى الاسلامى ، وبخاصة فى فترات قوته وتماسكه • هذا ، بينما كان النظـام القائم فى الغرب وقتها هو النظام الاقطاعى ، وحضارته حضارة ريفيـة زراعية لا تعرف التجارة أو الصناعة الا فى اضيق الحدود • وصلب هذا المجتمع هو القرية باقتصادها الطبيعى أو الاقطاعى ،وبسكانها من السادة المالكين للارض والمسودين العاملين فيها • ولذلك تغلغلت فى المجتمـع الغربى الوسيط المحلية بدلا من مركزية الحكم والادارة • وانكمشت المدينة ، وقل سكانها ، وتضاءل نشاطها التجارى والصناعى ، ولم يعد المال هـو وسيلة التعامل بين الناس • بل اصبحـت واجبات التبعيـة والخدمة الاقطاعية هى اساس التعامل بين أفراد هذا المجتمع • لكل هذا كـان الغرب عرضة للويلات والنكبات التى كانت تحل به بين الحين والحين ، وافتقد مقومات الامم والدول والحكومات الشرعية ، وحـل به البؤس والفقر والمرض ، وتفشى فيه الجهل •

وبينما كان الغرب المسيحى يعانى من كل هذا ، انتعش العـالم العربى الاسلامى ، واصبح لديه موارد هائلة ، مما أدى الى قيام نهضة علمية شاملة فيه • وقد بدأت هذه النهضة الواسعة فى العصر الاموى

(٤١ — ١٣٢ هـ/٦٦١ — ٧٥٠ م) ، وادت الى نقل كثير من مؤلفات الاغريق القدامى فى الفلسفة والطب والكيمياء الى اللغة العربية • وتألقت هذه النهضة فى العصر العباسى الاول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ / ٧٥٠ — ٨٤٧ م) • وجدير بالذكر ان ما كان يميز الحضارة العربية الاسلامية آنذاك كان شيئا أهم من اتساع رقعة الدولة الاسلامية الكبرى ، الا وهو اتساع عقول ومدارك الخلفاء والملوك والامراء المسلمين فى المشرق والمغرب • وثمة ملاحظة أخرى ، وهى ان الحضارة العربية الاسلامية تقبلت الأدب اليونانى القديم ، على الرغم من أن عبقرية علمائها ومفكريها لم تقبل صيغه واشكاله التى كانت تتنافى أو تتعارض مع مفاهيم الاسلام وتعاليمه •

وكان من ثمار هذه النهضة الاهتمام بجمع الكتب والمخطوطات ، وانشاء المكتبات • كما نشطت حركة الترجمة ، وبخاصة فى الفترة الواقعة فيما بين اواسط القرن الثامن واواسط القرن التاسع الميلادى (من أواسط القرن الثانى حتى اواسط القرن الثالث الهجرى) • وظهرت اسماء لامعة من المترجمين امثال ابو يحيى البطريق ، وحنين بن اسحق • ولعل من أهم الآثار المترتبة على هذه الحركة ، ان لم يكن اهمها على الاطلاق، هو بقاء جانب كبير من تراث اليونان القدماء حيا فى التراجم العربية وتعليقات العرب عليها • واذا كانت هذه الحركة قد بدأت بالترجمة ، ثم التقليد والمحاكاة ، فقد اعقب ذلك التجديد والابتكار فالخلق والابداع فى نواح عديدة فى المعرفة الانسانية كالفلسفة والطب والكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافية • وقد بلغت هذه الحضارة ذروتها فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد (القرنان الثالث والرابع الهجريان) • وكان انتقالها الى العالم الاوروبى المسيحى عن طريق مراكز الاشعاع الحضارى السالف الاشارة اليها • وكانت هذه هى الشرارة الاولى التى أدت الى انطلاقة هذا العالم ، وكسر قيوده التى عاش اسيرا لها عدة قرون •

هـ ــ مراكز اشعاع الحضارة العربية الاسلامية ، ومعابرها الى العالم الاوروبى المسيحى :

خلصنا مما سبق ان الحضارة العربية الاسلامية شقت طريقها الى العالم الاوروبى المسيحى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (اواخر القرن الخامس الهجرى) ، وكان هذا العالم قد نفض عن كاهله غبار القرون السابقة • وقد سلكت عدة معابر هى :

١ ــ الاندلس :

اخذ طلاب العلم من غرب اوروبا يتدفقون عليها منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، بهدف الاستفادة والاستزادة من الدراسات العربية الاسلامية فيها • وقد نشطت حركة الترجمة من اللغة العربية ، واستمرت حتى القرن الخامس عشر الميلادى (القرن التاسع الهجرى)• وترجم الى اللغة اللاتينية كثير من مؤلفات العرب فى مختلف العلوم والفنون ، وكذلك كثير من مؤلفات الاغريق القدماء المنقولة الى العربية، مثل كتب جالينوس وافلاطون وارسطو •

٢ ــ صقلية وجنوب ايطاليا :

كان للحضارة العربية الاسلامية شأن كبير فيهما اثناء حكم المسلمين لهما الذى امتد من سنة ٩٠٢ الى سنة ١٠٩١ م تقريبا • وكانت هذه الحضارة موضع تشجيع ملوك النورمان لها • ونجد مثالا حيا لذلك فى موقف الامبراطور فريدريك الثانى (١٢١٥ ــ ١٢٥٠ م) من العرب والحضارة العربية الاسلامية • كان من اعجب شخصيات العصور الوسطى ، حتى لقد نعته المعاصرون له بأنه « اعجوبة الدنيا » •نشأ فى صقلية ، وقسم املاكه فيما وراء الالب بين أبنائه ، واستقر هو فى الجنوب الايطالى حيث تأثر بالثقافة المتحررة الموجودة هناك ، وهى

ثقافة متنوعة المصادر والاصول ، امتزج فيها التراث اليونانى القديم بالتراث البيزنطى بالحضارة العربيـــة الاسلامية • كان واســـع العلم والثقافة ، كثير الاطلاع ، يجيد عدة لغات من بينها العربيـــة • وامتاز بتحرره من سلطان الكنيسة اللاتينية وقيودها • كان معجبـــا بالعرب وعلومهم وعاداتهم وأخلاقهم ، وكان على صداقة متينة بعدد منهم ، مثل الكامل محمد سلطان مصر الايوبى وابنه الصالح نجم الدين ايـــوب • وامتاز بروح التسامح واحترام جميع الاديان ، فى وقت كان فيه الغرب يمتاز بالتزمت الاعمى فى هـــذه الناحية • وكان بلاطه موئـــلا للعلماء المسلمين والمسيحيين على السواء •وكثيرا ماكان يجتمع بمفكرى الاسلام، كما كان على صلـــة بتلامذة ابن رشـــد والمفكرين فى العـــالم العربى الاسلامى •

وتروى المصادر العربية ان هذا الامبراطور كثيرا ما كان يتصل بالعلماء المسلمين فى مصر وسورية وغيرهما من البلدان ، اذا ما واجهه مشكل فى الرياضة والعلوم • لكل هذا كان المسلمون فى المشرق الاسلامى وفى صقلية وجنوب ايطاليا يكنون له كل تبجيل واحترام ، حتى لقـــد اعتبره كثير من المؤرخين العرب ، مثل ابو الفدا والعينى ، أنه اميل الى الاسلام منه الى النصرانية ، وأنه كان يؤثر القرآن على الانجيل • بينما اضطهدته الكنيسة اللاتينية واصدرت ضده قرار الحرمان الكنسى أكثر من مرة ، متهمة اياه بالهرطقة والخروج على الدين • وباختصار ، لم يكن الامبراطور فريدريك الثانى متعصبا ولا صليبيـــا ضيق الافق ، وذلك على عكس من سبقوه ومن جاءوا بعده من الحكام والقادة الغربيين فى عصر الحروب الصليبية •

لقد كان فريدريك الثانى خير معبر عن موقف ذوى العقل والتعقل فى غرب اوروبا فى تلك العصور ، حيث بدأت الانظمة القديمة التى ارتكز عليها العالم الوسيط فى الدين والسياسة والحرب والاقتصاد والفكر فى

التداعى لتحل محلها مثل وانظمة أخرى مغايرة ، تؤذن بقيام عصر جديد له مفاهيم جديدة تتمشى مع الظروف والاوضاع التى طرأت على العالم وقتذاك • ولاخلاف انه كان لانتقال الحضارة العربية الاسلامية الى الغرب المسيحى أكبر الاثر فى ذلك •

٣ ـ مصر والشـــام :

ادت الحروب الصليبية الى صدام عسكرى بين العالمين الاوروبى المسيحى والعربى الاسلامى • وقد بلغ هذا الصدام الدامى ، الذى استمر ثلاثة قرون من الزمان ، ذروته فوق رقعة الشرق الادنى • ومع ذلك ، وجد الى جانب الصدام العسكرى احتكاك سلمى يبدو بجلاء فى الناحيتين الثقافية والتجارية • فقد اشتركت فى هذه الحروب الجاليات الايطالية ، وبخاصة البنادقة والجنوية والبيازنة ، الذين كانت حرفتهم الاولى هى الاتجار ، وما كان يعود عليهم من وراء ذلك من مكاسب وارباح • فقد كان هناك احتياج متبادل بين شقى العالم • فالغرب بحاجـــة الى الملح والفلفل والتوابل والمنسوجات ، الى جانب البخور والعطــور التى كان يستوردها من الشرقين الاقصى والادنى ، بينما الشرق بحاجة الـــى المعادن والاخشاب التى زوده بها الغرب • وقد قامت الجاليات التجارية الايطالية بتصدير واستيراد البضائع بين الشرق والغرب فى فترة الحروب الصليبية ، وجنت من وراء ذلك ارباحا طائلة • فلم يكن يعنيها الصالح الصليبى العام الا بقدر ما تحققه من مغانم • وترتب على ذلك انتعاش حركة التجارة فى اوروبا ، وظهور الطبقة المتوسطة ، وازدياد ثرواتها ، ونمو المدن واتساعها ، وازدياد سكانها ، وقيام حضارة مدنية قوامهـــا الصناعة والتجارة •

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى اسهمت الحروب الصليبية بدور كبير فى القضاء على النظام الاقطاعى الذى ساد الغرب قرونا طويلة • اذ تكالب الفرسان والسادة الاقطاعيون على الاشتراك فيها ، املا فى

توسيع دائرة نفوذهم ، وتأسيس امارات جديدة لهم فى الشرق بعد أن ضاق الغرب بمطامعهم ، أو حبا منهم فى المغامرة ورؤية بلاد واصقاع جديدة ، والاشتراك فى حروب يبرزون فيها ماتعلموه من فنون القتال • وكانت النتيجة المباشرة ان قتل عدد كبير من النبلاء وكبار رجال الاقطاع والفرسان • وترتب على ذلك عودة اقطاعياتهم الى سيدهم الاعلى الذى كان قد اقطعها لهم من الناحية النظرية • فانكمشت وتضاءلت اقطاعيات النبلاء ، فى الوقت الذى اتسعت فيه دائرة الاقطاعيات الملكية•

ثم ان الحروب الصليبية كانت فرصة ذهبية اغتنمها الفلاحون والاقنان الذين كانوا يعملون فى اراضى السادة الاقطاعيين ، فبادروا بالانخراط فى سلك هذه الحروب التى وجدوا فيها منفذا محققا للتحرر والخلاص من عبودية الاقطاع وقيوده والتزاماته التى اثقلت كواهلهم • وكانت النتيجة الطبيعية ان قلت الايدى العاملة فى الغرب التى كانت تعمل فى الارض لحساب كبار رجال الاقطاع ، وتحللت بالتالى تلك الرابطة القوية التى كانت تربط بين المسود التابع والسيد المتبوع والتى كانت الارض قوامها • وهكذا تزامن زوال الاقطاع بحضارته الزراعية مع ظهور المدينة بسكانها الاحرار وحضارتها المدنية •

هذا عن الاثر غير المباشر للحروب الصليبية التى احتك فيها الصليب بالهلال ، والذى يتمثل فى القضاء على عصر الاقطاع والفروسية الاقطاعية فى الغرب ، وتهيئة الجو لظهور عصر جديد وحضارة جديدة مغايرة كان للمسلمين وحضارتهم الفضل فيها • وهنا يجب الا ننسى الاتصالات الثقافية والحضارية بين طرفى الصراع • فمن الناحية اللغوية انسابت كثير من الكلمات والمصطلحات العربية فى اللغات الاوروبية • وبكلمة أخرى ، تضمنت القواميس الاوروبية مئات الكلمات ذات اصول وجذور عربية •

كذلك اثرت الحركة الصليبية فى تطور فن الحرب والقتال عند

الاوروبيين فيما يتعلق ببناء القلاع والحصون ، وعمليـات الحصار ، واستخدام المجانيق والكباش ، وكذلك استخدام الدروع للفرسـان وخيولهم ، وارسال الرسائل الحربية عن طريق الحمام الزاجل • كما كان لنمو التبادل التجارى بين الشرق والغرب ، اثره فى احوال اوروبا مـن النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية • ونتيجـة لذلك وجدت المؤثرات العربية الاسلامية طريقها فى الحياة الاوروبية العامة • فانتقلت بعض النباتات والاشجار من شرق حوض البحر المتوسط الى غربه ، مثل السمسم والارز والليمون والبطيـخ • وانتشرت كثير مـن العقاقير والاصباغ والتوابل الشرقية فى الغرب • وانتقلت اليه ، ايضا ، بعض العادات والتقاليد والنظم الاسلامية • ونجد العديد من الامثلـة فى « كتاب الاعتبار » لمؤلفه اسامة بن منقذ •

وجدير بالذكر ان المعابر التى ذكرناها كانت أهم الطرق التى انتقلت عبرها الحضارة العربية الاسلامية الى العالم الاوروبى المسيحى • وكانت هناك وسائل أخرى عديدة عن طريقها نقلت معارف المسلمين وعلومهم الى اوروبا ، من بينها الرحلات التى قام بها بعض علماء الغرب ومفكريهم، حيث طافوا بلاد العالم الاسلامى طلبا للعلم والمعرفة بعـد فترة طويلة من الكبت والحرمان فرضتها عليهم الكنيسة اللاتينية •وقد ترك هذا آثارا واضحة على العقلية الاوروبية والفكر الاوروبى •

ولكن الافادة الكاملة من خلاصة الفكر العربى الاسلامى ، تمت عن طريق حركة ترجمة واسعة قامت على اكتاف فريق من المستعربين الذين نقلوا المئات من المؤلفات العربية أو المعربة عن اليونانية القديمـة الى اللاتينية •

ومن الثابت ان نهضة القرن الثانى عشر فى اوروبا المعروفة بالنهضة العلمية الاولى ، ارتبطت الى حـد بعيد بحركة الترجمـة الواسعة عن العربية • فقد ترجم العرب الكثير مـن التراث اليونانى القديـم الى

العربية ، وبذلك حفظوه لنا من الضياع • وكان لهـذا اهميته بالنسبة للغرب الذى لم يعثر على ذلك التراث الا فى تلك التراجم وعليها تعليقات العرب • وقد انتعشت هـذه الحركة وازدهـرت فى العصرين الاموى والعباسى ، وادت الى نهضة القرن الثانى عشر فى الغرب ، فى وقت بدأ فيه الغرب ينتقل من مفاهيم العصر الوسيط المبكر الى اوضاع جديدة • وساعد على ذلك نمو المدن ، وانتعاش التجارة ، وظهور القوميات ، وتطور النظم الدستورية وبخاصة فى انجلترا ، والذى كان خطوة هامة فى سبيل هدم الاسس التى قام عليها العصر الوسيط المبكر فى الحكم والسيادة • كما ساعد على هذا التغير نشأة الجامعات التى تخرج من بين جدرانهـا الشباب المثقف المستنير ، مما أدى الى تنوير اذهان الناس وزيادة عدد المثقفين • وكذلك الكشوف الجغرافية ، والاستكشافات العلمية ، واختراع الطباعة والورق ونشر الكتب ، وظهور حركـات الاصلاح الدينى التى اخذت تنادى باصلاح الجهاز الكنسى البابوى من العيوب التى استشرت فيه • ولذلك لم يكن امام الغرب سوى نقل هذا الكم الهائل من المعارف والعلوم من العربية الى اللاتينية •

والخلاصة ان اوروبا اعتبارا من اخريات القرن الحـادى عشر فصاعدا شاهدت العديد من الانتفاضات والاحداث والانقلابات الخطيرة التى شملت كل الميادين والمجالات ، فى عالم قلق متغير غير مستقر •وقد حدث هذا فى نفس الوقت الذى وصلت فيه المعارف والعلوم العربية ، وكذلك اليونانية القديمة المنقولة الى العربية ، الى اوروبـا عبر مراكز الاشعاع الثقافى المعروفة ، فـأدت الى هذه الانطلاقة الجبـارة التى شهدتها اوروبا فى شتى أفرع المعرفة الانسانية ، الأمر الذى ادى بهـا الى نهضة القرن الثانى عشر التى مهدت لعصر النهضة الذى مهد بدوره للعصر الحديث ومدنيته العملاقة الزاهرة •

بعض الميادين التى اثرت فيها الحضارة العربية الاسلامية على المدينة الاوروبية فى العصور الوسطى

يبدو اثر الحضارة العربية الاسلامية عـلى المدنية الاوروبية فى ميادين عديدة ، شملت مختلف افرع المعرفـة الانسانية ، فى العـلوم والآداب والفنون •وفيما يلى بعضها نستعرضها كنماذج فقط وليس على سبيل الحصر • فهذا موضوع آخر ظهرت فيه عشرات المؤلفات باللغـة العربية واللغات الاوروبية الحديثة •

أ ـ الادب :

تأثرت الآداب الاوروبية بموضوعات الادب العـربى فى الشعر والنثر ، والتى تميزت بالخصوبة والابداع ، فى وقت اجدبت فيه الآداب الاوروبية بسبب الظروف السيئة التى مر بها العالم الاوروبى فى مرحلة الانتقال من التاريخ القديم الى العصر الوسيط وخلال القرون الاولى من ذلك العصر • وجدير بالذكر فى هذا المجال ان العرب افادوا كثيرا مـن الادب اليونانى القديم ، بالرغم من عدم تقبلهم لصيغه واشكاله حسبما اسلفنا • وقام تراجمة من المسيحيـين واليهود بنقل هـذا الادب من اليونانية القديمة الى السريانية فالعربية •

ففيما يتعلق بالشعر ، يلاحظ ان اشعار التروبادور التى ظهرت فى بروفانس بجنوب فرنسا فى اواخر القرن الحادى عشر الميلادى (اواخر القرن الخامس الهجرى) مأخوذة من الشـعر العربى الاندلسى الذى عرف بالغزل الرقيق والرثاء الباكى والعفة وقوة الخيـال ، الى جانب اهتمامه بالوزن والقافية والصقل • ونجد مثلا لذلك فى وليم التاسع دوق اقطانيا ، وهو أول شعراء التروبادور ، وأول من قلد الازجال العربية • وكان يعرف العربية ، واستخدم بعض الفاظها فى اشعاره ، وتردد على الاندلس وغيرها من البلاد الاسلامية • ويكفى ان كلمة « تروبادور »

اصلها لفظة عربية هى « دور طرب » ، ثم قدمت الصفة على الموصوف فأصبحت « طرب دور » ، وحرفت الى « تروبادور » •

لقد كان هذا العصر هو عصر فروسية الحب والحرب • واعتنق العرب فى اسبانيا هذه المثل العليا وتفوقوا فيها على الاوروبيين • وكانت حضارتهم ارقى واسمى من حضارة الشعراء المتجولين فى جنوب فرنسا • ويقول المؤرخ جورج جوردون كولتون ان العرب المغاربة اعطوا المجتمع الاسبانى أكثر مما اخذوا منه فى هذه الناحية ، وذلك بدافع من التفاخر بالنسب والشجاعة ، وبدافع من موسيقى الحب والحرب ، وبدافع من احترام المرأة وتقديرها •

أما عن النثر ، فقد قلد الغربيون القصص العربى فى ميادين المغامرات والحب والفروسية • ونجد مثالا حيا فى اعمال الكاتبين بوكاشيو وتشوسر • فقد تأثر الاول فى كتابه « الايام العشرة » ، والثانى فى كتابه « قصص كانتربرى » بقصص « الف ليلة وليلة » • واثر قصة الاسراء والمعراج فى « الكوميديا الالهية » للشاعر الفلورنسى دانتى اليجييرى عندما وصف العالم الآخر ، لايحتاج الى دليل • كذلك تأثر النثر الاوروبى بالنثر العربى فى ناحية القصص الخرافية ذات المغزى الاخلاقى • لقد تركت قصص « الف ليلة وليلة » بصماتها الواضحة على الادب الاوروبى الوسيط • وان دل هذا على شىء ، فانما يدل على صدى الثقافة العربية الاسلامية فى الفكر الاوروبى المسيحى •

وفوق هذا وذاك ، فقد اقتبست اللغات الاوروبية ، وبخاصة الاسبانية ، الكثير من الامثال والحكم العربية ذات الدلالات العميقة • كما ان اللغات الاوروبية الحديثة المعروفة بالرومانتيكية ، والمنبثقة عن اللغة اللاتينية فيها الكثير من الالفاظ العربية الدخيلة • وقد حصر دوزى فى معجمه الالفاظ العربية فى اللغتين الاسبانية والبرتغالية ، وهى غير قليلة • ومما يدل على اهتمام اوروبا فى اواخر العصور الوسطى باللغة

العربية وما يتصل بها من دراسات ، انه ادخل دراستها فى بعض الجامعات الاوروبية الناشئة منذ القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) •

وللمزيد من التفاصيل والايضاح فيما يتعلق بتأثر الادب الاوروبى بالأدب العربى يمكن الرجوع الى مؤلف الدكتور سعيد عاشور عن المدنية الاسلامية واثرها فى الحضارة الاوروبية •

ب — الجغرافية والرحلات :

كانت معلومات الاوروبيين ضحلة فى تلك النواحى فى العصور الوسطى المبكرة • وبالنسبة لعالم البحار ، يقول كولتون انهم — فيما عدا الدول البحرية — قلما غامروا بالابحار بعيدا عن الارض بما يجاوز مدى البصر ، وان البوصلة لم تعرف طريقها الى اوروبا حتى اواسط القرن الثانى عشر الميلادى ، وكان استخدامها فى الملاحة البحرية حتى ذلك الحين يتقدم ببطىء شديد • وحتى نعرف الى أى حد كانت معلوماتهم قليلة بل وممسوخة فىنواحى الجغرافية والرحلات والتجارة الواسعة ، نقول انهم كانوا يعتقدون ان نصف الكرة الجنوبى بحر كله فيما عدا جبلا واحدا فى الوسط ، حيث كانت الجنة الارضية فى مواجهة بيت المقدس فى نصف الكرة الآخر الذى يعيشون فيه • ولكى نعرف ، ايضا ، الى اى حد ظلت الارض والبحر مجهولا امرهما ، واية امور مشوهة كانوا يصدقونها عن هذه الاصقاع الغامضة فى نظرهم ، يجب علينا ان نمعن النظر فى رحلات سير جون موندفيل التى يقول فيها ان البراكين هى افواه جهنم ، وان خرائب بابل والاهرام تعج بالتنانين والثعابين والحشرات السامة ، وانه يوجد فى بعض الارجاء مردة عمالقة • ويكرر الحديث عن اكلة لحوم البشر ، وعن وحوش الاعماق فى البحار ، مما يكشف عن جهل تام بتلك الامور •

وفى نفس هذا الوقت وجه المسلمون اهتماما بالغا لعلم الجغرافية ، وبرعوا فيه ، وخلفوا فيه مؤلفات لاتزال تدرس حتى الآن ، ولا يزال الباحثون وطلاب العلم يرجعون اليها وينهلون منها • وساعد على ذلك اتساع الدولة العربية الاسلامية ، وامتداد حدودها شرقا وغربا ، فضلا عن حب المسلمين للتنقل والترحال فى سبيل التجارة وطلب العلم • لذا جابوا بلاد العالم المعروفة وقتها طولا وعرضا ، ابتداء بشرق آسيا وحتى مجاهل افريقية • كما اقاموا علاقات تجارية مع العديد من البلدان التى لم يسمع الاوروبيون بها فى العصور الوسطى • وقد قام الاوروبيون بنقل كثير من مؤلفات العرب الجغرافية الى اللغة اللاتينية فى العصر الوسيط • يضاف الى ذلك ، ان اوروبا تدين للعرب بحفظ معلومات اليونانيين القدامى الجغرافية عن طريق الترجمات العربية لها فى اواخر العصر الوسيط • وكما قلنا من قبل ، اذا كان العرب قد اعتمدوا فى البداية على معلومات اليونانيين القدماء ، الا انهم سرعان ما بزوا اساتذتهم ، وصححوا الكثير من الاخطاء التى وقع فيها جغرافيو اليونان، واضافوا اليها الكثير من تجاربهم •

وسوف نحتاج الى مجلدات لو تحدثنا عن كل واحد من كتاب المسالك والممالك العرب ، وعن كل واحد من الرحالة والجغرافيين العرب• فما أكثرهم ، وما اغنى المادة الجغرافية التى زودونا بها • فمن كتاب المسالك نذكر اقدمهم وهو اليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) • ويأتى بعده فى القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) الاصطخرى ، والمقدسى ، والمهلبى ، وابن خرداذبة • ومن جغرافيى القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى) الادريسى • ومن القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) القزوينى ، وياقوت الرومى الحموى • ومن القرن الثامن الهجرى (القرن الرابع عشر الميلادى) ابو الفدا ، والعمرى • ومن القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) ابن شاهين • ومن اشهر الرحالة المسلمين ابن منقذ ، وابن جبير ، وابن بطوطة •

لقد اسهم كل واحد من هؤلاء بسهم وافر فى بناء علم الجغرافية ، وزيادة حصيلتنا عن المعلومات الجغرافية القائمة على المشاهدة والمعاينة . وظلت كتبهم اساسا لدراسة علم الجغرافية فى اوروبا لقرون عديدة . كما ترجم بعضها الى اللاتينية ، مثل كتاب الادريسى المعنون « نزهة المشتاق فى ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » . ويعتبر الادريسى ، ايضا ، أول من زودنا ببيان حقيقى لمنابع النيل ، وأول من أوضح المعالم الاساسية للكرة الأرضية على كرة من الفضة . كذلك تمسك الجغرافيون العرب بفكرة كروية الارض ، مثـل ابن خرداذبة ، وابن رسته المعاصر له ، والمسعودى . ويقال ان العرب هم أول من اكتشف العالم الجديد قبل كويستوفر كولمبس بوقت طويل ، وان كولمبس اطلع على كتبهم قبل قيامه برحلته المشهورة التى أدت الى اكتشاف امريكا .

كذلك عرف العرب البوصلة قبل الغرب ، وعنهم اخذها الاوروبيون . ويكفى ان البوصلة احتفظت باسمها العربى فى كثير من اللغات الاوروبية، مثل الايطالية والفرنسية . وترتب عـلى ذلك ارتياد العرب للبحـار ، وقيامهم بنشاط تجارى واسع ، افادت منه اوروبا فائدة كبرى . وكانت النتيجة ان انتقلت كثير من المصطلحات التجارية والبحرية الاسلامية الى مختلف اللغات الاوروبية بنطقها العربى . ونضرب مثلا لذلك بمصطلحات مثل بازار ، ودينار ، وتعريفة ، وديوان . هذا من بعضـ المصطلحات التجارية الاسلامية التى انتقلت الى اللغات الاوربية . ومن المصطلحات البحرية نذكر لفظة ادميرال من امير البحر .

وخلاصة القول ان العرب تمكنوا من ارتياد البحـار والمحيطات بمقدرة ومهارة ، حتى ملكوا زمام التجارة بين الشرق والغرب . ويقول هنرى بيرين ان البحر المتوسط الذى كان حلقة الوصل بين شقى العالم ، والذى كان حتى قبيل الاسلام بحرا رومانيا خالصا ، اصبح بعد حركـة الفتح وقيام الدولة العربية الاسلامية بحـرا اسلاميا. اما آدم ميتز

فيقول فى مؤلفه « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، ان تجارة المسلمين خلال ذلك القرن احتلت المكان الاول فى التجارة العالمية •

جـ — نظـم التعليم والجامعـات :

كان تدريس اللغة العربية موضع الاهتمام فى الجامعات الاوروبية فى العصور الوسطى ، وذلك باعتبارها لغة العلم والمعرفة • وكان نفوذ العرب فى جامعتى سالرنو وبادوا فى ايطالياو جامعة باريس فى فرنسا ملموسا • واصبح للدراسات العربية الاسلامية فيها شأن كبير • ويجب الا ننسى ان العالم العربى الاسلامى كان على معرفة بالجامعات ونظمها قبل الغرب الاوروبى بمئات مـن السنين • ولدينا مثـال فى الجامعة الازهرية فى القاهرة التى انشئت فى القرن العاشر الميـلادى (القرن الرابع الهجرى) ، والمدارس النظامية فى بغداد التى اسست فى القرن الحادى عشر الميلادى (القرن الخامس الهجرى) ، والمدرسة المستنصرية فى بغداد التى يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر الميـلادى (القرن السابع الهجرى) • ولقد تميزت تلك المؤسسات التعليميـة الاسلامية بفخامة المبانى ، واتساع الاروقة ، وثراء مكتباتهـا بالكتب فى مختلف افرع المعرفة الانسانية ، مع تهيئة وسائل الراحة بالنسبـة للاساتذة والطلاب • هذا ، فضلا عن وجود أوجه شبه عديدة بين النظـم التى اتبعت فى الجامعات الاسلامية التى انشئت خلال القرنين العاشر والحادى عشر للميلاد ، وبين تلك التى اتبعت فى الجامعات الاوروبية التى نشأت بعدها خلال القرنين الثانى عشـر والثالث عشر للميلاد • ونجـد هذا التشابه فى المواد التى كانت تدرس ، وفى طبيعة الدراسة ، وفى العلاقة بين الاستاذ والطالب ، وفى مختلف نواحى النشاط فى الحياة الجامعية • وكذلك بالنسبة للهبات المالية ، ونظام المعيدين ، والجرى وراء الاستاذ صاحب الشهرة العلمية المرموقة ، واجازة التدريس • وان دل هذا على شىء ، فانما يدل على مدى افادة الغرب من انظمة الجامعات الاسلامية، ومن لوائحها وقوانينها •

هذه كلمة سريعة عن بعض مآثر المدنية الاسلاميــة على الغرب والحضارة الغربية فى العصور الوسطى ، تبين مدى ما افاده الغربيون من هذا التراث الحضارى الهائل ، كما ونوعا ، فى شتى افرع المعرفة والعلم • وقد اقتصرنا على بعض جوانب هذا التراث ، مثــل الادب والجغرافية والرحلات والتجارة والعلم والتعليم ، كنماذج حية عــلى سبيل المثال لا الحصر • ويطول بنا الحديث لو تتبعنا افضال العرب على الغرب فى كافة الميادين • فهناك الفلسفة ، واللاهوت ، والرياضيات ، والفلك ، والفيزياء ، والكيمياء ، والطب ،و الصيدلة • وهناك ، ايضا ، الموسيقى ، والفنون ، والعمارة • وهناك فن التدوين التاريخى ، وآداب الحياة والسلوك ، والمعنويات ، وغيرها • كــل هذا برز فيــه العرب ، وتفوقوا فيه على الغربيين باعتراف كثير من المؤرخين الغربيين الحديثين ، وفى مقدمتهم الكاتب المعروف ول ديورانت •

المراجـــع

أولا ــ مراجع عربيـــة

أحمد امين : ضحى الاسلام ، ٣ جـ ، القاهرة ١٩٤٣ ٠

احمد امين : ظهر الاسلام ، ٤ جـ ، القاهرة ١٩٥٣ ٠

جوزيف نسيم يوسف : نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، ط ٣ ، اسكندرية ١٩٨٤ ٠

زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٤٨ ٠

سعيد عبد الفتاح عاشور : المدنية الاسلاميـــة واثرها فى الحضـــارة الاوربية ، القاهرة ١٩٦٣ ٠

سعيد عبد الفتاح عاشور : الجامعات الاوربيـــة فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ٠

سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد انيس : النهضات الاوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٠ ٠

عباس محمود العقاد : اثر العرب فى الحضارة الاوربية ، ط ٤ ، القاهرة ١٩٦٥ ٠

قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب ، القاهرة ١٩٦٠ ٠

ثانيا ــ مراجـــع معربـــة

أرنولد (ت) وجيوم (أ) : تراث الاسلام ، ٢ جـ ، القاهرة ١٩٣٦ ٠

بروفنسال (ل) : الشعر العربى فى الاندلس واثره فى الشعر الاوروبى فى العصر الوسيط ، سلسلة محاضرات القاهـــا فى جامعة الاسكندرية ونشرت فى مجلة الكتاب ، القاهرة مايو ١٩٤٧٠

جرونيباوم (ج • فون) : حضارة الاسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، راجعه عبد الحميد العبادى ، القاهرة ١٩٥٦ •

ساليفان (ر•أ•) : ورثة الامبراطورية الرومانية : الغرب الجرمانى — العالم الاسلامى — الدولة البيزنطية ، ترجمـــة وتقديم جوزيف نسيم يوسف ، ط اولى ، اسكندرية ١٩٨٥ •

كولتون (ج•ج•) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، ط ٤ ، اسكندرية ١٩٨٣ •

لوبون (ج•) : حضارة العرب ، نقله الى العربية محمد عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٤٥ •

لويس (ب•) : العرب فى التاريخ ، تعريب نبيه أمـــين فارس ومحمود يوسف زايد ، بيروت ١٩٤٥ •

هارتمان (ل•م•) وباراكلاف (ج•) : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، ط ٤ ، اسكندرية ١٩٨٤ •

يعقوب (ج•) : اثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى ، ترجمه بتصرف فؤاد حسنين على ، القاهرة ١٩٤٦ •

ثالثاً ـ مراجع اجنبية

Arnold, T.W., The Preaching of Islam, London, 1935.

Arnold, T. and Guillaume, A., (eds.), The Legacy of Islam, Oxford, 1952.

Atiya, A.S.,

1 The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.

2 Crusade, Commerce and Culture, Bloomington, 1962.

وللكتاب الثانى ترجمة باللغة العربية تحت عنوان :

عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب : تجارية ــ ثقافية ــ صليبية ، ترجمة فيليب صابر سيف ، مراجعة احمد خاكى، القاهرة ١٩٧٢ •

Bloch, M., Feudal Society, trans. from the French by L.A. Manyon, 2 vols., London, 1967.

Brinton, C. and Others, A History of Civilization, 2 vols., New Jersey, 1967.

Gabrieli, F., Les Arabes, traduit de l'Italien par M. de Wasmer, Paris, 1963.

Gibb, H., Mohammedanism, London, 1957.

Grousset, R., Histoire des Croisades, 3 vols., Paris, 1948.

Ker, W.P., The Dark Ages, London, 1955.

Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médiéval, Paris, 1965.

Mahmud, S.F., The Story of Islam, London, 1959.

Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe, trans. from 'the French by I.E. Clegg, London, 1961.

Rosenthal, E.I.J., Political Thought in Medieval Islam, Cambridge, 1958.

Runciman, S., A History of the Crusades, 3 vols., Cambridge, 1951 - 1955.

Stevenson, W., The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.

الموضوع الثالث

دراسة فى تاريـــخ الحركة الصليبية

مصادرها ، وعوامــل قيامها

أولا — أهم مجموعات الحركة الصليبية ومصادرها :

أ — أهم المجموعات المتضمنة المصادر الاصلية للحركة الصليبية ٠

ب — المصادر الاجنبية والملاحظات عليها ٠

جـ — المصادر العربية والملاحظات عليها ٠

ثانيا — عوامل قيام الحركة الصليبية :

أ — الاحوال السائدة فى الشرق والغرب حتى قيــام الحركة الصليبية ٠

ب — نظرة الغرب الى الشرق ، والاتصال الروحى بينهما ٠

جـ — تطور فكرة الحج من الغرب الأوروبى الى الأراضى المقدسة منذ فجر المسيحية حتى قيام الحركة الصليبية ٠

د — تطور فكرة الحرب المقدسة فى الغرب الأوروبى منذ فجــر المسيحية حتى قيام الحركة الصليبية ٠

هـ — ضعف الدولة البيزنطيــة ، وتقــدم الاتراك السلاجقة فى أراضيها ٠

و — الأحوال السياسية والاقتصادية والدينية فى الغرب قبيــل قيام الحركة الصليبية ٠

ز — العامل الدينى وأثره فى قيام الحركة الصليبية ٠

مراجع عن الحروب الصليبية



اثبتت احدث البحوث التاريخية ، كما اثبت الواقع والتاريخ ، ان الحروب الصليبية هى حروب جامعة قام بها الغرب الاوروبى من اقصاه الى اقصاه ضد العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب، تحت رداء الدين ، استجابة لنداء البابوية فى روما ، وتحت اشرافها ، وبتوجيه منها ، بقصد الاستيلاء على الاراضى المقدسة وتأسيس مملكة بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المملكة ، وتوسيع حدودها ، والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل ، لتكون نقطة ارتكاز لهم ينقضون منها على العالم العربى الاسلامى من المحيط الى الخليج •

واذا امعنا النظر فى هذه الحروب ، سوف نجد أنها تمثل دورا من ادوار الصراع المرير بين العالمين الاوروبى المسيحى والعربى الاسلامى الذى امتد من القرن السابع حتى القرن السادس عشر الميلادى (من القرن الاول حتى القرن العاشر الهجرى) • وهى تمثل ، فى نفس الوقت، حلقة من حلقات الصراع الممتد بين شقى العالم منذ القدم وحتى اليوم • وقد شغلت ثلاثة قرون من الزمان ، هى القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية)• وعرفت حروب القرنين الثانى عشر والثالث عشر بالحروب الصليبية المبكرة ، تمييزا لها عن حروب القرن الرابع عشر التى عرفت بالحروب الصليبية المتأخرة •ومن الواضح ان الصراع بين المسيحية والاسلام منذ بدايات القرن السابع وحتى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد (من القرن الاول حتى اواخر القرن الخامس الهجرى) قد مهدت للحروب الصليبية نفسها ، وادت فى نهاية الأمر الى قيامها • ومن الواضح ، أيضا، ان الصراع بين المسيحية والاسلام اعتبارا من القرن الخامس عشر فصاعدا (اعتبارا من القرن التاسع الهجرىفصاعدا)يعتبر نتيجة للحروب الصليبية وخاتمة طبيعية لها باعتباره أثرا من آثارها •

أولا — أهم مجموعات الحركة الصليبية ومصادرها

غنى عن القول ان الهدف من هذا العرض المركز ليس تناول منابع الحركة الصليبية واصولها بالدراسة التحليلية النقدية المقارنة • فهذا أمر يطول شرحه ويحتاج الى مجلدات • ثم انه ظهرت فيه دراسات هامة قيمة يمكن للمتخصص الرجوع اليها والافادة منها • واخص بالذكر الدراسة التى مهد بها كلود كاهن لكتابه المعنون « شمال الشام فى عصر الحروب الصليبية » ، والدراسة التى مهد بها كل من رينيه جروسيه وستيفن رانسيمان لكتابيهما عن الحروب الصليبية • وفى المكتبة العربية دراسات جادة عن منابع الحروب الصليبية ، اذكر من بينها الدراسة التى مهد بها الدكتور محمود سعيد عمران لمؤلفه عن الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، وتلك التى قدم بها السيد محمد عبد العزيز عزيز لرسالته لدرجة الماجستير عن حملة الامبراطور فريدريك الثانى الصليبية على بلاد الشام المعروفة بالحملة السادسة ، والدراسات التى مهدت بها لثلاثة من كتبى هى : « العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى » ، و « العدوان الصليبى على مصر » ، و « العدوان الصليبى على بلاد الشام » •

وسوف يقتصر حديثنا على أهم المجموعات المتضمنة المصادر الاصلية للحركة الصليبية ، من عربية وغير عربية ، والملاحظات العامة على تلك المصادر •

أ — أهم المجموعات المتضمنة المصادر الاصلية للحركة الصليبية :

لعل اهم هذه المجموعات هى مجموعة كل من بونجارز ، وبوكيه ، وميشو ، ورينوه ، بالاضافة الى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ، وارشيف الشرق اللاتينى ، وعدد من الدوريات المتخصصة مثل دورية الشرق اللاتينى ، ودورية الشرق المسيحى ، وفيما يلى بيان بها •

Bongars, J. (ed.), Gesta Dei per Francos, sive orientalium e peditionum et regni Francorum hierosolimitani historia (ab a. 1095 ad 1420) a varis, sed illius aevi scriptovribus, litteris, 2t., Hanover, 1612.

Bouquet, M. (ed.) Recueil des Historiens des Gaules et de la France, 24 vols., Paris, 1738 - 1904.

Michaud, J. (ed.), Bibliothèque des Croisades, 4 vols., Paris, 1829 :
I. Chroniques de France;
II. Id. et Chroniques d'Italie et d'Angleterre;
III. Chroniques d'Allemagne, des Pays du nord, grecques, turques;

IV. Chroniques arabes.

Reinaud, M., (ed.), Extraits des historiens arabes relatifs aux guerres des Croisades, Paris, 1829.

Recueil des Historiens des Croisades, publié par les soins de l'Académie des Inscriptions et Belles - Lettres, 16 vols., Paris, 1841 - 1906 :

I. Historiens Occidentaux, 5t. (1844 - 1895);
II. Historiens Orientaux (Arabes), 5t, (1872 - 1906) ;
III. Historiens Grecs, 2t. (1875 - 1881);
IV. Documents Armeniens, 2t. (1969 - 1906);
V. Lois, 2t. (1841 - 1843).

Les Archives de l'Orient Latin, publiées par la Société de l'Orient Latin, 2 vols., Paris, 1881 et 1887. (Textes, inventaires, et études originales).

Palestine Pilgrims' Text Society, 13 vols. and general Index, London, 1887 - 1897.

Revue de l'Orient Latin, publiée sous la direction de MM. Le Marquls de Vogué et Ch. Schefer, Paris, 1893 - 1911.

Revue de l'Orient Chrétien, dirigée par R. Graffin et F. Nau, Paris, 1906 - 1924.

ب ـ المصادر الاجنبيـة والملاحظات عليهـا :

تطور فن التدوين التاريخى فى الغرب اعتبارا من القـرن الثانى عشر بحيث لم يعد الكاتب أو المؤرخ يعتمد على طريقة السرد الحولى فحسب ، بل وجد من كتبوا فى مواضيع متخصصة قائمة بذاتها . وقد زامن هذا قيام الحروب الصليبية . اذ وجد فرسان ومقاتلون شاركوا فى هذه الحروب وسجلوا احداثها فى مؤلفات لها وزنها لاتزال موجودة حتى اليوم يستمد منها المعنيون بتاريخ هذه الحروب معلوماتهم عنها . ولاشك أن تلك المصادر التى كان اصحابها شهود عيان لتلك الحروب التى شاركوا فيها بنصيب ملحوظ ، مايجعلها تحمل فى طياتهـا صفة الوثائق الرسمية .

مـن هـؤلاء فوشـيه دى شـارتر Foucher de Chartres ، والبرت دكس Albert d'Aix ، وريموند داجيل Remond d'Agiles ، والمؤرخ المجهول من مؤرخى الحملة الصليبية الاولى ، وروبرت كلارى Robert Clari ، وفيلهـاردوان Villehardouin مـن مؤرخى الحمـلة الرابعـة ، وجـاك دى فيترى Jacques de Vitry من كتاب الحملة الخامسة ، وجـان دى جوانفيـل Jean de Joinville مؤرخ سيرة الملك الفرنسى لويس التاسع وتاريـخ حملته عـلى مصر والشام ، وهكذا . والى جانب هـؤلاء يوجد عدد كبـير من المؤرخين الغربيين الذين عاصروا الحروب الصليبية ، ولكنهم لم يشتركوا فيها . ومع ذلك تركوا لنامؤلفات على جانب كبير من الاهمية ، تناولت فيمـا تناولته اخبـار الحركة الصليبية ، مثـل متى الباريسى صاحب كتاب « تاريخ انجلترا » ، وويجـلر Wiegler صاحب كتـاب « الامبراطور المهرطـق » والمقصود بذلك فريدريك الثانى ، ومتى اوف وستمنستر Matthew of Westminster صاحب كتاب « ازاهير التاريخ » ، وهم من كبار كتاب القرن الثالث عشر الميلادى .

وثمة عدة ملاحظات تتعلق بالاصول الاجنبية المعاصرة للحركة الصليبية هى :

١ ـ المصادر الغربية مدونة اصلا اما باللغة اللاتينية أو الفرنسية القديمة او الايطالية القديمة • وقد نشر معظمها نشرا علميا محققا وترجم الى اللغات الاوروبية الحديثة ، ونقل بعضها الى اللغة العربية ، وقليل منها لايزال بلغته الأصلية التى كتب بها •

٢ ـ هدف الجانب الاكبر من المؤرخين الغربيين القدامى المعنيين بالحركة الصليبية ، هو عرض الحملات الصليبية التى عاصروها أو اسهموا فيها بنصيب • الا اننا نأخذ عليهم اهتمامهم الزائد بتمجيد الملوك والاباطرة الذين قادوا تلك الحملات أكثر من الاهتمام بتفاصيل الحملات نفسها • وقد يكون لهم فى ذلك عذرهم • فطبيعة العصر ، وظروفه الاقتصادية والاجتماعية حيث ساد الاقطاع والنظام الطبقى ، لم تكن تسمح الا بذلك • وهذه الظاهرة واضحة فى معظم حوليات ومصادر العصر • مثال ذلك كتاب جوانفيل عن سيرة لويس التاسع •

٣ ـ يلاحظ أن بعض الكتاب الغربيين الذين عاصروا احداث هذه الفترة من الزمن ، لم يتحروا الدقة فى بعض التفاصيل التى كانوا يروونها • ومعظم هؤلاء لم يكونوا شهود عيان لاحداث الحملات الصليبية ، بل كانوا يدونون ما يصل الى الغرب عن طريق الخطابات واحاديث الرواة والحجاج والمقاتلين العائدين من الشرق ، دون التحقق من صحته أو زيفه • وكثيرا ماتكون هذه الاخبار غير صادقة أو مبالغا فيها • ولذلك يجب تقبل مثل هذه الروايات بشىء من التحفظ والحذر ، ومقارنتها بغيرها من الاصول للوصول الى اسلم النتائج واصوبها بعيدا عن أى زيف أو افتعال • من ذلك ، على سبيل المثال ، رواية متى انباريسى فى كتابه « تاريخ انجلترا » تحت احداث سنة ١٢٥٠ م ، من

استيلاء الفرنج فى الحملة الصليبية السابعة على مدينة القاهرة مما لا يتفق والحقيقة التاريخية •

٤ — جدير بالتسجيل عند استعراض الاصول اللاتينية والفرنسية القديمة والايطالية القديمة المعاصرة للحركة الصليبية ، ان المؤرخين والكتاب الغربيين كانوا — بصفة عامة — على المام لا بأس به بأحوال كل من العالم الاسلامى والدولة البيزنطية ابان تلك الفترة من الزمن • وقد اشاروا الى ذلك فى رسائلهم وكتبهم وحولياتهم بالقدر الذى يعنيهم • وان رواياتهم فى هذا الصدد تعطينا فكرة لا بأس بها عن ظروف العالم الاسلامى وبيزنطة من وجهة النظر الغربية • آية ذلك الرسالة التى بعث بها الملك الفرنسى لويس التاسع من عكا فى اغسطس ١٢٥٠ م الى الغرب يشرح فيها اسباب بقائه فى الشرق الادنى بعد هزيمته فى مصر • ويلقى الضوء على الخلاف السياسى بين المماليك فى مصر وبنى ايوب فى الشام ، والخلاف المذهبى بين السنيين والشيعة فى المشرق الاسلامى ، مبينا كيف ان هذه الخلافات قد أنعشت آماله ، وسعى لاستغلالها لصالح القضية الصليبية • بل لقد انفرد بعض هؤلاء المؤرخين بذكر وقائع واحداث اغفلتها الاصول العربية والبيزنطية أو على احسن الفروض مرت عليها مرورا سريعا • من ذلك ، على سبيل المثال ، رواية جوانفيل عن مقتل المعظم توران شاه آخر ملوك بنى ايوب بمصر ، وبداية دولة المماليك البحرية ، وقد كان شاهد عيان لواقعة مقتله • وان مارواه فى هذا الشأن لايقل ان لم يزد عما جاء فى المصادر العربية المعاصرة مثل تآليف ابن واصل ، وابن الجوزى ، وابى شامة •

٥ — تتعلق الملاحظة الاخيرة بتطور فن الكتابة التاريخية فى الغرب اعتبارا من القرن الثانى عشر الميلادى • فالى جانب نظام الحوليات المعروف ، بدأ الكتاب يكتبون فى مواضيع متخصصة قائمة بذاتها حسبما اسلفنا • وقد ظهر هذا بوضوح فى المؤلفات التى تركها

لك أولئك الذين عاصروا الحروب الصليبية وشاهدوا احداثها ، بعكس الحال فى الشرق ، اذ واصل المؤرخون الكتابة على غرار نظام الحوليات ساردين الاحداث سنة بعد أخرى • وتأتى اخبار الحروب الصليبية فى ثنايا هذا السرد الحولى • ولهذا السبب فقدت فى اغلب الاحيان الرابطة الموضوعية والدقائق والتفاصيل المطلوبة •

جـ ـ المصادر العربية والملاحظات عليها :

هذا عن المصادر الاجنبية ، اما المصادر العربية المعاصرة للحركة الصليبية فتعتبر ـ هى الاخرى ـ رئيسية بالنسبة للمتصدى لتاريخ هذه الحركة • ففيها مادة ممتازة من الدرجة الاولى فيما يتعلق بأحوال العالم الاسلامى واوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، والعلاقات القائمة بين دولة وبلدانه ، وتفاصيل الاحداث والمعارك التى دارت بين المسلمين والصليبيين فى شتى مراحل الحركة الصليبية •

فمن بين مؤرخى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) ابن القلانسى ، وابن منقذ ، والاصفهانى • ومن كتاب القرن الثالث عشر (القرن السابع الهجرى) ابن الاثير ، وابن شداد ، وابن الجوزى ، وابو شامة ، وابن خلكان ، وابن واصل • ومن كتاب القرن الرابع عشر (القرن الثامن الهجرى) ابن إيبك ، والنويرى الكندى ، وابن الوردى ، والكتبى ، والصفدى • ومن القرن الخامس عشر (القرن التاسع الهجرى) ابن خلدون ، وابن دقماق ، والمقريزى ، والعينى ، وابن تغرى بردى • ومعظم هذه المصادر مطبوعة ، وبعضها لايزال مخطوطا لم ينشر بعد •

واذا كان بعض هؤلاء المؤرخين ينقل عادة عن السابقين ، فقد ترك لنا عدد منهم اشارات سريعة هامة أو شذرات متناثرة بين ثنايا

السطور عن طبيعة العلاقات بين المسلمين والصليبيين فى شتى مراحل الحركة الصليبية لم ترد فى الاصول المعاصرة ، ويغلب على الظن انهم نقلوها عن اصول مفقودة مما يجعل لها أهمية خاصة • من ذلك الوصية التى تركها الصالح نجم الدين ايوب الى ابنه المعظم توران شاه آخر ملوك الدولة الايوبية بمصر ، والذى كان نائبا عن ابيه فى حصن كيفا ببلاد الجزيرة • وقد وردت بها اشارات لها أهميتها عن حملة لويس التاسع الصليبية على مصر وكيفية التصدى لها ودفعها عن البلاد • وقد عثرنا على نصها كاملا فى كتاب « نهاية الارب » للنويرى الكندى من مؤرخى القرن الرابع عشر الميلادى ، فى حين ان المعاصرين لها مثل ابن واصل وابو شامة وابن الجوزى وابن خلكان لم يتعرضوا لها بكلمة واحدة •

يضاف الى ما تقدم ان بعض هذه المصادر انفردت بذكر وقائع واحداث لم ترد فى الاصول الأخرى ، بينما مال البعض الى الاسهاب فى ذكر التفاصيل ولجأ البعض الآخر الى التركيز الشديد ، ومر فريق ثالث على احداث هامة فى تاريخ الحركة مر الكرام فى الوقت الذى اشار فيه الى أحداث أخرى أقل اهمية ، الامر الذى يحتاج الى عقد المقارنات والموازنات بين مختلف المصادر من عربية وغير عربية بغية سد الفجوات والوصول الى الحقيقة • واخيرا ، فقد اشارت المصادر العربية الى احداث تتعلق بأحوال العالم الغربى زمن الحروب الصليبية اغفلتها المصادر اللاتينية نفسها مما يضفى عليها أهمية كبرى •

ومهما يكن ، فان هذا الاصول العربية تتمم ما جاء فى المصادر الاجنبية ، وتعطينا صورة صادقة عن تاريخ الشرق الادنى الاسلامى خلال تلك الفترة من الزمن • واذا كانت المصادر الاجنبية تعبر عن شق واحد من اصول البحث ، فان المصادر العربية تعبر بدورها عن الشق الآخر • ولذلك فان مصادر الحركة الصليبية ، بشقيها ، تعبر

عن وجهتى النظر حيال الاحداث التى كان العالم العربى الاسلامى ، وبخاصة الشرق الاسلامى ، مسرحا لها ابان الحروب الصليبية ، والقوى المختلفة المتصارعة التى ادت دورها فوقه ، والسياسات والمواقف التى اتخذها كل طرف حيال الاطراف الاخرى ، ومدى ما طرأ عليها من تغيز بسبب المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى طرأت على العالمين الاوروبى المسيحى والعربى الاسلامى وقتذاك .

ثانيا ـــ عوامل قيام الحركة الصليبية

ما أكثر ما كتب عن دوافع قيام الحركة الصليبية ، باعتبارها من الحركات الخطيرة التى انتفض لها كيان العالم الوسيط والتى تركت آثارها لأحقاب طويلة بعد نهايتها . ولايكاد يخلو كتاب من كتب الحروب الصليبية من الاشارة الى ذلك ، تفصيلا وتحليلا أو عرضا وتركيزا . ويلاحظ أن كل مؤرخ من المؤرخين الحديثين المعنيين بتاريخ تلك الحروب قد عالجها من زاوية معينة . فهناك من تناولها من مختلف النواحى من سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية ودينية وعسكرية وغيرها . بينما نظر اليها فريق آخر نظرة موضوعية شاملة من اعلا ، مع ربط مختلف الظروف والاحداث ببعضها وصولا للحقيقة . وثمة فريق ثالث قســم اسباب قيامها الى جوهرية غير مباشرة ترجع الى مئات السنين قبــل اندلاعها ، وثانوية مباشرة ادت مباشرة الى اشعال شرارتها الاولى . وحرص هذا الفريق على تحليل كل عامل على حدة . وكانت هذه السطور ينتمى الى المدرسة الاخيرة ، علما بأنه لايمكن ـــ طبعا وبداءة ـــ فصل اى عامل عن العوامل الاخرى . فكلها مجتمعة متكاتفــة متداخلة فى بعضها ، تفاعلت فيما بينها عبر فترات من الزمن ممتدة متباعدة ، وادت فى نهاية الامر الى قيامهـــا .

من أهم هذه العوامل الاحوال السائدة فى كل من الغرب الاوروبى

والدولة البيزنطية والعالم الاسلامى فى ذلك الحين . وعلى هـذا يجب دراسة الجو الذى نشأت وتطورت فيه ، والقوى المختلفة التى أسهمت فيها بنصيب الى أن تبلورت واختمرت فى حركة لها كيانها ومقوماتهـا . ومن بين العوامل التى أسهمت ايضا فى قيامها نظرة الغرب الى الشرق منذ القدم باعتباره مهبط الوحى والأديان ومهد العلم والمعرفة ، ثـم تطور فكرة الحج والحـروب المسيحية المقدسـة فى الغرب فى الفترة السابقة لقيام الحركة الصليبية . يضاف الى كل ماتقدم ، وجود أفراد كان لكل منهم دوره فى تهيئة الأذهان لقبول هذه الفكرة . وأخيرا بعض الدوافع غير المباشرة التى أسهمت هى الأخرى فىالتعجيـل بقيامها ، كالأحوال الاقتصادية فى المجتمع الاوروبى وقتذاك . وعلى ضوء هذه الحقائق تكتمل الصورة التى هيأت الجو لاندلاع الحروب الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى (اخريات القرن الخامس الهجرى)، والتى أكتوى العالم الاسلامى بنارها قرابة ثلاثة قرون من الزمان .

العامـل الاول

الأحوال السائدة فى الشرق والغرب حتى قيام الحركة الصليبية

ونعنى بذلك الأحوال السائدة فى كل من العالم الاسلامى والدولة البيزنطية والغرب الأوروبى منذ القرن السابع وحتى نهايـة القرن الحادى عشر للميلاد . وفى صدد الكلام عن هذه القوى الثلاث وهى : بيزنطة والغرب الأوروبى والاسلام ، يلاحظ أنها كانت مرتبطة ببعضها أشد الارتباط . ولايمكن للمتصدى للحركة الصليبية فصلها عن بعضها أو غض الطرف عنها . وثمة ملاحظة أخرى وهى أن الصراع كان مستمرا بين القوى المسيحية فى الغرب والشرق من ناحية وبين القوى الاسلامية فى المغرب والمشرق من ناحية أخرى . وهو يبدأ بظهور الاسلام وحركة الفتح اعتبارا من القرن السابع ، ويستمر حتى قيام الحروب الصليبية

فى أخريات القرن الحادى عشر • ويمكن تقسيم الصراع بين المسيحية فى غرب اوروبا وشرقها وبين الاسلام فى القرون الخمسة السابقة لقيام الحروب الصليبية الى مرحلتين رئيسيتين متميزتين : المرحلة الاولى ، وتبدأ من الفتح الاسلامى منذ أوائل القرن السابع وتمتد حتى القرن التاسع الميلادى ، أى أنها تشغل القرون الثلاثة الاولى التى أعقبت حركة الفتح ، وفيها التزمت المسيحية فى الجبهتين الشرقية والغربية جانب الدفاع عن كيانها ضد المسلمين • أما المرحلة الثانية فهى تشغل القرنين العاشر والحادى عشر ، وقد قامت فيهما المسيحية بدور الهجوم ضد الاسلام ، واستمرت هذه المرحلة حتى قيام الحروب الصليبية نفسها •

المرحلة الأولى من الصراع بين المسيحية والاسلام :

هذا يقودنا الى الكلام عن ظهور الاسلام فى شبه الجزيرة العربية فى أوائل القرن السابع الميلادى • ففى سنوات قلائل تمكنت الدعوة الجديدة ودانت لها كافة القبائل العربية التى أصبحت ترى فيها رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها • وعلى هذا الاساس قامت الدولة العربية الاسلامية فتية ناهضة ، وخرجت من جزيرتها للفتح دفاعا عن كيانها ونشرا لدعوتها وتأمينا لها من مناوشات جيرانها ومضايقاتهم المستمرة على الحدود • وكان من الطبيعى أن يبدأ الصراع بينها وبين الامبراطورية البيزنطية التى تعرف فى المراجع العربية باسم دولة الروم ، ذلك الصراع الذى انتهى فى سنوات قلائل باستيلاء المسلمين على الولايات الشرقية التابعة لدولة الروم • فامتلكوا بلاد الشام وهى تشمل سورية وفلسطين ، كما وضعوا أيديهم على شرقى آسيا الصغرى ومصر وشمال افريقية • ووصلت الجيوش الاسلامية الى اسبانيا نفسها ، وباتت تهدد الغرب الأوروبى تهديدا مباشرا •

وكانت هذه الفتوحات ضرورية لكى يؤمن المجتمع الاسلامى

الجديد نفسه ، ويأمن من مضايقات الروم المستمرة له بحكم متاخمة الحدود • واستمر الصراع بين المسلمين والروم أيام الخلفاء الراشدين وبنى أمية • وفى عهد معاوية أول خلفاء الأمويين فتح المسلمون جزيرتى قبرص ورودس وبعض الجزر اليونانية • وقاموا فى أخريات القرن السابع وأوائل القرن الثامن بأكثر من محاولة للاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية • وكادت أن تقع فى أيديهم لولا متانتها ومناعة أسوارها • وكانت المحاولة الاولى سنة ٦٧٣م أيام معاوية حيث دام حصار القسطنطينية أربع سنوات ، ولكن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح ، وكان ذلك فى عهد الامبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥ م) • أما المحاولة الثانية فقد كانت سنة ٧١٧م أيام سليمان بن عبد الملك سابع خلفاء الأمويين ، والذى كانت تراوده فكرة الاستيلاء على بيزنطة • ولم تكن هذه الفكرة مجرد حلم ، وانما كانت أقرب ما تكون الى الضرورة السياسية والحربية • بمعنى أنه لو حدث واستولى المسلمون عليها ، لضمنوا سلامة دولتهم التى كانت بيزنطة تقف منها منذ البداية موقف العداء • وهذا أمر طبيعى ، فالاستيلاء عليها كان بمثابة ضمان نهائى لعدم تعرض الروم للمسلمين الذين اقتطعوا من دولتهم اجزاء هامة • وقد تمكن الامبراطور البيزنطى ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ — ٧٤٠ م) من صد هذه المحاولة • والمعروف أنه اعقبتها محاولات أخرى لغزو العاصمة لم يقدر لها النجاح •

وهكذا كانت الحرب سجالا بين المسلمين والبيزنطيين طيلة العصر الأموى وخلال العصر العباسى • وكانت محاولات المسلمين الاستيلاء على القسطنطينية والتى نجح فى صدها ليو الثالث فى أوائل القرن الثامن الميلادى (القرن الثانى الهجرى) هى أقصى مراحل تقدمهم فى الجبهة الشرقية لاوروبا المسيحية •

وفى الجبهة الغربية امتدت الفتوحات الاسلامية حتى أسبانيا •

وتمكنت القوات الاسلامية فى القرن التاسع الميلادى (القرن الثالث الهجرى) من الاستيلاء على جزيرة كريت • وفى أوائل القرن العاشر الميلادى (القرن الرابع الهجرى) أصبحت صقلية وجنوب ايطاليا فى قبضة المسلمين ، وأصبحت فرنسا نفسها مهددة بالغزو بين وقت وآخر •

وقد أجمع المؤرخون الحديثون على أن حركة الفتوحات الاسلامية على حساب كل من الدولة البيزنطية والغرب الأوروبى فى هذه المرحلة الأولى من الصراع ، كانت لها آثارها البعيدة المدى ليس فى التاريخ الاوروبى فحسب ، وانما فى تاريخ البشرية بصفة عامة • ولعل أبلغ ما يحدد هذه الآثار ما كتبه العالم البلجيكى المعروف هنرى بيرين H.Pirenne من أن البحر الابيض المتوسط الذى كان فيما سبق بحرا رومانيا أو « بحرنا » «Mare Nostrum» حسبما كان الرومان القدماء يسمونه ، أصبح فى معظمه بحيرة اسلامية • ويلقى المؤرخ المعروف جون لامونت J. LaMonte المزيد من الضوء على هذه المسألة •

المرحلة الثانية من الصراع بين المسيحية والاسلام :

تشغل هذه المرحلة القرنين العاشر والحادى عشر للميلاد (القرنان الرابع والخامس الهجريان) ، وفيها ينقلب ميزان القوى لصالح كل من اللاتين والبيزنطيين ، ويصبح مركز الثقل فى جانبهم ، ويتخذون سياسة الهجوم ضد المسلمين مستغلين ضعفهم وانقسامهم ، بينما قام المسلمون بالدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم بوجه عام •

كان الصراع مستمرا بين المسلمين وبين كل من الروم واللاتين • فالدولة البيزنطية لها تاريخ حافل بالحروب مع المسلمين ، ويكاد يكون هذا الصراع سجالا بين الفريقين منذ الفتح الاسلامى حتى القرن

التاسع الميلادى • وكانت الحروب بينهما تقع فى البر والبحر على السواء • وقد وقفت بيزنطة حتى ذلك التاريخ موقف الدفاع عن نفسها وممتلكاتها بسبب الضعف والوهن الذى أصاب أوصالها ، فى وقت كانت تتقدم فيه الامة العربية الاسلامية دفاعا صادقا عن عقيدة تؤمن بها وتأمينا لها وحماية لحدودها •

كانت كفة المسلمين هى الراجحة حتى أعتلت الاسرة المقدونية الحكم فى بيزنطة (٨٦٧ — ١٠٥٩ م) فانقلب ميزان القوى فى المنطقة• وقد أخرجت هذه الأسرة بعض الاباطرة الاقوياء من رجال الحرب والقتال الذين أخذوا على عاتقهم مهمة استرداد أملاك امبراطوريتهم القديمة ، ومحاولة القضاء على قوة العرب الناهضة • وقد أمكنهم خلال نصف قرن من الزمان أن يصلوا الى حدود فلسطين وشمال الشام ، واستولوا فيما بين عامى ٩٦٥ و ٩٧٥ م على كثير من المدن التى كانت فى قبضة المسلمين • وللمزيد من الايضاح نقول أن مجرى تلك الحروب تحول أيام مؤسس الاسرة بازيل الاول لمصلحة البيزنطيين • واستمرت الانتصارات فى عهد قسطنطين السابع الذى استولى على مدينة حلب لفترة قصيرة عادت بعدها الى المسلمين • ووصلت قوة بيزنطة مداها أيام نقفور فوكاس الذى استولى على صنقلية وقبرص وانطاكية وبعض المدن فى آسيا الصغرى • بينما بلغت القوات البيزنطية حدود أورشليم وبغداد فى عهد خليفته يوحنا ترمسكيس أو حنا الشميشق أو الدمستق كما تسميه المراجع العربية • وعلى أية حال ، فان هؤلاء الاباطرة وان لم يتمكنوا من مواصلة انتصاراتهم ، الا أنهم نجحوا فى الاحتفاظ ببعض البلدان التى استردوها •

ومما ساعد الأسرة المقدونية على تحقيق هذه الانتصارات ، ذلك الانحلال السياسى الذى أصاب الدولة العباسية فى القرن العاشر الميلادى (القرن الرابع الهجرى) ، فى وقت انتعشت فيه الدولة البيزنطية وقويت فيها سلطة الحكومة المركزية •

هذا بالنسبة للمرحلة الثانية من الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، أما فيما يتعلق بالصراع بينهم وبين مسيحيى الغرب ، فالمعروف أن موقف المسيحيين فى الغرب كان دفاعيا حتى القرن العاشر الميلادى • ولم يكن يخطر ببالهم القيام بحرب منظمة للاستيـلاء على الاراضى المقدسة من قبضة المسلمين ، بل لم يكن بوسعهم العمل عـلى استعادة البلاد التى استقر فيها المسلمون فى أوروبا مثل اسبانيا وجنوب ايطاليا وصقلية • وكان موقفهم ، هم أيضا ، منذ الفتح حتى ذلك الحين هـو موقف الدفاع عن أنفسهم فى معظم الأحيان وعن بلدانهـم التى كانت تسقط الواحدة تلو الاخرى فى قبضة المسلمين •

ولتفهم ذلك يحسن أن نمهد بكلمة سريعة عن الحالـة فى أوروبا خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد • لقد مرت أوروبا بفترة مظلمـة عقب تفكك امبراطورية شارلمان توالت فيها غزوات المسلمين وانتصاراتهم المتلاحقة • واختل النظام وعمـت الفوضى والاضطرابات ، وفقـدت السلطة المركزية نفوذها وهيبتها • وانحطت الصناعة والتجارة والزراعة، وأصبح الناس فى حالة يرثى لها مـن الفقر والبـؤس والحرمان • وانتشرت الامراض والأوبئة ، وعمت المجاعـات وتدهورت الحضارة وانحطت القيم الخلقية انحطاطا لم يسبق له مثيل • كذلك دب الفساد فى الجهاز الكنسى البابوى وأصبح فى أمس الحاجة الى الاصلاح •

وخلاصة القول أن البلادفى الغرب الأوروبى أصبحت مرتعا خصيبا للفوضى والفساد خلال القرنين التاسع والعاشر • أما فى القرن الحادى عشر فقد ظهرت اسطورة تقول بأن الناس كانوا ينتظرون نهاية العالم فى سنة ألف ، وأن المسيح سيظهر للمؤمن به • فأخذوا فى التقرب الى الله والعمل على مرضاته بالتكفير عن خطاياهم ومعاصيهم ، ووجدت موجه من الزهد والتقشف • ويعتقد كثير من العلماء أن سبب نهضة القـرن الحادى عشر فى أوروبا ترجع الى هـذه الأسطورة • ويرى المؤرخ

البلجيكى هنـــرى بـــيرين Henri Pirenne فى كتابيـــه « مــــدن العصور الوسطى » و « تاريخ أوروبا الاقتصـــادى والاجتماعـــى فى العصور الوسطى » ، أن الاسطورة المذكورة غير صحيحة ، وأنها تمتاز بقيمتها الرمزية فقط ، لانها بداية عهد جديد فى غرب أوروبا خرج فيه من مساوىء الماضى الى عصر جديد .

وابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى يحدث انقلاب فى ميزان القوى بين الغرب الأوروبى والعالم العربى الاسلامى نتيجة التدهور التدريجى المستمر فى القوى الاسلامية فى منطقة غربى البحر المتوسط. هذا ، فى الوقت الذى أخذ فيه الغرب يستعيد قوته وينفض عن كاهله فساد الماضى القريب . وكان النظام الاقطاعى قد بلغ ذروته ، وازداد نشاط الأمراء الاقطاعيين ومغامراتهم وحروبهم ومحاولاتهم توسيـــع اقطاعياتهم على حساب جيرانهم . وفى نفس الوقت أخذ عدد السكان فى أوروبا يتزايد بشكل ملحوظ ، سواء أكانت الزيادة بين أفراد الشعب أو طبقة النبلاء الاقطاعيين . ففى مقاطعة نورمانديا ، مثلا ، تكاثر عدد الفرسان المحاربين الذين لا يمتلكون اراض أو اقطاعيات . ولما كـــان هؤلاء الفرسان حرفتهم الاولى هى الحرب والقتال ، فلم يكن لديهم أى مانع من الخدمة لحساب أى أمير أو سيد اقطاعى ارضاء لهذه الرغبـــة الدفينة الكامنة فى نفوسهم ، وطمعا فى المال الذى يغدق عليهم ، أو حبا فى المغامرة وامتلاك أراض جديدة . وكان مظهرا عاديا جدا تلك الحروب الدامية بين كبار رجال الاقطاع فى ذلك العصر .

وتحت ظل هذه الظروف استولى النورمان على جنـــوب ايطاليا خلال النصف الاول من القرن الحادى عشر الميلادى ، وعلى صقلية فى النصف الثانى منه ، مستغلين فى ذلك المنازعات والخلافـــات القائمـــة بين المسلمين والحكام البيزنطيين من ناحية ، وبين المسلمـــين وبعضهم البعض من ناحية أخرى .

وأما فى اسبانيا فقد ضعف نفوذ المسلمين فيها ، وكان ذلك فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى • وبدأ نضال الامارات المسيحية فى الشمال وهى ليون وقشتاله وأراجون ونافار ضد المسلمين ، وأحرزت فى ذلك نجاحا جزئيا ينحصر فى استيلائها على مدينة طليطلة سنة ١٠٨٥ م ، أى قبل قيام الحركة الصليبية بعشر سنوات • وكانــت قوات الشمال هذه تجد العون والمساعدة من البلاد المسيحية المجاورة لها ، وخاصة من جنوب فرنسا وشرقها لصلة القرابــة والنسب بينها • وقــد أحرزت الحملات الاسبانية نجاحا لا بأس به رغم الانتصارات التى حققهــا الموحدون فى هذه المنطقة •

وغير خاف أن هذه الحروب كانت فرصة طيبة أظهر فيها رجال الاقطاع ماتعلموه من فنون القتــال ، كما حققوا آمالهــم فى التوسع والمخاطرة ورؤية بلاد وأصقاع جديدة ، أو على الاقل فى القيام بعمل يعتبر فى نظرهم كافيا للتكفير عن ذنوبهم وخطاياهم •

نخلص مما سبق أن ميزان القوى فى الصراع الناشب بين الشرق والغرب منذ القرن السابع حتى أخريات القرن الحادى عشر للميلاد ، كان فى صالــح المسلمين فى المرحلــة الاولى من كفاحهــم ضد الدولة البيزنطية والغرب الاوروبى ، حيث أحرزوا انتصارات ضخمة متتاليــة منذ الفتح حتى أواخر القرن التاسع ، فى وقت كان فيه خصومهم فى حالة ضعف وتفكك ، وفى وقت قام فيه المسلمون بالفتح دفاعا عن كيانهم ونشرا للدين الجديد • واعتبارا من القرن العاشر الميلادى ينقلب ميزان القوى لصالح الروم واللاتين الذين أخذوا يستعيدون قوتهم وتماسكهم، واستولوا على كثير من البلاد التى كانت فى قبضة المسلمين ، فى وقت أصاب فيه العالم الاسلامى التفكك والوهن • ولذلك عندمــا قامت الحركة الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى كانت الظروف مواتية تماما لأن يحقــق الغرب الأوروبى تلك الانتصــارات السريعة المتلاحقة التى لم يكن يحلم بها فى يوم ما •

لعلنا نستبين مما تقدم أن فكرة الحروب المسيحية ضد المسلمين فكرة قديمة وعادية عند الأوروبيين الغربيين والروم الشرقيين ، وتعتبر فى الوقت نفسه خطوة تمهيدية لتلك الحروب التى اشتهرت فى التاريخ باسم « الحروب الصليبية » .

وعلى ذلك عندما نتحدث عن الحروب الأوروبية ضد المسلمين ، أو عن الصراع بين المسلمين وبين كل من الروم واللاتين فى الفترة السابقة لقيام الحركة الصليبية ، لانعنى اطلاقا الحروب الصليبية التى لها مميزاتها وخصائصها ومفهومها الدقيق . ويمكن القول ان تلك الحروب اليومية التى شنها البيزنطيون أو مسيحيو الغرب ضد المسلمين قد مهدت الطريق للحروب الصليبية نفسها وهيأت الجو لقيامها ، تماما مثل تلك الحروب التى قامت فى القرن الرابع عشر الميلادى والتى تعتبر فى الواقع من أهم آثار الحركة الصليبية نفسها .

العامل الثانى

نظرة الغرب الى الشرق والاتصال الروحى بينهما

اذا كانت الأحوال التى سادت العالم الأوروبى فى جبهتيه الشرقية والغربية منذ القرن السابع الميلادى حتى قيام الحركة الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر تلقى الضوء على الظروف التى مهدت لقيام هذه الحركة ، فلاشك أن هناك عوامل أخرى متفاوتة التأثير أسهمت بدورها فى اخراج هذه الفكرة الى حيز الواقع والأشياء الملموسة . ومن هذه العوامل الرئيسية نظرة الغرب الى الشرق منذ القدم ، وقبل قيام الحركة الصليبية نفسها بقرون طويلة .

لقد كان الشرق منذ أقدم العصور محور العلم والمعرفة ومهبط

الوحى والأديان ، ومركز الحضارة والاشعاع الثقافى • وازداد الشرق رفعة ومكانة لدى الغرب عقب سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة عام ٤٧٦م ، واجتياح البرابرة لدول غرب اوروبا ، وقضائهم عليها وعلى معالم الحضارة والمدنية الرومانية الزاهرة ، بل وعلى جهاز العمل الرومانى العتيق فى القانون والسياسة والاقتصاد والدين والفكر ، مما أوجد حالة من الفوضى والدمار عانى منها الغرب الامرين • هذا ، بينما لم يصب الشرق من غزوات أولئك البرابرة الا القليل • ففى الوقت الذى تضاءلت فيه معالم الحضارة والمدنية فى أوروبا ، وفى الوقت الذى تدهورت فيه الصناعة والزراعة والتجارة ، وفى الوقت الذى عم فيه البؤس والفقر والجهل ، وفى الوقت الذى انتشرت فيه الامراض والاوبئة والطواعين — فى هذا الوقت بالذات ازدهرت المدنية فى الشرق ، وظهرت على مسرح الاحداث مدن لها مكانتها مثل الاسكندرية والقسطنطينية وانطاكية وبيت المقدس • وفى الشرق قامت الرهبنة والديرية التى أخذها عنها الغرب • وفيه عقدت المجامع المسكونية الكبيرة المعروفة فى تاريخ العصور الوسطى • وفيه أيضا نشأ الفن المسيحى الاول • وفيه نشأت الجامعات العلمية التى اقتبسها عنه الغرب • وفيه ظهرت المسيحية التى انتقلت الى الغرب ، كل هذا يدل على مدى التقدم الفكرى والثقافى والحضارى الذى وصل اليه الشرق ، فى وقت كان فيه الغرب الاوروبى يعانى الامرين من عوامل التدهور والانحلال التى حلت به عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط •

فلا عجب اذا اهتم أهل الغرب بالشرق ذلك الاهتمام الواضح الكبير الذى يرجع الى ما قبل قيام الحركة الصليبية نفسها بقرون عديدة• ولا عجب أن يجد أهل الغرب فى الشرق العزاء والسلوى بعد أن أنهكتهم وهدت كيانهم الازمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أتت على الدولة الرومانية القديمة ، وعلى نظمها وحضارتها • لذلك وجد الغرب المتعب المنهوك القوى فى الشرق بفلسفاته ولا هوتياته وأديانه العزاء والسلوى فى عصر تغير وانتقال ،كان كل شىء فيه فى تغير تدريجى مستمر، ولم يكن هناك شىء ثابت على حاله •

كذلك كان يحج الى الشرق كثير من الاوروبيين • وكانوا يجدون لذة فائقة ومتعة كبيرة فى سبيل ذلك ، على الرغم من الصعاب والمخاطر التى كانت تواجههم فى الطريق بسبب بعد الشقة وصعوبة المواصلات، فى وقت كانت فيه المواصلات بطيئة محفوفة بالمخاطر • وكان مسيحيو الغرب الاوروبى يتهافتون لسماع اخبار الشرق من الرواة والحجاج العائدين الذين كانوا يروون لهم القصص المثيرة والاخبار التى لا تخلو من المبالغة والتهويل والتى هى أقرب الى الاساطير منها الى الحقائق التاريخيـــة •

هذا ، ومن بين الامور التى نبهت الغرب الى الشرق وجود جالية من التجار الغربيين فى الشرق ، فضلا عن وجود جاليات وفيرة العدد من التجار الشرقيين فى أوروبا نفسها • وكانوا يطلقون عليهم فى أوربا اسم «السوريين» سواء أكانوا من سورية أو من غيرها من مدن الشرق • وقد احتكر أفراد هذه الجاليات التجارة بين الشرق والغرب ، وأمكنهم بفضل نفوذهم وثرائهم من الوصول الى أرفع المناصب ، ومنها كرسى البابوية نفسه ، وأصبح بعضهم أســاقفة لمدن كبيرة فى أوروبا • ولم تــكن تجارتهم قاصرة على استيراد وتصدير السلع والبضائع ، بل انهم جلبوا معهم الى الغرب نظم الرهبنة والديرية وبعض المعارف والعلوم والاداب والفنون • وكانت كل هذه الامور أول معرفة الغرب بها ، فزادتهـــم تشوقا للشرق وتلهفا لزيارته وسماع أخباره والحج اليه •

فلا غرو ، اذن ، أن يصادف الشرق هوى فى نفوس الغربيين لكل هذه المغريات التى يقدمها لهم ، فى وقت كانوا هم فيه فى أمس الحاجة الى ما يخفف عنهم عبء الحياة فى الغرب والى ما يزيح عن كواهلهم حالة القلق والاضطراب التى كانوا يعانونها • ولا شك أن هذا العامل النفسانى كان له أثره غير المباشر ، الى جانب العوامل الاخرى فى تهيئة الجو لقيام الحروب الصليبية •

العـــامل الثـــالث

تطور فكرة الحج من الغرب الاوروبى الى الاراضى المقدسة منذ فجر المسيحية حتى قيام الحركة الصليبية

بالاضافة الى العاملين السابقين اللذين دفعا الغرب الى الاهتمام بالشرق ، فقد كانت توجد فيه مدينة بيت المقدس ، تلك المدينة التى لها فى نفوس المسيحيين مكانة خاصة ، والتى يعتقدون أن المسيح قد قدسها بوجوده فيها • ومن هنا نبتت فكرة زيارة المكان الذى ولد فيه السيد المسيح والبلدان التى زارها أو بشر فيها برسالته • ثم أن بعض الجماعات الرهبانية الغربية أسست لها أديرة فى الشرق وفى الاراضى المقدســـة بصفة خاصة ، بقصد ايواء الحجاج الغربيين والسهر على راحتهم وعلاجهم اذا اقتضى الامر ذلك • كما كانت هذه الاديرة أمكنة كرس فيها الرهبان وقتهم للصلاة والعبادة على مقربة من القبر المقدس الذى يطلق عليه العرب اسم الضريح المقدس أو كنيسة القيامة • ومن هذا الوقت بدأت فكرة الحـــج الى الاراضى المقدســة تأخذ شكلا منظما بقيادة رجـــال الدين أنفســـهم •

وجدير بالذكر قبل استعراض تطور حركة الحج من الغرب المسيحى الى الاراضى المقدسة عبر القرون والاجيال ، أن الدين المسيحى لم ينص فى البداية على مسألة القيام بالحج كفرض واجب الاداء • ولم تنص الكنيسة فى العصور الاولى للمسيحية على ثواب معين لمن يقوم بذلك ، بعكس الدين الاسلامى الذى نص على القيام بالحج الى بيت الله كأحد الفروض الخمسة فى الاسلام الواجبة على كل مسلم قادر ان استطاع الى ذلك سبيلا • وهذه الفروض هى : النطق بالشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج • وكتاب الله عامر بالايات القرآنية الخاصة بالحج • فقد جاء فى سورة البقرة « **فمن حج البيت أو اعتمر فلا جنـــاح عليه ان**

يطوف بهما » و « ولا فسوق ولا جدال فى الحج » و « الحج اشهر معلومات» • ومن هنا يتضح لنا التباين بين نظرة كل من الاسلام والمسيحية الى فكرة الحج كفريضة • كما يتضح أيضا أن زيادة الحجاج الغربيين للامكنة المقدسة فى الشرق كالقبر المقدس وبيت لحم والناصرة وصفورية والجليل وجبل الزيتون وغيرها ـ كل هذا لم يكن له أى جزاء أو ثواب تنص عليه الكنيسة المسيحية صراحة فى فجر تاريخها • انما كان الفرد يقوم به من تلقاء نفسه فى بادىء الامر اعتقادا منه أنه بذلك انما يكفر عن اثامه ويقرب نفسه الى الله • ولكن بتوالى السنين أصبحت الزيارة الى الاراضى المقدسة جزءا هاما من شعائر الدين المسيحى كما سيتضح من العرض التالى •

اذا استعرضنا حركة الحج وتتبعنا تطورها منذ فجر المسيحيـة ، نجد ان الحجاج لاقوا الكثير من الصعاب فى القرون الثلاثة الاولى من ظهور المسيحية • ذلك أن الاباطرة الرومان اعتبروا المسيحية منافسا لهم ولنفوذهم وسلطانهم ، ودولة داخل الدولة ، وتهديدا خطيرا لوحدة الامبراطورية الرومانية التى كان يرمز لها بالسلم الرومانى • وقد كان من الممكن ان يترك الاباطرة الرومان الديانة الجديدة وشأنها لو لـم تتعرض لشىء واحد وهو عبادة الامبراطور ، اذ قالت انه فى نظر الله لا فرق بين سيد ومسود وبين عبد وامبراطور ، كما دعت الى وحدانية الله دون عبادة الاباطرة • ومن ثم قاومها الاباطرة بكل الوسائل والسبل، وحاولوا طمس معالمها واستئصال شأفتها • ومن هنا قامت حركـة الاضطهادات المعروفة فى تاريخ المسيحية ابتداء باضطهاد نيرون فى اواسط القرن الاول الميلادى ، وبلغت أشدها زمن دقلديانوس فى أخريات القرن الثالث حتى أن عهده عرف باسم عهد الاضطهاد الاعظم • وكان من بين الوسائل التى لجأ اليها أباطرة روما منع الحجاج من السفر الى الاراضى المقدسة • ولهذا لم يكن من المنتظر فى ظل تلك الظروف أن تنتعش حركة الحج فى القرون الثلاثة الاولى من المسيحية •

هكذا كان القيام بالحج خلال تلك القرون الثلاثة أمرا صعبا غير

ميسور بسبب موقف الدولة الرومانية من الديانة المسيحية ومن معتنقيها، وكذلك بسبب موقف الاباطرة الرومان أنفسهم الذين كانوا يعتبرون المسيحية تهديدا خطيرا ومباشرا لنفوذهم وسلطانهم ، حتى أنهم قاوموها بشتى السبل والوسائل • ولكن عندما اعترفت روما بالديانة الجديدة كدين رسمى للدولة فى بدايات القرن الرابع تغير الموقف ، ووجد الحجاج من الاباطره الرومان التسهيلات الكافية •

وبناء على ذلك كان من الطبيعى أن تنشط وقتذاك حركة الحج الى الاراضى المقدسة • ومما ساعد على ذلك اعتراف الامبراطور قسطنطين الكبير بالمسيحية كدين رسمى للدوله ، وبكنيستها باعتبارها كنيسة الدولة ، وبالامبراطور باعتباره الرئيس الدينى الاعلى لها • كذلك عثور هيلينا أم الامبراطور قسطنطين على موضع الجلجثة وهو المكان الذى وجدت فيه أدوات تعذيب الرومان واليهود للمسيح وهى : الصليب الذى صلب عليه وتاج الشوك والمسامير والحربة وقطعة الاسفنج ، ثم قيام ابنها ببناء كنيسة فى بيت المقدس أصبحت فيما بعد كعبة الحجاج المسيحيين ومحط آمالهم من كافة أنحاء العالم ، تلك الكنيسة التى لعبت دورا خطيرا لاجيال طويلة ، ولا زالت ماثلة حتى يومنا هذا •

واستتبع القيام بالحج الى الاراضى المقدسة وكنيسة القيامة الاهتمام الزائد الذى أولاه المسيحيون بجمع آثار الرسل والقديسين سواء أكان هذا الاثر اصبع أحد الرسل أو خصلة من شعره أو قطعة من ملابسه• وبمرور الوقت أخذ تبجيل القديسين فى التزايد حتى أن بعض رجال الدين المسيحى فى العصور المبكرة أخذوا يقولون بأنه من الممكن الحصول على مساعدة الرب بالدعاء عند أضرحة أولئك القديسين والتبرك بهما والتمسح عندها • وكان من الطبيعى أن يذهب الحجاج الغربيون الى الشرق لزيارة هذه الاضرحة والتبرك بها وطلب الشفاعة عندها ، ثم جمع ما يمكن جمعه من اثار الرسل والقديسين حتى ولو كان نقطة من

الدم المقدس أو قطعة من خشب الصليب الذى صلب عليه المسيح أو حفنة من تراب بيت المقدس • وقد بلغ من تسلط هذه الفكرة على أهل الغرب وعلى عقولهم أنهم كانوا يرسلون السفارات الى الشرق للحصول على بعض هذه البقايا والمخلفات ودفع مبالغ خيالية لشرائها وابتناء الكنائس لحفظها بها • واستمرت هده العادة عند أهل الغرب وازداد تمسكهم بها مع الزمن • وكان طبيعيا أن تزيد هذه المخلفات الدينية من اهتمام الغرب بالشرق والعمل على الاتصال به والتعرف عليه فى هذه الفترة المتقدمة •

هكذا نمت حركة الحج من الغرب الاوروبى الى الارض المقدسة خلال القرن الرابع ومعظم القرن الخامس الميلادى • وكانت افواج الحجاج وقتها تضم فى بعض الاحيان الكثير من السيدات والشيوخ الذين لم تمنعهم مشقة السفر وبعد الطريق من أداء هذا الواجب • ولكن هذه الحركة سرعان ما ضعفت مرة اخرى خلال القرنين السادس والسابع بسبب غزوات الجرمان البرابرة فى غرب أوروبا التى أدت الى وجود حالة من الفوضى والاضطراب لم يشهدها الغرب من قبل • وفى ظل هذه الظروف لم يكن من السهل أن تنتعش حركة الحج ، بينما كان الجرمان ينزلون بجحافلهم الجرارة فى غرب أوروبا ويكتسحون فى طريقهم كل شىء • وفى ذلك الحين قامت الدولة العربية الاسلامية فتية ناهضة لتؤدى دورها على مسرح الاحداث ، وامتدت حدودها من المحيط فى الغرب الى الخليج فى الشرق •

ولم يحل القرن الثامن الميلادى حتى كانت حركة الحج قد نشطت من جديد • ومن أهم عوامل ذلك استقرار الامور فى غرب أوروبا بعض الشىء بعد أن هدأت غزوات البرابرة ، وسياسة التسامح الدينى التى أبداها المسلمون حيال الحجاج المسيحيين وتقديم كافة التسهيلات اللازمة لهم • وكانت النتيجة أن ازداد عدد الحجاج الذين كانوا يفدون الى الشرق

على هيئة جماعات كبيرة بعد أن كانوا يعدون فيما مضى على أصابع اليد الواحدة ، الامر الذى استلزم تفكير المسئولين فى الغرب الى القيام بمحاولات أولية لتنظـيم هذه العمليـــة • وقد تم ذلك تحت اشراف الامبراطور شارلمان •

لقد تبادل هذا الامبراطور السفارات والهدايا مع الخليفة العباسى المعاصر له هارون الرشيد • وكان يهدف من وراء ذلك الحصول على تفويض من الخليفة العباسى بحماية مسيحيى فلسطين • ونجح شارلمان فى الحصول على هذا الامتياز ، فى وقت كان يفكر فيه باعادة الامبراطورية القديمة الى سابق مجدها ، وذلك بتوحيد الامبراطوريتين : الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة والامبراطورية الرومانية الشرقية فى امبراطورية واحدة يكون هو على رأسها • ومما يذكر أن الخليفة العباسى منحه فوق ذلك ملكية القبر المقدس الذى كان له فى نفوس الغربيين مكانة كبيرة • وجدير بالذكر فى هذا المقام أن أمر هذه السفارات المتبادلة بين العاهلين الكبيرين المسيحى والمسلم قد ورد ذكرها فى المصادر الغربية فقط ، بينما لم تتعرض لها المصادر العربية من معاصرة وغير معاصرة بكلمة واحدة على الاطلاق • ولا نجد تفسيرا لذلك • وربما يرجع ذلك لحداثة عهـد العرب بالتدوين التاريخى وقتها ، فضلا عن اتباعهم نظام السرد الحولى الذى لم يكن يسمح بالكتابة فى مواضيع متخصصة • وكيفما كان الامر، يعتقد بعض المؤرخين الحديثين أن النجاح الذى حققه شارلمان فى هذا السبيل كان له أكبر الاثر فى تتويجه امبراطورا على الغرب فى سنة ٨٠٠م . عندما وضع بابا روما ليو الثالث التاج على رأسه فى ليلة عيد الميلاد من السنة المذكورة ليصبح خليفة القياصرة الاقدمين • هذا ، ومن أهم مظاهر الحماية التى فوضه بها هارون الرشيد هو توسط شارلمان فى سبيل الحجاج المسيحيين لدى الخلفاء المسلمين وارسال المساعدات المادية اليهم والعمل على راحتهم •

هكذا ذاع صيت شارلمان فى الشرق والغرب على السواء • ويقال

ان هارون الرشيد أرسل اليه بعثته المشهورة من بغداد تحمل عدة هدايا ثمينة من بينها فيل ومجموعة شمعدانات فضية من صناعة الشرق وساعة مائية • كذلك أرسل اليه بطريارك بيت المقدس الاغريقى مفاتيح قبر السيد المسيح اعترافا منه بزعامته على العالم المسيحى كله بشقيه الغربى والشرقى •

وكان من نتيجة هذا التفاهم وذلك الاتفاق ان ازداد عدد المؤسسات والاديرة اللاتينية فى الاراضى المقدسة • وابتداء من هذا التاريخ بدأ الاوروبيون من بابوات وأباطرة وملوك وكبار رجال الاقطاع فى ارسال المساعدات والهبات بصفة مستمرة منظمة • كما بدأوا هم أنفسهم فى الحج إلى الاراضى المقدسة فى أفواج كبيرة اعتبارا من القرن التاسع الميلادى •

ولكن فى أخريات هذا القرن أصاب حركة الحج بعض الضعف بسبب اضمحلال الامبراطورية الكارولنجية واقتسام أشلائها بين أبناء شارلمان وأحفاده • وترتب على ذلك تفكك الغرب ووجود حالة من القلق وعدم الاستقرار الامر الذى لم يتح لحركة الحج أن تزدهر أو تنمو • ولكن هذه الفترة لم تدم طويلا • ففى القرن العاشر الميلادى انتعشت الحركة من جديد انتعاشا كبيرا • ويرجع ذلك لاستقرار الاحوال فى أوروبا ، وتجديد الامبراطور الرومانية المقدسة فى عهد اوتو الكبير ، فضلا عن عوامل أخرى عديدة أدت الى اعتبار القرن العاشر العهد الاكبر لحركة الحجاج ، وأصبحت هذه الحركة تجد هوى من نفوس رجال الاقطاع المحبين للمخاطرة ورؤية بلاد وأراض جديدة • وكان الاقطاع قد تأصلت جذوره فى الغرب الاوروبى وقتذاك ، وكان أمراء الاقطاع يجدون متعة ولذة وهم يستمعون الى أحاديث الرواة والحجاج العائدين من الاراضى المقدسة كما تشوقوا هم للقيام بهذه الزيارة التى تشبع رغبة دفينة فى نفوسهم • يضاف الى ذلك ان فكرة الحج فى حد ذاتها كانت مظهرا من مظاهر التقوى والتدين ، وأن الصعاب التى يلاقيها المسافر ، فضلا عن مشقة السفر

وبعد الشقة وصعوبة الطريق ، كانت كفيلة بالتكفير عن المعاصى والذنوب، ومن منهم بدون معصية أو ذنب • ويلاحظ أيضا ان الادب المتعلق بحركه الحج قد ازداد ازديادا واضحا فى أوروبا فى ذلك الحين ، وكان من الامور المحببة عند السادة الاشراف وعامة الشعب على السواء • وكان هـذا الادب يتضمن الاساطير والروايات الدينية المبالغ فيها عن هذه البقعه المقدسة ومدى ما يجنيه كل من يحج اليها •

وهناك ، بالاضافة الى ما تقدم ، عوامل أخرى ساعدت على انتعاش الحركة ، منها استعادة البحرية البيزنطية لبعض نفوذها فى البحـر المتوسط ، كذلك تسامح السلطات الاسلامية ، سواء أكانت عباسية أو اخشيدية أو فاطمية ، حيال المسيحيين الذين يفدون الى الاراضى المقدسة • فقد كان هؤلاء المسيحيون الغربيون ، حسبما تؤكد المصادر القديمة ، يقومون بحجهم الى تلك الاراضى وهم هادئين امنين مطمئنين، وذلك عندما كانت مدينة بيت المقدس خاضعة للخلافة الفاطمية التى اشتهرت بسعة صدرها وتسامحها فى أمور الدين •

وثمة عامل اخر ساعد على انتعاش الحركه هو تلك العقيدة التى أخذت فى التمكن من نفوس المسيحيين على مر القرون والخاصة بثواب الحج الى الاراضى المقدسة • ولم يعد بعد المسافة بين الاقطار الاوروبية والاراضى المقدسة حائلا دون القيام بالحج • بل كلما ازدادت المسافة بعدا وكلما ازدادت مخاطر الطريق شدة وهولا ، كلما كان ذلك مدعاة لاطمئنان الحجاج الى غفران خطاياهم واثامهم • وكانت المتاعب والاهوال التى يصادفها الحاج فى الطريق ، ومنها الجوع والظمأ وتشقق الايدى والاقدام والتعرض لحرارة الصيف وبرودة الشتاء ، فضلا عن الامراض التى تداهمه ــ كان يجد فى كل ذلك راحة نفسية عميقة من ناحية • وتخليصا لنفسه من الادران والمعاصى العالقة بها من ناحية أخرى •

يضاف الى كل ما تقدم أنه ظهرت فى القرن العاشر جماعة رهبانية

قوية هى جماعة دير كلونى الواقع بالقرب من الحدود الفرنسية الالمانية على بعد عدة أميال من مدينة ماسون Mâcon الفرنسية ٠ وقد نادت هذه الحركة بالاصلاح الدينى بعد الفساد الذى تغلغل فى الجهاز الكنسى البابوى فى الغرب ابتداء من أصغر قس حتى البابا نفسه ، وبعد التدهور الذى أصاب الرهبنة والديرية ٠ ولم تخضع هذه الجماعة لاحد من رجال الاقطاع ، وانما كانت تتلقى أوامرها من البابا رأسا ٠ وقد انتشرت مبادئها وأديرتها فى كافة أنحاء الغرب الاوروبى حتى أصبح رئيس دير كلونى الرئيسى يلى البابا فى المرتبة مباشرة ٠ وكان كثير من البابوات الذين جلسوا على الكرسى البابوى فى روما ممن عاشوا وتربوا فى أديرة كلونى ، وممن تشبعوا بآرائها ومبادئها مثل جريجورى السابع واربان الثانى ٠ والامر الهام أن رجال كلونى ساهموا مساهمة فعالة فى تنظيم حركة الحج ومساندتها ، ثم فى الدعوة للحروب الصليبية والتبشير بها فيما بعد ٠ وشيدت عدة مراكز لها يمكن للحجاج الاوروبيين الاستراحة فيها خلال رحلتهم الطويلة الشاقة ٠ وكانت مجهوداتهم فى الترغيب الى الحج فعالة مثمرة ٠

وفى ظل العوامل سالفة الذكر استأنف الغربيون السفر الى الاراضى المقدسة ٠ وكان زيادة عدد الحجاج أمرا ملحوظا فى القرن الحادى عشر ٠ فاصبحوا فى هذا القرن يذهبون الى الاراضى المقدسة فى قوافل كبيرة يبلغ عدد المشتركين فيها فى بعض الاحيان عدة الاف ، بعكس الحال فى القرون السابقة ٠ وكان أولئك الحجاج فى أغلب الاحيان مسلحين لحماية أنفسهم من أخطار الطريق ٠ وقد حفظ لنا التاريخ أسماء الكثير من كبار رجال الدين وكبار رجال الاقطاع ممن قاموا بهذه الزيارة ٠كذلك أخذت أمكنة الضيافة وعدد الملاجىء والفنادق والاستراحات الخاصة بايواء الحجاج والعناية بهم تتزايد زيادة مطردة على طول طريق الحج من الغرب الى الاراضى المقدسة فى الشرق ٠

وكان الحجاج العائدون يستقبلون فى بلادهم استقبال الابطال ،

وكانوا يثيرون فى نفوس مسيحيى الغرب الشوق والحماسة بما يروونه عن مشاهداتهم فى الارض المقدسة • وأغلب هذه الروايات ما يكون مبالغا فيها ، وكان هدفها اثاره الغرب اللاتينى لزيارة الشرق • وبذلك نشر أولئك الحجاج أبلغ دعاية فى غرب أوروبا للحركة الصليبية نفسها •

ولكن حركة الحج التى بلغت ذروتها فى القرن الحادى عشر مالبث أن ضعفت فى أخريات ذلك القرن • اذ تغير الحال بعد استيلاء السلاجقة على مدينة بيت المقدس سنة ١٠٧٠م من الفاطميين ، وكانت الخلافة الفاطمية فى مصر وقتها فى طريقها الى الزوال • ثم اتجهت جحافل السلاجقة بعد ذلك نحو اسيا الصغرى حيث ألحقت بالدولة البيزنطية فى عهد امبراطورها رومانوس الرابع ديوجينيس هزيمة منكرة فى موقعة ملاذكرد سنة ١٠٧١م ، أى بعد استيلائهم على بيت المقدس بسنة واحدة • وأخذ السلاجقة يتوغلون فى اسيا الصغرى على حساب الضعف الذى استشرى فى كيان كل من بيزنطة والخلافة الفاطمية فى مصر • وكان لهذا أثره على ضعف حركة الحج الى الاراضى المقدسة • والواقع ان الدعايات المبالغ فيها التى يرويها الحجاج الاوروبيون الذين كانوا يرتادون الاراضى المقدسة عن سوء معاملة السلاجقة لهم ومنعهم من زيارة القبر المقدس ، كان لها أثرها فى اثارة الشعور والحماس الدينى لدى مسيحيى الغرب ، وتهيئه الجو فيما بعد عندما قامت الحركة الصليبية •

ولابد لنا فى هذا المقام ونحن نتحدث عن تطور حركة الحج عبر القرون أن نشير الى رحله لها أهمية خاصة فى تاريخ حركة الحج ، والتى حدت ببعض المؤرخين الغربيين الحديثين الى اعتبارها تجاوزا حربا صليبية ، وذلك نظرا لكثرة عدد المشتركين فيها ، وأن هدفها بيت المقدس ووجهتها قبر المسيح • ونعنى بها رحلة جينتر Günther الالمانى سنة ١٠٦٥م ، اى قبل قيام الحركة الصليبية بثلاثين سنة فقط • وكان هذا الرجل يشغل وظيفه رئيس أساقفه بجنوب المانيا ، واشترك

معه فى هذه الرحلة حوالى ١٢ الف مسيحى من حجاج وفرسان ورجال دين ، وكان معظمهم من جنوب المانيا ، كما كان غالبيتهم مسلحين • وقد أعدت كافة ترتيبات الرحلة اعدادا دقيقا منظما • وسافرت عبر بلاد المجر ، وكان أهلها قد اعتنقوا الديانة المسيحية منذ أوائل القرن الحادى عشر الامر الذى سهل عليهم عملية المرور عبر أراضيهم • وقد تعرض جينتر ورفاقه خلال الرحلة لكثير من المخاطر والصعاب • ولكن الشىء الهام من أمر هذه الرحلة أنها أعطت للاوروبيين فكرة عن الطـــريق الذى سيسلكونه فيما بعد • اذ مر جينتر ورفاقه بالقسطنطينية وعبروا اسيا الصغرى ، وأمكنهم بعد مشقات كثيرة الوصول الى بيت المقدس •

ويقــول المؤرخ الفرنسى المعـــروف لويس بربيــه L. Bréhier فى هذا الصدد إن هذه الرحلة لا يمكن تسميتها بحرب صليبية • فهى سابقة لهذه الحرب وممهدة لها ، شأنها شأن الصراع الطويل الممتـد بين الاسلام وبين كل من الغرب الاوروبى والدولة البيزنطية ، منذ القرن السابع وحتى قيام الحركة الصليبية • ويقول أن الرحــلة المذكورة لا تختلف عن حركات الحج السابقة عنها الا فى كثرة عدد من اشتركوا فيها من الحجاج • ويستطرد قائلا أنها رغما عن ذلك تحتل مكانة كبيرة فى أصول الحركة الصليبية • فلا يقتصر أثرها على تعريف الاوروبيين على طريق الحج ، وهو الطريق الذى سلكته الحملة الصليبية الاولى ، وانما نجحت فى حفظ الحماسة لدى مسيحيى الغرب لزيارة الاراضى المقدسة •

ولقد رأينا من العرض السابق كيف أن حركة الحج من غرب أوروبا الى الاراضى المقدسة انتعشت فى بعض العهود ، وكيف أصابها الضعف والوهن فى عهود أخرى ، وعرفنا ما هى عوامل انتعاشها وما هى أسباب ضعفها ، وكيف أن فكرة الحج هذه لعبت دورا هاما فعالا فى توجيه الغرب المسيحى الى الشرق الادنى الاسلامى فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى •

وجدير بالذكر هنا أنه كان للحج فى العصور الوسطى نظمه وأصوله

وتقالبده الخاصة به • وهذه النظم والاصول والتقاليد لم تظهر فجأة أو بين يوم وليلة ، انما استغرقت وقتا طويلا حتى استقرت على الوضع الذى بدت عليه فى القرنين أو الثلاثة قرون الاخيرة السابقة لقيام الحركة الصليبية • فكان يتحتم على الراغب فى الحج أن يستأذن أسقف القرية التابع له فى السفر ، ثم يتناول منه عصا الحج التى تكاد تبلغ طول الحاج نفسه ، وبوسطها عقدة وبأعلاها عصا أخرى معقودة معها على هيئة صليب • ويأخذ معه فى رحلته الطويلة الشاقة مزودا يعلقة برباط يحفظ فيه طعامه ، وغالبا ما يكون كسرة من الخبز وقليلا من الماء وبعض الملح امعانا فى التقشف ، ويستوى فى ذلك الحميـــع لا فرق بين غنى أو فقـــير •

وكان الحاج يزود بكتب توصية الى جميع الاديرة التى يمر بها فى رحلته الطويلة الشاقة ، وكانت هذه الاديرة تخفف عنه مشـــاق الطريق • وفى يوم الرحيل يخرج الاهل والمعارف لوداعه كما لو كان هذا هو اللقاء الاخير • ويتم ذلك وهم يرتلون الاناشيد الدينية • ثم يقفل الركب راجعا الى البلدة ، بينما يأخذ الحاج طريقه الى فلسطين • وفى بعض الاحيان كان المسافر يعرج الى روما ليتلقى البركة من البابا نفسه ويتناول منه الصليب ، ثم يمضى الى أحد الموانى الايطـــالية ومنها يبحر الى القسطنطينية فالبيت المقدس عبر اسيا الصغرى •

وما أن تطأ قدم الحاج البيت المقدس حتى يذهب لزيارة كنيسة القيامة التى أسسها الامبراطور قسطنطين فى أوائل القرن الرابـــع الميلادى • ثم يصعد جبل الزيتون ويشاهد مغارة بيت لحم التى ولد فيها المسيح ويستحم بماء الاردن • وعند عودته الى وطنه يأخذ معه حفنة من تراب بيت المقدس أوبعض سعف النخل ليضعها على مذبح الكنيسة أو يحتفظ بها فى منزله كذكرى لهذه الزيارة •

وهكذا عندما تولى البابا اريان الثانى عرش البابوية سنة ١٠٨٨م

كانت التربة ممهدة فى الغرب للقيام بحرب مسيحية ضد المسلمين · لقد كانت هذه الفكرة موجودة ومختمرة هناك ، وقد أذكاها ذلك التعبير الطبيعى للتحمس لزيارة الاراضى المقدسة الذى طبعه الحج فى قلوب مسيحيى الغرب منذ عدة قرون ، بالاضافة الى ذكرى شارلمان ورحلة جينتر الالمانى وغيرها · واذا تجاهلنا أهمية هذا العنصر ، فليس هناك من سبيل الى تفسير أصول الحركة الصليبية على حد قول لويس بريبه نفسه ·

العامل الرابع

تطور فكرة الحرب المقدسة فى الغرب الاوروبى منذ فجر المسيحية حتى قيام الحركة الصليبية

ومن العوامل الرئيسية غير المباشرة التى مهدت لقيام الحروب الصليبية ، الى جانب العوامل التى أسلفنا الاشارة اليها ، تطور مبدأ الحرب المقدسة فى غرب أوروبا عبر القرون · وكما اختلفت المسيحية الاولى عن الاسلام فى النظر الى فكرة الحج ، كذلك اختلفت عنه فيما يتعلق بفكرة الحرب المقدسة ·

فقد حث القرآن الكريم المسلمين على الجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه · وكان لفكرة الجهاد عند المسلمين أثرها الفعال فيما أحرزوه على الصليبيين من انتصارات ، ذلك أن دولتهم قامت على أساس الجهاد · وكانت هذه الكلمة تستعمل لالهاب الحماسة بين الناس · كما كان يطلق على المحاربين اسم المجاهدين ، واذا مات أحدهم فى أثناء المعركة سمى شهيدا · وكانت الخطب والمواعظ الدينية التى تلقى من فوق منابر المساجد فى أيام الجمع وسيلة هامة من وسائل الحث على الجهاد ضد أعداء الاسلام · وان نسينا فلا ينبغى أن ننسى الدور الذى لعبه

الجامع الازهر وقتذاك · فمن فوق منبره كانت تلقى الخطب فى الحث على الجهاد كلما تعرض العالم الاسلامى لغزو صليبى ·

وكتاب الله زاخر بالايات التى تحض على الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله · منها « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » و « ولا تقولوا لمن يقتـــل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون » و « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » و « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » ·

وكانت الكتب التى يبعث بها قواد المسلمين وملوكهم وأمرائهم فى الجهاد ضد الفرنج الغزاة مليئة بمثل هذه الايات التى تحض على الجهاد والتطوع فى الحرب المقدسة دفاعا عن المقدسات ودفعا لاولئك الغزاة الدخلاء عن البلاد التى كانوا ينزلون فيها · وقد وضعت خلال الحروب الصليبية المؤلفات العديدة فى أدب الجهاد وفى الحث على قتال أعداء الله ·

هذا عن الجهاد كمبدأ وعقيدة فى الاسلام ، وكضرورة سياســية وحربية استلزمتها سلامة الدولة العربيـــة وأمنها · وفى هذا تختلف المسيحية الاولى عن الاسلام اختلافا بينا · فقد كان الدين المسيحى فى أصله دين سلام بحكم الظروف التى صاحبت ظهوره فى أخريات التاريخ القديم · وكانت تعاليمه الاولى تنادى بالسلام وعدم الاقتتال وازهاق الارواح باعتبارها من الامور التى حرمها الله · وكانت ظروف العالم القديم وقتها مهيأة لقبول مثل هذه الافكار فى وقت كانت فيه الدولة الرومانية فى طريقها الى الزوال · ذلك أن المسيحية جاءت عقب الوثنية التى قامت على العنف والقتال واراقة الدماء ، والتى قامت على الحرية والانطلاق بحكم تعدد الالهة الوثنية · كذلك جاءت المسيحية عقب عبادة

الاباطرة ، وقد دعت المسيحية الى وحـدانية الله • وهـكذا كانت المسيحية بمثابة رد فعل للمفاهيم والمثل التى قام عليها العالم القديم •

ولكن عندما إنتصرت المسيحيـة فى أوروبا وتأصلت جذورهـا وبخاصة فى الغرب ، وبعد قيام دول مسيحية مختلفة هناك ، تغيرت نظرة الدين المسيحى لفكرة الحـرب التى أصبحت ضرورة تستلزمها مقتضيات الظروف الجديدة • وأصبح القتال فى سبيل المسيحية امرا عاديا • وكان القتال فى بادىء الامر بين المسيحية وبين بقايا العناصر الوثنية بعد اعتراف الامبراطور قسطنطين الكبير بها فىأوائل القرنالرابع• ثم تحول القتال بين المسيحية وبين جماعات الهراطقة الذين خـرجوا ببدع واراء أعتبرت خارجة عن تعاليم المسيحية ، كالاريوسية والنسطورية والدوناتية وغيرها • ومن أول من سمح بالقتال فى سبيل المسيحيـة القديس أوغسطين أوف هيبو فى كتابه المعروف باسم «مدينة الله» •

وساعد على انتشار وتطور فكرة الحرب المقدسة ذلك المجتمع الذى أصبح يغلب عليه الطابع العسـكرى أثر غزوات الجـرمان البرابرة واستقرارهم فى قلب أوروبا • وكان الجرمان من العناصر المقاتلة وقد استخدمهم الرومان فى أخريات عهدهم لحماية حدود دولتهم على الدانوب والراين • ولهذا كانت الحرب والفروسية من ألصق الاشياء بحياة الانسان فى تلك العصور ، وكان المحارب الشجاع يبرز فى ساحة الوغى ما تعلمه من فنون القتال ، ولذلك كان موضع التمجيد • وكانت هـذه الناحية من الاركان الاساسية التى قام عليها المجتمع الغربى الوسيط ، والتى عبرت عنها الفكرة الصليبية فيما بعد •

ونظرا لان الغرب كان يعانى الامرين بسبب انهيار الدولة الرومانية وغزوات الجرمان البرابرة الدامية ، فقد بذلت محاولات مبدئية للتخفيف من حدة القتال أو منعه حتى تستتب الامور وتستقر الاحوال بعد فترة غير قصيرة من الفوضى والاضطراب • ولهذا الهدف عقدت مجالس دينية

عديدة عملت على فرض ما يعرف باسم « سلم الله » الذى يرمى لحماية رجال الدين وممتلكات الكنيسة والفقراء من شرور القتال . كما عمل البعض على فرض ما عرف باسم «هدنة الله» التي نصت على الامتناع عن القتال فى يومى السبت والاحد وفى بعض الاعياد المقدسة . وهذا المحاولات وغيرها وان خففت من شدة الحرب بعض الشيء الا أنها لم تقض عليها نهائيا . وظلت روح القتال متمكنة من المجتمع الاوروبى فى الغرب ، كما ظلت مسيطرة على عقلية الفرد الذى عاش فى تلك القرون .

وقد رأت الكنيسة اللاتينية والبابوية فى الغرب أنه بدلا من العمل على منع القتال ، الاستفادة من هذه النزعة المتأصلة فى المجتمع الوسيط بتحويل مجراها الى وجهة أخرى تخدم مصالحها وتحقق أهدافها ، بل والعمل فيما بعد على تشجيعها بكل السبل والوسائل وتقديم التأييد الادبى والمادى والمعنوى لها وللمشتركين فيها . وكانت الظروف مواتية بالنسبة لها بظهور الاسلام فى بدايات القرن السابع على مسرح الاحداث العالمية . اذ بظهور الاسلام كقوة فعالة وامتداد الفتوحات العربية شرقا وغربا وبسط سيادة العرب على البحر المتوسط ـ أصبحت هذه القوة الجديدة الفتية الناهضة تشكل تهديدا للجزء الغربى من حوض البحر المتوسط . وأصبحت البحرية الاسلامية تغير على السفن الغربية التى تحاول عبور هذا البحر فى وقت كان فيه ميزان القوى فى صالح الدولة العربية ، بينما كان الغرب يعانى من الضعف والانحلال . وحدث فى عام ٨٤٦م ان حاصر المسلمون مدينة روما نفسها ، ولم يتركوها الا أنقاضا . كذلك استولت القوات الاسلامية على صقلية وجنوب ايطاليا فى أوائل القرن العاشر ، وباتوا يهددون فرنسا ذاتها . وأقاموا فى البلاد التى استولوا عليها مراكز يغيرون منها على البلدان الاوروبية القريبة . وجدير بالذكر فى هذا المقام أن هذه الإجراءات كانت ضرورية

لنشر الدين الجديد وتامينه وحماية الحدود العربية الجديدة من خطر المجتمعات المتاخمة لها شرقا وغربا ٠

وعندما أصبح المسلمون يهددون الغرب بصفة عامة وجنوب ايطاليا وروما على وجه الخصوص اعتبارا من القرن التاسع فصاعدا ، ظهر عنصر اخر على فكرة الحرب المسيحية المقدسة ، بقيام البابوات بدعوة مسيحيى الغرب للاشتراك فى القتال ضد المسلمين ٠ بل قام البابوات بتقديم كافة التسهيلات والمغريات لتشجيع الناس للانخراط فى هذه الحروب ٠ ولحقيق ذلك أعلن البابا ليو الرابع (٨٤٧ - ٨٥٥) أن كل من يموت دفاعا عن الكنيسة يعتبر شهيدا له الاجر والثواب عند الله ٠

ويقول المؤرخ الفرنسى فرديناند شالندون F. Chalandon الذى كتب عن الحرب الصليبية الاولى وممهداتها ، انه ابتداء من هذا الوقت تعتبر الحروب المسيحية الغربية ضد المسلمين فى غرب أوروبا حروبا مقدسة ٠ وذهب البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢م) الى ابعد من ذلك عندما وعد بغفران خطايا كل من يشترك فى هذه الحروب :

وجدير بالذكر أنه ظهرت فى النصف الاول من القرن العاشر بعض الاحلاف الغربية هدفها منازلة المسلمين ومنع توغلهم فى أوروبا ٠ وكانت اثار هذه المحاولات محدودة ، وان اعتبرت سابقة للتعاون اللاتينى الغربى ضد المسلمين من المحيط الى الخليج ٠

ومنذ أوائل القرن الحادى عشر بذلت محاولات جديدة لتكوين أحلاف مسيحية لاتينية للعمل على اخراج المسلمين من شبه جزيرة ايبيريا ٠ وكانت هذه الاحلاف هى النواة التى انبعثت منها الحركة التى أدت الى اجلاء المسلمين من أسبانيا اخر الامر ٠ وقد جذبت هذه المحاولات نظر جماعة كلونى الديرية التى كانت مهمتة بالامور فى شبه الجزيرة الايبيرية ٠ ونظرا للاتصال الوثيق بين جماعة كلونى والبابوية ، فقد استتبع

ذلك اهتمام البابوات والبابوية بالشئون الاسبانية ، وتشجيعهم للمحاولات المسيحية التى كانت تبذل فى هذا المضمار ، خاصة وأن البابوية كان يهمها القضاء على نفوذ المسلمين ، وتوسيع حدود العالم المسيحى الغربى فى هذه المنطقة ، وبسط نفوذها الديني والدنيوى عليه. وكانت هذه من الاركان الاساسية فى سياسة البابوات الخارجية من الحرب الصليبية .

وترتب على ذلك أن المقاتلين المسيحيين فى اسبانيا ، وبخاصة فى الممالك النصرانية فى الشمال وهى نافار وقشتالة وليون وأرجوان بدأوا يجدون تشجيعا من كلونى ومن البابوات . وكان هذا التشجيع فى بادىء الامر ينحصر فى مباركة المحاربين . ثم أخذ تدخل البابوية يزداد فى الشئون الاسبانية الى أن أمسكت بزمام هذه الحروب التى كانت قد اكتسبت صفة الحروب المقدسة . وفى العقد السابع من القرن الحادى عشر نجد البابا اسكندر الثانى (١٠٦١ - ١٠٧٣م) يقوم بجمع المحاربين ويعد من يقاتل منهم ضد المسلمين فى أسبانيا بغفران اثامه وخطاياه . ومنذ ذلك الحين أخذت سيول متدفقة من مسيحيى الغرب فى الانخراط فى سلك الحرب المقدسة ضد المسلمين فى أسبانيا .

واقتفى البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥م) خطى سلفه اسكندر الثانى فى تشجيع المسيحيين على مواصلة القتال هناك ، وفى الدعوة للحرب المقدسة ومنح ميزات روحية للمشتركين فيها . وكان من اثر ذلك أن أعلنت سيادة البابوية على ممالك اسبانيا المسيحية فى الشمال . وتشجيعا للمقاتلين وعدهم جريجورى بغفران خطاياهم وبحقهم فى الاحتفاظ بالاراضى التى يستولون عليها من المسلمين كاقطاع خاص بهم .

جاء بعد جريجورى بابا ضعيف الشخصية هو فيكتور الثالث (١٠٨٧م) الذى لم يعمر طويلا على الكرسى البابوى . ثم جاء بعده البابا الشهير اربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) الذى واصل نفس السياسة

التى سار عليها أسلافه فى الميدان الخارجى التى تتكون من الخصائص الاسياسية للحلقة التالية من الحروب المسيحية الغربية المقدسة ضد المسلمين ، ونعنى بها الحركة الصليبية ·

وخلاصة القول ان القتال لم تكن المسيحية تنص عليه فى فجر تاريخها ، بعكس الحال فى الأسلام حيث كان الجهاد مبدأ وعقيدة · وكان ذلك نتيجة للظروف والملابسات التى أحاطت بظهور كل من الاسلام والمسيحية · ثم أصبحت الحرب عنصرا هاما فى المسيحية بسبب ظروف أخرى عديدة · وقد تطورت الحرب المقدسة فى غرب أوربا من حرب كان هدفها فى بادىء الامر خدمة الكنيسة اللاتينية والعمل لما فيه صالح المسيحية وذلك فى عصورها الاولى ، ثم الى حروب فردية ، وبعد ذلك أخلاف منظمة القصد منها ابعاد المسلمين من شبه جزيرة ايبيريا · واتخذت منذ ذلك الحين صفة الحرب المقدسة · وكانت هذه فرصة ذهبية لتدخل بابوية روما فى تلك الحروب والاشراف عليها تحقيقا لسياستها القديمة ، فى محاولة بسط نفوذها دينيا ودنيويا على العالم المسيحى فى غرب أوربا كله ، بما فى ذلك أسبانيا باستثناء الاجزاء التى يحتلها المسلمون ، والتخلص كذلك من مناوئة كبار رجال الاقطاع لها باشراكهم فى الحروب المذكورة ووعدهم بغفران خطاياهم والاستشهاد لمن يموت منهم أثناء القتال ، وغير ذلك من الميزات الروحية والمادية التى منحتها لهـــــم ·

العــــامل الخـــامس

ضــعف الدولة البيزنطيـــــــة

وتقدم الاتراك الســـلاجقة فى أراضيها

رأينا كيف اتجهت أنظار البابوية الى الغرب قبيل قيام الحركة الصليبية بفترة غير قصيرة · وفى السنوات القلية السابقة لهذه الحركة

لفتت نظرها أحوال الدولة البيزنطية فى الشرق • ذلك أنه منذ الفتح العربى كانت الحرب متصلة بين المسلمين والدولة البيزنطية • وقد تمكنت بيزنطة من صد هجمات المسلمين على عاصمتها لعدة قرون ، وحالت دون تقدمهم فى شرق أوروبا حتى لقد أعتبرت حامية أوروبا المسيحية ضد الاسلام فى الشرق •

وفى الفترة السابقة لقيام الحروب الصليبية تربع على عرش بيزنطة عدد من الاسر التى تارجحت بين القوة والضعف ، فى وقت كان فيه زمام المبادأة لا يزال فى قبضة المسلمين ، ومركز الثقل يميل بقوة الى جانبهم • واستمر الحال هكذا حتى أواسط القرن التاسع الميلادى عندما بلغت الامبراطورية البيزنطية ذروة عظمتها فى عهد أسرة من أقـــوى الاسرات التى حكمت بيزنطة ، وهى الاسرة المقدونية التى امتد حكمها من سنة ٨٦٧ الى سنة ١٠٥٩م •

كانت الدولة البيزنطية وقتها فى حالة من القوة والتماسك تسـمح لاباطرتها بالتفكير فى التوسع على حساب جيرانها المسلمين • وكانت الخلافة العباسية وقتها تمر بفترة ضعف وتدهور • ففى عهد مؤسس الاسرة الامبراطور بازيل الاول (٨٦٧ ـ ٨٨٦م) بدأ الصراع بين بيزنطة والمسلمين فى الشرق الادنى ، وكانت نتائجه لصالح بيزنطة وان لم تكن ملموسة أو واضحة بعد • وفى عهد كل من قسطنطين السابع (٩٤٥ ـ ٩٥٩م) وابنه رومانوس الثانى (٩٥٩ ـ ٩٦٣م) استولت الامبراطورية على جزيرة كريت ، كما استولى تقفور فوكاس وهو قائد على جيش رومانوس على مدينة حلب ولكنها سرعان ما عادت الى المسلمين • وترجع عظمة تقفور فوكاس عندما تربـــع على العرش (٩٦٣ ـ ٩٦٩م) الى استيلائه على صقلية وقبرص وأنطاكية • وفى عهد يوحنا تزمسكيس (٩٦٩ ـ ٩٧٦م) بلغت الدولة البيزنطية أقصى توسع لها على حساب جيرانها المسلمين عندما وصلت جيوشها الى مشارف بغداد والبيت المقدس حسبما سبق أن ذكرنا •

ولكن ما أن انقرضت الاسرة المقدونية وحلت محلها فى الحكم اسرة دوكـاس (١٠٥٩ - ١٠٨١م) حتى اختلت الامور داخـل الامبراطورية وخارجها ،وعمت الفوضى والاضطرابات التى شغلت الحكام عن مواصلة حروبهم الخارجية ، كما ضعف الجيش نتيجة لانشغاله فى المنازعات والحروب الداخلية ٠

وانتهز الاعداء المتربصون بها هذه الفرصة المواتية ، فقاموا بتوجيه ضرباتهم ضد الحدود الشرقية والغربيـــة للامبراطورية ٠ فاستولى النورمان على مدينة بارى جنوب ايطاليا سنة ١٠٧١م ، وعبروا بعد ذلك البحر الادرياتى الى ساحل البلقان ، وباتوا يهددون القسطنطينية نفسها ٠ وكان الدوق النورماندى روبرت جيسكار يفكر بالفعل فى غزو عاصمة بيزنطة ٠ ففى عام ١٠٨١م عبر النورمان البحر الادرياتى لتنفيذ هذا المشروع ، وان كانوا قد فشلوا فى تحقيقه ٠ ويعتبر فريق من المؤرخين، ومن بينهم المؤرخ لويس هالفن ، ان هذه الحروب هى من نوع الحروب التوسعية الاقطاعية التى تركت جرحا لا يندمل فى بيزنطة عندما احتك اللاتين الغربيون بالاغريق بأعداد هائلة فى الحملة الصليبية الاولى ، حيث قامت العلاقات بينهما على الشك وعدم الثقة وسوء التفاهم ٠

وفى نفس هذا الوقت تجمع الاتراك السلاجقة على حدود أرمينية البيزنطية استعدادا لغزو اسيا الصغرى ٠ وكان هذا العنصر من أخطر أعداء الدولة البيزنطية ٠ وقد بدأ هذا العنصر التركى هجومه على أملاك الدولة الفاطمية ٠ وكانت فى ذلك الحين فى طور الاحتضار ، اذ كانت السلطة الفعلية فى أيدى الوزراء والخلفاء لاحول لهم ولاطول ليس لهم من الخلافة سوى الاسم ٠ وفى زحمة هذه الظروف استولى السلاجقـة على مدينة بيت المقدس من الفاطميين سنة ١٠٧٠م ، وهى التى كانت لها عند مسيحيى الغرب ذكريات وماض طويل تثيرها فى نفوسهم حركة الحج وقرون من الشوق والتلهف لرؤيتها وزيارتها ٠ وبعد ذلك اتجهت

جحافل السلاجقة نحو اسيا الصغرى ، وكانت انئذ تحت حكم الامبراطورية البيزنطية • وألحقوا بجيوش الامبراطورية هزيمة منكرة فى موقعة ملاذكرد سنة ١٠٧١م التى تعتبر من المواقع الهامة الفاصلة ليس فى التاريخ البيزنطى فحسب ، وانما فى تاريخ الحروب الصليبية نفسها • ففيها تمكن السلطان السلجوقى ألب أرسلان من الحاق شر أنواع الهزيمة بالامبراطور البيزنطى رومانوس الرابع نتيجة لجهله بفنون الحرب والقتال • ويعتبر المؤرخ ستيفن رانسيمان موقعة ملاذكرد نقطة تحول فى التاريخ البيزنطى ، خاصة وأنها حدثت بعد استيلاء التركمان على بيت المقدس بسنة واحدة ، وفى نفس السنة التى وقعت فيها مدينة بارى الايطالية فى قبضة النورمانديين •

وواصل الاتراك السلاجقة تقدمهم على حساب الدولة البيزنطية ، وتوغلوا فى اسيا الصغرى واستولوا على أزمير ونيقية • وفى عام ١٠٧٥م وقعت مدينة انطاكية فى قبضتهم ، وأصبحت بيزنطة تواجه خطر هجوم السلاجقة على القسطنطينية نفسها • ويمكن القول أنه لولا قيام الحرب الصليبية فى هذا الوقت بالذات ، وانشغال السلاجقة مع الصليبيين لوقعت الدولة البيزنطية فى قبضة هذا العنصر التركمانى •

وفى ظل هذه الظروف السيئة التى أحاطت بالدولة البيزنطية من كل جانب ، انقرضت أسرة دوكاس لتحل محلها أسرة قوية هى أسرة كومنين (١٠٨١ - ١١٨٥م) • وكان الامبراطور الذى يحكم بيزنطة وقتها هو مؤسس تلك الاسرة الكسيس الاول كومنين (١٠٨١ - ١١١٨م) الذى عاصر الحملة الصليبية الاولى ، وكانت له فيها جولات وصولات مع العرب واللاتين على السواء •

كان اذن من حسن حظ بيزنطة أن ولى أمرها وقتذاك الكسيس كومنين • لقد كان هذا الرجل بشهادة المؤرخين من شرقيين وغربيين - وعلى رأسهم ابنته الاميرة ان كومنين - رجل دولة ممتاز •كما كان سياسيا

محنكا من الطراز الاول ، يعرف كيف يعالج الامور والازمات التى تواجهه وكيف يعد لكل أمر عدته ، ومتى يستخدم الشدة أو اللين • كان شديد الذكاء والدهاء ، بعيد النظر ، خبيرا بمجريات الامور والاحوال • كان يعرف جيدا كيف يعد نفسه لكافة الظروف والاحتمالات • كل هذا كان له أثره فى توجيه سياسة بيزنطة فى فترة حكمه ، وفى أبعاد الاخطار المحدقة بها ، أو على الاقل فى تأجيل حدوثها • فلولا السياسة التى اتبعها مع اللاتين الغربيين التى كانت تتسم بالعنف تارة واللين تارة أخرى ، طبقا لما تقتضيه الظروف والاحوال ، ولولا تلك السياسة المرنة الحازمة لوقعت بيزنطة فى قبضتهم مبكرا فى أخريات القرن الحادى عشر • الا أن هذه السياسة كان لها أثرها الفعال فى تأخيروقوع هذا الحدث حوالى قرن من الزمان عندما استولى الصليبيون على القسطنطينية فى الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م ، وأحالوها الى امارة لاتينية تضاف الى اماراتهم الاخرى فى الاراضى المقدسة ، وتحقق بذلك هدف من أهداف الحركة الصليبية نفسها •

على أية حال ، لقد أنقذ هذا الرجل الامبراطورية مما حل بها من ضعف وانقسام فى الداخل • وكان عليه بعد أن دانت له السلطة أن يحارب بدون انقطاع فى كافة الجبهات • وقد تمكن عن طريق الحرب تارة والدهاء والسياسة تارة أخرى من ابعاد النورمان عن دول البلقان بعد حروب دامية مع روبرت جيسكار وابنه بوهيمند استمرت من سنة ١٠٨١ الى سنة ١٠٨٥م •

وفى تلك الاثناء كانت الدولة السلجوقية قد اخذت تتحول الى أجزاء اقليمية على كل منها سلطان تابع للسلطان السلجوقى الاعظم ملكشاه فى بغداد • وكانت هذه الدولة لا تزال فى عنفوان قوتها على الرغم من توزيعها بين سلاطين تابعين للسلطان الاعظم • لذا كانت فتوحاتها مستمرة فى اسيا الصغرى على حساب الدولة البيزنطية •

وكان نجاح الكسيس فى معالجة مشاكله الداخلية والخارجية بالقوة مرة وبالسياسة والدبلوماسية مرة أخرى ، مما جعله يحاول نفس الاسلوب مع دولة سلاجقة الروم فى اسيا الصغرى ، وذلك باثارة القوى السلجوقية بعضها على بعض • ومع ذلك ، لم يحرز نجاحا يذكر ، ولم يستطع ان يجلى السلاجقة عن المناطق التى استولوا عليها فى اسيا الصغرى • وكل ما أمكن عمله هو ايقاف زحفهم وتوغلهم فى امبراطوريته فترة من الزمن •

وحيال هذا الخطر الذى بات يهدد الدولة البيزنطية ، واصل الكسيس كومنين سياسة سلفه الامبراطور ميخائيل السابع من أسرة دوكاس فى الاستنجاد بأهل الغرب اللاتينى لدفع خطر السلاجقة عن عاصمته • وكان من الطبيعى أن تصادف هذه الدعوة هوى فى نفس البابوية تحقيقا لاغراضها فى غرب اوروبا ، وتنفيذا لسياستها فى هذا الشأن •

تلك هى الحال التى كانت عليها الدولة البيزنطية فى السنوات القليلة السابقة لقيام الحركة الصليبية • محاولات عديدة فى الجبهتين الغربية والشرقية للاستيلاء على أملاكها ، وعيون متجهة اليها تنتظر الفرصة المواتية للانقضاض عليها وابتلاعها • فالنورمان وغيرهم من العناصر اللاتينية لهم معرفة سابقة بأحوال بيزنطة وثرائها الفاحش ، عن طريق الجند المرتزقة الذين كانوا يعملون فى خدمتها ، وبحكم اتصالهم بها فى الجبهة الغربية • كذلك كان السلاجقة فى الجبهة الشرقية يعلمون مدى الضعف الذى وصلت اليه هى والخلافة وقتذاك • وباتوا يتحينون اللحظة المناسبة للقيام بهجومهم الكبير فى المنطقة وان كانت الحرب الصليبية الاولى قد حالت بينهم وبين تنفيذ مشروعهم بعد أن اضبحوا وجها لوجه أمام اللاتين الغزاة الوافدين من الغرب •

وفى غمرة هذه الاحداث المتلاحقة بدأت البابوية فى الغرب

تفكر جديا فى نقل ميدان الحرب المسيحية الغربية المقدسة من الغرب الاوروبى الى الشرق الاسلامى ، مستغلة فى ذلك استغاثة أباطرة بيزنطة بها لدفع خطر السلاجقة عن دولتهم ٠

العامل السادس

الاحوال السياسية والاقتصادية والدينية فى الغرب قبيل الحركة الصليبية

وبالاضافة الى ما تقدم من العوامل التى أسهمت فى التمهيد للحركة الصليبية وتهيئة الجو لقيامها ، فقد ساءت أحوال المجتمع الغربى الى حد بعيد ، الامر الذى ساعد على نجاح دعوة البابا اربان الثانى فى أخريات القرن الحادى عشر ٠

لقد كان الغرب الاوروبى وقتذاك مرتعا للفوضى والفساد فى شتى النواحى والمجالات ٠ اذ استشرى الفساد فى الجهاز الكنسى البابوى ، وأخذت المسيحية تسير بخطى سريعة نحو التدهور والانحلال على أيدى الجميع من رجل الدنيا والدين ، ومن بينها الرشوة والسيمونية وزواج رجال الدين وبيع صكوك الغفران وانهيار الرهبنة والديرية وانغماس البابوية فى المسائل العلمانية ٠ يضاف الى ذلك أنه فى السنوات القليلة السابقة للحركة الصليبية تعرض الغرب لازمات اقتصادية عنيفة ومنها حصول الفيضانات وانتشار الاوبئة والمجاعات وتفشى المرض والفقر وتزايد عدد السكان تزايدا خطيرا ٠ وقد وقع كل هذا بصفة خاصة فى عامى ١٠٩٤ و ١٠٩٥م ، أى قبل دعوة اربان بعامين ٠ ثم أن الحياة القاسية التى كان يحياها عبيد الارض فى ظل الاقطاع الذى كان قد بلغ ذروته وقتذاك فى غرب أوروبا ، جعلهم يرغبون فى التخلص من قيود الاقطاع والتزاماته ، ووجدوا فى الحروب الصليبية المخرج والخلاص

كما يقول المؤرخ لويس بريبيه ٠ كما وجد فيها النبلاء فرصة مواتية لتوسيع اقطاعياتهم وامتلاك أراض جديدة بعد أن ضاق الغرب بهم وبمطامعهم ٠ ثم ان انتشار الرؤى والمنامات والتنبؤات والاساطير الدينية التي نادت بقرب ظهور السيد المسيح ، كان لها أثرها فى اشتراك الناس فى الحملة لضمان الذهاب الى بيت المقدس للحصول على التوبة والغفران قبل أن يلتقوا بربهم ٠

ويلقى ضوءا واضحا على الاحوال السائدة فى الغرب قبيل الحملة الصليبية الاولى ، من سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية ، أحد المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة من الزمان وهو المؤرخ الفرنسى فوشيه دى شارتر ٠ فهو يستعرض فى كتابه المعنون «أعمال الفرنجة الحاجين الى بيت المقدس » ، ولاة الامر فى الغرب عندما اعلن البابا اربان الثانى من مدينة كليرمون فى اواخر عام ١٠٩٥ قيام الحرب الصليبية ٠ وأوضح أن الغرب كان مسرحا للفوضى والفساد اللذين شملا شتى مرافق الحياة ٠ كما تحدث بشجاعة عن الفساد الذى تغلغل فى الجهاز الكنسى البابوى ، والصراعات بين كبار رجال الاقطاع التى تكاد لا تنقطع ، وما سببته من كوارث وويلات ٠ وانتقل الى الحديث عما اصاب الاماكن المقدسة فى الشرق انذاك من خراب ودمار ، فى الوقت الذى استولى فيه السلاجقة على بعض املاك الدولة البيزنطية فى اسيا الصغرى ، وتهديدهم لعاصمتها القسطنطينية ٠ وقال ان هذه الظروف مجتمعة هى التى حدت بالبابا الرومانى الى عقد مؤتمر كليرمون الكنسى والدعوة الى الحرب الصليبية ٠

العامل السابع

العامل الدينى واثره فى قيام الحركة الصليبية

ولا يخلو كتاب من كتب الحروب الصليبية من الاشارة الى العامل

الديني ، وتحديد مدى اسهامه فى قيام الحروب الصليبية • كما ظهرت دراسات مستفيضة فى هذا الشأن تعبر عن وجهات نظر متباينة • فثمة فريق من المؤرخين يعتبره عاملا اساسيا فى قيام تلك الحروب ، بينما يرى فريق اخر انه مجرد عامل ساعد على قيامها ، او بكلمة أدق ، هيا الجو لقيامها .

والامر الذى لا خلاف بشأنه ان تلك الحروب تعبر عن روح العصور الوسطى فى اوروبا اصدق تعبير فى ناحيتين هامتين هما ناحية الدين وناحية الحرب • وليس أدل على ذلك من تسميتها ، فهى حرب وصليب• والحرب ترتبط بالعناصر الجرمانية التى نزلت فى غرب اوروبا فى أخريات التاريخ القديم ، وقضت على الامبراطورية الرومانية ، واقامت لها على انقاضها دولا وممالك جديدة ذات أنظمة واوضاع مغايرة لما كان سائدا من قبل • وهذه العناصر هى فى الاصل عناصر محاربة • وقد وجدت فى الحركة الصليبية متنفسا لها لاشباع رغبتها القديمة الدفينة ، ولاظهار مقدرتها فى فنون القتال فى وقت اصبحت فيه الحرب هى صناعة الفارس الاولى •

هذا عن الحرب ، اما الدين - وهو الذى يهمنا هنا - فيرتبط بالمسيحية وكنيستها التى أصبح لها مع الزمن سلطة واسعة ، وغدت من الصق الاشياء بحياة الناس الخاصة والعامة فى ذلك الحين • اذ هيمنت على مصائرهم ومقدراتهم ، لها الامر والنهى ، وعلى الجميع السمع والطاعة • وليس ادل على ذلك من قول مؤرخ عاصر بداية الحركة الصليبية ، هو روبرت الراهب ، ومن انها من عمل الله وليس من عمل الانسان • بينما ردد صدى هذا القول واكده احد المؤرخين الغربيين الحديثين ، هو الكونت بول ريان ، عندما ذكر انها حروب دينية خالصة ، وان دوافعها واهدافها دينية بحتة ، وان هدفها الاول والاخير هو تحرير قبر المسيح وتخليص بيت المقدس من قبضة المسلمين •

وليس مستغربا فى مثل هذا العصر السحيق عندما كان الغرب يشكل وحدة واحدة فى مجموعه على رأسه الجهاز الكنسى البابوى يمسك بزمام الامور بيد من حديد وقد نمت وازدادت سلطته نتيجة ظروف عديدة متشابكة معقدة ، بينما لم تكن القوميات قد ظهرت بعد - ليس مستغربا ان يمسك هذا الجهاز بزمام الحركة الصليبية بعد ان امسك بزمام الحروب المسيحية الغربية المقدسة ضد المسلمين فى الجنوب الاسبانى . فقد عرف هذا العصر فى الغرب باسم « عصر الايمان » وبلغ من اشراف البابوية على الحركة الصليبية انها هى التى اعلنت قيامها ، وهى التى دعت اليها وباركتها وشجعت المقاتلين على الاشتراك فيها . وهى التى منحتهم مختلف الامتيازات والاعفاءات الروحية والمادية اغراء لهم وترغيبا . وهى التى كان لها مندوب بابوى يمثلها فى كل حملة من الحملات الصليبية .

ومع كل ما تقدم يجب ان نعرف ان العامل الدينى وحده لم يكن ليكفى لقيام حركة خطيرة كالحركة الصليبية ، تركت اثارها على مجريات الاحداث وقتها ولقرون عديدة تالية . لقد استغله الجهاز الكنسى البابوى بهدف اثارة الحماسة الدينية لدى اهل الغرب تحقيقا لاغراض عديدة ، من بينها سعى الكنيسة الغربية الكاثوليكية لبسط نفوذها الدينى على العالم المسيحى المعروف وقتها بأجمعه ، وكذلك القضاء على النفوذ الاسلامى فى الاراضى المقدسة ، والتخلص من كبار رجال الاقطاع فى الغرب الذين كانوا مصدر متاعب ومضايقات بالنسبة لها فى وقت كانت تسعى فيه لفرض سلطانها الدينى والدنيوى على الغرب الاوروبى بأكمله . ويكفى لتعزيز ذلك والتدليل عليه ، انه عندما انغمست البابوية فى الصراع العلمانى ضد الاباطرة والملوك فى الغرب ، قل حماسها للحرب الصليبية ضد المسلمين ، بينما دعت الى حملات صليبية من نوع اخر لاستئصال شأفة آل هونشتاوفن الالمان الذين سعوا الى سلبها نفوذها

وسلطانها فى الغرب • مثال ذلك حملاتهـا الصليبية ضـد الامبراطور فريدريك الثانى وابنه كونراد الرابع •

لقد كشف عن ذلك عدد من المؤرخين الغربيين الحديثين ، واضعين النقاط فوق الحـروف • من هؤلاء رينيـه جروسـيه ولويس هالفن الفرنسيان ، وجورج تريفيليان وبرنارد لويس الانجليزيان • ويكفى ، هنا ، اقتباس ما قاله برنارد لويس بهذا الخصوص • يقول فى كتابه «العرب فى التاريخ» ان الحروب الصليبية كانت « اول محاولة مبكرة فى التوسع الاستعمارى للغرب الاوروبى ، تحركها اعتبارات مادية ودنيوية، ويغلفها الدين كعامل نفسانى» • وهذا القول غنى عن اى تعليق •

كل هذه الظروف والعوامل ، متجمعة متكاتفة ، أدت الى اقبـال الناس فى الغرب الاوروبى ، من مختلف الاجناس ، ومن مختلف الفئات والطوائف والطبقات ، على الاشتراك فى الحركة الصليبية عندما دعا اليها البابا اربان الثانى فى مؤتمر كليرمون فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥م وعندما صاح اولئك الذين سمعوا خطبته صيحتهم المشهورة « هذه هى ارادة الله » •

مراجـع عن الحـروب الصـليبية

أولا ـ مراجـع عربيـة

احمد احمد بدوى :

الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، القاهرة (بدون تاريخ) ·

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

- الدافع الشخصى فى قيام الحركـة الصليبية · انظـر كتاب : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصـور الوسطى ، ط· اولى ، الاسكندرية ١٩٨٣ (ص ٤ ـ ٣٤) ·

- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى ، ط· رابعة . الاسكندرية ١٩٨٣ ·

- الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبى ، ط· ثانية ، بيروت ١٩٨١ ·
- العدوان الصليبى على مصر ، ط· ثالثة ، الاسكندرية ١٩٨٤ ·

- العدوان الصليبى على بلاد الشام ، ط· خامسة ، الاسكندرية ١٩٨٤ ·

- العدوان الصليبى والرأى العام الغربى · أنظر كتاب : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى . ط· اولى ، الاسكندرية ١٩٨٣ (ص ٣٥ ـ ٦٢) ·

حسن حبشى (دكتور) :

- الحرب الصليبية الاولى ، القاهرة ١٩٤٧ ·

– نور الدين والصليبيون ، القاهرة ١٩٤٨ ٠
– الشرق العربى بين شقى الرحى : حملة القديس لويس على مصر والشام ، القاهرة ١٩٤٩ ٠

زكى النقاش (دكتور) :

العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج . بيروت ١٩٥٨ ٠

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

– قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ ٠
– الحركة الصليبية ، ٢جـ ، القاهرة ١٩٦٣ ٠
– مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩

السيد الباز العرينى (دكتور) :

– مصر فى عصر الايوبيين ، القاهرة ١٩٦٠
– مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢ ٠

عبد الرحمن زكى (دكتور) :

معركة المنصورة وأثرها فى الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٠ ٠

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٦٦ ·

عزيز سوريال عطية (دكتور) :

نقد مؤلفات جروسيه عن الحرب الصليبية وعن فلسفة التاريخ ، انظر المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الاول ، القاهرة ١٩٤٨ ، (ص ٣١٢ - ٣٢٢) ·

عمر كمال توفيق (دكتور) :

- مملكة بيت المقدس الصليبية ، الاسكندرية ١٩٥٨ ·
- الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الاراضى المقدسة ، الاسكندرية ١٩٥٩ ·
- مقدمات العدوان الصليبى : الامبراطور يوحنا تزمسكيس وسياسته الشرقية ، الاسكندرية ١٩٦٩ ·

محمد سيد كيلانى :

الحروب الصليبية واثرها فى الادب العربى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٤٩ ·

محمد عبد الله عنان :

بين الشرق والغرب : فكرة الحروب الصليبية ، انظر مجلة الهلال ، ج٧ ، السنة ٣٤ ، ابريل ١٩٢٦ (ص ٧٠٩ - ٧١٤) ·

محمد مصطفى زيادة (دكتور) :

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، القاهرة ، ١٩٦١ .

نظير حسان سعداوى (دكتور) :

— ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ .

— الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، القاهرة ١٩٦١ .

ثانيا — مراجع معربة

بـــاركر (أ.) :

الحروب الصليبة ، ترجمة السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٦٠ .

جوانفيل (جان دى) :

القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمـــة وتعليق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨ .

رنسيمان (س.) :

الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، ٣ جـ ، بيروت ١٩٦٧ — ١٩٦٩ .

كـــلارى (ر.) :

فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٤ .

مونروند (م•) :

تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب ، ترجمه من الفرنسية الى العربية مكسيموس مظلوم ، ٢ جـ، اورشليم ١٨٦٥ •

ثالثا ـ مراجـع أجنبيـة

Archer, T. and Kingsford, C., The Crusades, London, 1919.

Atiya, A. S.,

— The Crusade of Nicopolis, London, 1934.
— The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.
— Crusade, Commerce and Culture, Bloomington, 1962.
— The Crusade : Historiography and Bibliography, Bloomington, 1962.

Barker, E., The The Crusades, London, 1925.

Bréhier ,L., L'Eglise et l'Orient au Moyen Age: Les Croisades, Paris, 1928.

Cahen, C., La Syrie de Nord a l'époque des Croisades, Paris, 1940.

Calthrop,.M., The Crusades, London [N. D.].

Campbell, G., The Crusades, London, 1935.

Chalandon, F.,

— Essai sur la Règne d'Alexis ler Comnène, Paris, 1900.
— Histoire de la Premiére Croisade jusqu'à l'election de Godefroi de Bouillon, Paris 1925.

Conder, C. R., The Latin Kingdon of Jerusalem, 1099 - 1291 A.D., London, 1897.

Funck - Brentano, F., Les Croisades, Paris, 1934.

Gibbon, E., The Crusades, London, 1870.

Grousset, R., Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, 3 vols., Paris, 1948.

Iorga, N.,

Brève Histoire des Croisades et de leurs Fondations en Terre Sainte, Paris, 1924.

Lacroix, P., La Chevalerie et les Croisades, Paris, 1887.

Lamb, H.,

The Crusades: The Flame of Islam, London, 1931.

Ludlow, J. M.,

The Age of the Crusades, Edinburgh, 1897.

Maimbourg, P., Histoire Universelle des Croisades d'après les principaux historiens, Paris, 1868.

Mayer, H. E.,

— Kreuzzüge und lateinscher Osten, London, 1983. (Reprint).
— Probleme des lateinischen Königreichs Jerusalem, London, 1983. (Reprint).

Michaud, M.,

— Histoire des Croisades, 7 vols., Paris, 1819 - 1822.
— Bibliographie des Croisades, 2 vols., Paris, 1822.

Richard, J., Croisés Missionnaires et Voyageurs : Perspectives orientales du monde latin médiéval, London, 1983. (Reprint).

Röhricht, R., Geschichte des Königreichs Jerusalem (1100 - 1291), Innsbruck, 1898.

Runciman, S., A History of the Crusades, 3 vols., Cambridge, 1954 - 1955.

Schlumberger, G. Recits de Byzance et des Croisades, Paris, 1917.

Setton, K. M. (ed.), A History of the Crusades, Vol. I: The First Hundred Years, ed. by M. W. Baldwin, Philadelphia, 1958.

Stevenson, W., The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.



الموضـــــوع الرابـــع

الوحدة وحركات اليقظـــة العربية

ابان العدوان الصـــليبى

- البحر المتوسط « بحيرة عربية » ٠
- الحركة الصليبية عدوان استعمارى ٠
- بربرية الفرنج وتحضر العرب ٠
- توازن القوى بين العرب والفرنج ٠
- يقظة العرب فى القرن السادس الهجرى (القـــرن الثانى عشر الميلادى) ٠
- المغول والعدوان الصليبى ٠
- العدوان الصليبى فى القرن الثامن الهجرى (القرن الرابع عشر الميلادى) ٠
- يقظة العرب فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة (القرنان الرابع عشر والخامس عشر الميلادى) ٠
- آراء واستنتاجات ٠
- المصادر والمراجع ٠
- الخرائـــط ٠



لايهدف هذا البحث الى دراسة العدوان الصليبى بتفاصيله ودقائقه . فهذا موضوع كتب فيه وفى مختلف جوانبه أساتذة متخصصون فى الشرق والغرب . ثم أنه موضوع أكبر من أن تتسع له بضع صفحات . وانما يهدف أساسا الى القاء نظرة موضوعية شاملة على منطقة الشرق الادنى العربى التى كانت مسرحا للعدوان الصليبى مدة ثلاثة قرون أو يزيد ، وذلك فى محاولة للتعرف على الجنبات الرئيسية للعدوان ، واستخلاص النتائج الجوهرية المرتبطة بها ، وما تكشف عنه من آراء واستنتاجات وأحكام لها مغزاها ودلالتها .

لقد أصبحت الحركة الصليبية معروفة لنا من وجهة النظر الغربية . لكنها ، اذ تعتبر عدوانا توسعيا تعرض له العالم العربى الاسلامى فى عصر من عصوره ، لا تزال تنتظر المزيد من البحوث والدراسات التحليلية ، لاستجلاء ما غمض من خباياها . وهذا هو عين النقص الذى يشوب الكتب والمراجع الاجنبية ، التى تناولت تاريخ تلك الحركة على نحو يعبر عن وجهة نظر واحدة ، أتسمت بعدم الحيدة وخرجت لا تصور الحقيقة والواقع . وجاءت مبتورة مبتسرة معبرة عن شق واحد من أصول البحث دون الشق الآخر .

وكان طبيعيا أن تعتمد هذه الدراسة التحليلية على العديد من المصادر عربية وغير عربية . فأما المصادر العربية فمنها ما هو خطى لم ينشر بعد . وما هو مطبوع . وأما الاصول الاجنبية فمنها اللاتينى والبيزنطى والارمينى ، وبعضها لا يزال بلغاته الاصلية التى كتب بها ، والبعض الآخر ترجم الى اللغات الاوربية الحديثة . يضاف الى ذلك المراجع العربية والاجنبية فى تاريخ مصر والشرق الادنى فى العصر الاسلامى ، وتاريخ العصر الصليبى ، وتاريخ العصور الوسطى بصفة عامة .

والامل كبير أن يكون هذا البحث وغيره من البحوث التى ظهرت

أخيرا فى المكتبة العربية ، فاتحة لدراسات جديدة فى هذا الميدان الهام تلقى الضوء على ما خفى من زواياه ، وتكشف للعروبة حركة من سلسلة الحركات العدائية التى تعرضت لها على مدى التاريخ ٠

البحـــر المتوسط « بحيرة عربية »

فى أخريات القرن الخامس الميلادى سقطت روما فى أيدى العناصر الجرمانية المتبربرة ، وبذلك أنتهت دولـــة القياصرة الاقدمين ، وأقـــام الجرمان على أنقاضها ممالك لهم فى غربى البحر المتوسط ٠ هذا ، بينما انتقل الاباطرة الرومان الى الشرق ، وجعلوا من القسطنطينية عاصمة لدولتهم الجديدة ، ونعنى بها دولة الروم الشرقية أو الدولة البيزنطية التى كانت تسيطر فى ذلك الحين على شبه جزيرة البلقان والحوض الشرقى للبحر المتوسط (١) ٠

هكذا أنهارت الدولة الرومانية القديمة ، وبدأت العصور الوسطى فى جو من الفوضى والاضطراب ٠ وفى هذا يقـــول المؤرخ الكبير ادوارد جيبون E. Gibbon فى كتابه المسمى « انهيار وســـقوط الامبراطورية الرومانية » ، انه انما يمسك بقلمه لكى يسرد سيرة مليئة بحـــوادث التدهور والانحطـــاط التى تغلبت فيها البربريـــة والدين على النظام والحضارة ٠ (٢) والمقصود بذلك تغلب الجرمان والمسيحية على الجهاز

(١) Cf. N. F. Cantor (ed.), The Medieval World, New York, 1963, 10, 15, 67 ff.; J. L. LaMonte, The World of the Middle Ages, New York, 1949, 5 ff., 40 ff.; S. Kats, The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe, New York, 1960, 73, 85, 93, 98 ff.; S. Painter, A History of the Middle Ages, London, 1966, 18 ff., 33 f., 62 ff.

(٢) أنظر رأى جيبون فى الكتاب التالى Cantor, op. cit., 10-11.:
راجع أيضا تعليق كولتون على رأى جيبون فى كولتون (ج٠ج) : عالم العصور الوسطى فى النظام والحضارة ـ ترجمـة وتعليق د٠ جوزيف نسيم ـ ط ٠ رابعة ـ الاسكندرية ١٩٨٤ ـ ص ١٠ـ١١ و١٣ ٠

الرومانى العتيق ، أو بكلمة أخرى أنهيار المدنيه وبداية البربريه فى التاريخ الاوروبى •

واستمر الغرب الاوروبى ودولة الروم يعانيان من حالة الضعف هذه حتى أوائل القرن السابع الميلادى • ففى العقود الاولى من هذا القرن وقعت فى شبة الجزيرة العربية أحداث كان لها اهميتها البالغة وآثارها البعيدة المدى فى تطور التاريخ البشرى • اذ ظهر الاسلام يدعو الناس عامة الى عبادة الله وحده ونبذ الاصنام ، والعرب بخاصـــه الى الاتحاد والتآلف والمحبة ونبذ الفرقة والخلاف • ولم تمض بضع سنوات حتى كانت هذه الدعوة الجديدة قد تمكنت ، ودانت لها كافة القبائل العربية المشـــتتة المتنازعة ، التى أصبحت ترى فيها رمز وحدتها وشعار مجدها وأمـــل مستقبلها • وعلى هذا الاساس قامت الدولة العربيه الفتية ، وخرجت من جزيرتها الصغيرة للفتح ، نشرا لدعوتها ، ودفاعا عن كيانها ، وتأمينا لمجتمعها من مناوشات جيرانها ومضايقاتهم المستمرة على الحـــدود • فانطلقت لتصطدم بالدول المتاخمة لها ، وأصبح الكفاح بين العرب والروم من ناحية وبين العرب وأهل الغرب من ناحية أخرى ، أمرا واقعا ، بل ضرورة وسياسة اقتضتها سلامة الدولة العربية وأمنها •

وفى هذه المرحلة التزم كل من الروم واللاتين جانب الدفاع بسبب الضعف الذى انتابهم ، فى وقت كانت تتقدم فيه الامة العربية ، بعد أن اتحدت وتآلفت ، تقدما سريعا فى الجبهتين الشرقية والغربية • ففى الجبهة الشرقية احرزت انتصارات سريعه متلاحقة • فامتلكت خـــلال القرنين السابع والثامن للميلاد بلاد الشام وشرقى آسيا الصغرى ومصر وشمال افريقية وبعض الجزر فى البحر المتوسط • أمافى الجبهةالغربية ، فقد امتدت الفتوحات العربية حتى اسبانيا • ومنها عبر العرب جبال البرانس ووصلوا الى فرنسا نفسها • وأن لم تساعد الظروف على بقائهم هناك • كما أستولوا على جزيرة كريت فى القرن التاســـع ، ووقعت

صقلية وجنوبى ايطاليا فى قبضتهم فى أوائل القرن العاشرالميلادى ٠(١)

ومما يؤسف له أن بعض المؤرخين الغربيين ، من قدامى وحديثين ، قد نظروا الى حركة الفتح نظرة حقد وتعصب ، بينما حاول البعض الآخر أن يقلل من شأن قوة العرب وحماستهم ، مما لا يتفق بحال مع الحق والامانه العلمية (٢) ٠

كانت هذه مقدمة لا بد منها ، اذ هى أول تجربة حية أثبتت أن اتحاد العرب وتكتلهم يمكن أن يأتى بالمعجزات ٠ ويكفى أن ميزان القوى فى هذا الكفاح الحيوى بالنسبة للعرب ـ والذى أمتد منذ الفتح حتى أوائل القرن العاشر ـ كان فى صالحهم ٠ فقد أنتشرت على طول شواطىء البحر الابيض المتوسط مدن وبلدان عربية ، ذات حضارةعربية ، وتتكلم اللسان العربى ، مما دعا العالم البلجيكى هنرى بيرين H. Pirenne الى ان يقول بحق ان ذلك البحر أصبح بحيرة عربية خالصة ، بعد أن كان فيما مضى بحرا رومانيا (٣) ، أو « بحرنا » Mare Nostrum حسبما

---

(١) Cf. F. Lot, Les Invasions Barbares, Paris, 1942, 13 ff.; R. E. Sullivan, Heirs of the Roman Empire, New York, 1960, 9 - 10, 24 ff.; P. K. Hitti, History of the Arabs, London, 1964, 139 ff., 212 ff., 493 ff., 602 ff.; F. Gabrieli, Les Arabes, French trans. by Marie de Wasmer, Paris, 1963, 57 ff.; S. Runciman, A History of the Crusades, Vol. 1, Cambridge, 1954, 14-19; Painter, op. cit., 191.

(٢) أنظر عن ذلك محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٣٤ ـ ص ١ـ١٠ ٠

(٣) H. Pirenne, Economic and Social History of Medieval Europe, London, 1961, 2 - 3; idem, Medieval Cities, English Trans. by F. D. Halsey, Princeton, 1948, 15 - 16.

كان الرومان القدماء يسمونه (١) ٠

غير أن هذا النصر الباهر الذى احرزه العرب نتيجة لتوحيد صفوفهم لم يلبث أن أعقبته ضربات مؤلمة ٠ وكانت النكسة الاولى فى القرن العاشر الميلادى عندما انقلب ميزان القوى بين الشرق والغرب ٠ اذ أخذت أوروبا ، بشقيها الشرقى والغربى ، تستعيد من قوتها ، وتفيق من الضربات التى وجهها العرب اليها ٠ بينما أنتاب العالم العربى بعض الضعف والوهن ، بسبب الانحلال السياسى الذى دب فى اوصال الدولة العباسية شرقا ، وفى القوى العربية غربى البحر المتوسط ٠ وكان لهذا الانقلاب فى القوى ، ولتغير مركز الثقل بين أوروبا والعالم العربى فى العصر الاسلامى ، آثاره الوخيمة على العرب وحدودهم المتصلة بكل من الروم واللاتين ٠ اذ تمكنت دولة الروم من الاستيلاء على بعض المدن فى آسيا الصغرى وشمال الشام ، وكان ذلك فى عصر الاسرة المقدونية ٠ كما استطاع النورمان الاستيلاء على جنوبى ايطاليا وعلى صقلية ٠ واحرز الغربيون أيضا عدة أنتصارات فى اسبانيا ، أهمها اسيتلاؤهم على طليطلة سنة ١٠٨٥ م (٢) ٠

وكان هذا الانحسار التدريجى فى القوى العربية فى شرق البحر المتوسط وغربيه نتيجة لضعفهم وتفككهم وتتذاك ٠ وهذه ظاهرة دورية فى تاريخ العرب فى العصر الاسلامى ، وحتى العصر الحديث

لقد خرج العرب من هذه التجربة القاسية التى امتدت من القرن

---

(١) LaMonte, op. cit., 3 — 4.

(٢) LaMonte, op. cit., 275 ff.; Lot, op. cit., 21 f., 285 ff.; Painter, op. cit., 193 ff., 197 ff. أنظر أيضا عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الاراضى المقدسة (٩٦٣-٩٦٩م) - الاسكندرية ١٩٥٩ - ص٨ وما بعدها ، سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية - جا - القاهرة ١٩٦٣ - ص ٥٦ وما بعدها ٠

العاثر حتى قيام الحركة الصليبية بدرس أفادهم فيما بعد • اذ أوضحت أن انقسامهم هيأ للروم واللاتين فرصة الانقضاض على دولتهم والتهام جانب كبير منها • وكان اولى نتائجها أن أستهان الروم وأهل الغرب بالعرب ، واتخذوا حيالهم سياسة هجومية ، فى حين التزم هؤلاء جانب الدفاع عن أنفسهم وعن دولتهم بشكل عام •

الحركة الصليبية عدوان استعمارى

فى غمرة هذه الاحداث التى ألمت بالعالم العربى فى فترة ضعفه وتفككه ، خرجت من أوروبا فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى دعوة عدوانية تعارف المؤرخون على تسميتها بالحركة الصليبية ، ولقد بدأت هذه الحركة رسميا عندما أعلن أحد بابوات روما ، وهو اربان الثانى (١)، مولدها رسميا فى خطبة القاها فى مؤتمر كليرمون الكنسى بفرنسا فى نوفمبر سنة ١٠٩٥م ، ودعا فيها أهل الغرب الى حمل الصليب للاستيلاء على الاراضى المقدسة ، وتأسيس مستعمرات لاتينية لهم هناك • وقد حفظ لنا نص الخطبة المذكورة التى تقطر بالحقد والكراهية ضد العرب والاسلام كثير من المؤرخين اللاتين الذين عاصروا احداث تلك الفترة من الزمن ، وعلى رأسهم فوشيه دى شارتر Foucher de Chartres وبودرى دى بورجى Baundri de Bourgueil وجيبرت دى نوجان Guibert de Nogent (٢) • وتروى المراجع أن

---

(١) عن اربان الثانى ودوره فى الحركة الصليبية ، أنظر جوزيف نسيم يوسف « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ـ مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ العدد ١٦ ـ الاسكندرية ١٩٦٣ ـ ص ١٩٨ـ٢٠٥ •

(٢) Foucher de Chartres, R.H.C.-H.Occ., III, Paris, 1866, 323-4; Baudri de Bourgueil, R. H. C. - H. Occ., IV, Paris. 1879, 12 - 5; Guibert de Nogent, R.H.C.-H.Occ., IV, 137 - 40.

المحتشدين لسماع خطاب البابا صاحوا بعد سماعه صيحتهم المشهورة « هذه هى أرادة الله » ، وسرعان ما حملوا شارة الصليب شعارا لهم · ومن هنا اصطبغت الحركة بالصبغة الدينية ، حتى أن أحد الكتاب الغربيين القدامى ممن شاهدوا مولدها، وهو روبرت الراهب Robert le Moine، قال حرفيا انها من عمل الله وليست من عمل الانسان (١) · وأيده فى ذلك أحد كتابهم الحديثين ، وهو الكونت بول ريان Paul Riant، عندما قال انها حروب دينية خالصة ، وان دوافعها واتجاهاتها دينية بحتة ، وهدفها الاول والاخير تخليص فلسطين وكنيسة القيامة من أيدى العرب (٢) ·

ولكن احدث البحوث التاريخية ، البعيدة عن الميل والهوى ، أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن الحركة الصليبية لم تكن من صنع الله ولكنها كانت من صنع الانسان ، وانها كانت تهدف منذ البداية الى التوسع والاستعمار تحت قناع من الدعاية الدينية ، وان غرضها الحقيقى هو الاستيلاء بالقوة المسلحة على فلسطين ، وتأسيس مستعمرات لاتينية بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المستعمرات وتوسيع حدودها والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل ، حتى تكون رأس جسر لاهل الغرب اللاتينى يستخدمونه لتفتيت وحدة العالم العربى وكسر شوكته ضمانا لبقاء نفوذهم فى المنطقة (٣) ·

وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الغربيين الحديثين الذين اشتهروا بتعصبهم لبنى جنسهم ، والذين نظروا الى الحركة الصليبية من وجهة

---

(١) Robert le Moine, R.H.C.-H.Occ., III, 723.

(٢) P. Riant, Inventaire critique des lettres historiques des croisades, A.O L., I, Paris 1881, 2.

(٣) تناولت ذلك بالتفصيل فى كتاب العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى ـ ط · رابعة ـ الاسكندرية ١٩٨٤ ـ ص ٥١ ـ ٩١ ·

نظر غربية بحتة ، قد اعترفوا ضمنا أو صراحة بحقيقة اتجاهات تلك الحركة • ومن هؤلاء المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه R. Grousset الذى قال فى كتابه « خلاصة التاريخ » ان الحروب الصليبية ادت الى اول توسع استعمارى للغرب المسيحى فى الشرق العربى •(١) بينماقال زميله جورج تريفيليان G. Trevelyan الانجليزى فى كتابه « مختصر تاريخ انجلترا » ان الحركة الصليبية هى حلقة اتساع خارجى قامت بها أوروبا المسيحية الاقطاعية ضد العرب (٢) • أما الاستاذ برنارد لويس B. Lewis فقد أوضح فى كتابه « العرب فى التاريخ » ، أن تلك الحروب كانت أول محاولة مبكرة فى التوسع الاستعمارى للغرب ، تحركها اعتبارات مادية دنيوية ، ويغلفها الدين كعامل نفسانى (٣)• ويتحدث المؤرخ المعروف هنرى وليم كارلس ديفز فى كتابه « أوربا فى العصور الوسطى » عن الحروب الصليبية تحت عنوان « الاستعمار الاوربى (٤) » • ويزيد ديفز الامر وضوحا فيقول : « وكثيرا ما كان ينتحل الباعث الدينى بقصد القاء قناع خفيف من الاحترام على العمليات الحربية ، ولولا هذا القناع لكان من العسير تبرير الحرب » • وفى موضع آخر يقول انه كلما ازداد اقتراب زعماء الحملة الاولى من الاراضى المقدسة «كلما ازداد وضوحا ان انقاذهم للكنيسة المقدسة ليس الا اعتبارا ثانويا » • ويستمر قائلا بأن الشغل الشاغل للحكام اللاتين فى الثمانين سنة التى أعقبت تأسيس المستعمرات الاربع فى الارض المقدسة هو

---

(١) R. Grousset, The Sum of History, Oxford, 1951, 182.

(٢) G. Trevelyan, A Shortened History of England, Aylesbury, 1960, 141.

(٣) B. Lewis, The Arabs in History, London, 1958, 140.

(٤) ديفز (هـ• و• ك•) : أوربا فى العصور الوسطى ـ ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدي محمود ـ الاسكندرية ١٩٥٨ ـ ص ١٧٨ •

، توسيع حدود تلك المستعمرات وتدعيمها تحت تاج بيت المقدس » ٠ (١)

هذه شهادة عدد من الكتاب الغربيين الحديثين عن حقيقة اتجاهات الحركة الصليبية ٠ ومن حسن الحظ أنه ظهر فى المكتبة العربية فى السنوات الاخيرة العديد من الكتب والبحوث الجادة الواعية التى تناولت تلك الحركة أو أحد فصولها تناولا يتسم بالدقة والامانة العلمية ، فأماطت اللثام عن دوافعها الحقيقية ٠ يقول الدكتور جمال الدين الشيال (٢) ان الحملة الصليبية الاولى وما تلاها من حملات انما « تمثل المرحلةالاولى من مراحل الاستعمار الاوربى لمنطقة الشرق الادنى العربى ٠ وهى انما لبست مسوح الدين واتخذت شارة الصليب لان العصر كان عصر تزمت دينى » ٠ ويعزز هذا الرأى قول الدكتور محمد مصطفى زيادة (٣) من أن « الحركة الصليبية دلت على اتجاهات توسعية نائية جغرافيا عن فلسطين ٠ ٠ ٠ ٠ وأن زعماء الصليبيين ، حتى الاولين منهم ، لم يكن غرضهم جميعا الدين فحسب » ٠ وجاء فى مقدمة الدكتور حسن حبشى (٤) للترجمة العربية لمذكرات روبرت كلارى عن الحملة الرابعة ، أن التاريخ لا يعرف « حربا شنها الغرب الاوربى تحت ستار

---

(١) ديفز : نفس المرجع السابق ـ ص ١٨٣ و١٩٥ و١٩٦ ٠ وفى ص ١٨٨ من المرجع نفسه يوضح ديفز كذلك أن النزعة خلال الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى اسبانيا كانت لا تزال نزعة المطامع المادية للفوز بالسلطة وانتزاع ولايات جديدة من المسلمين ٠

(٢) جمال الدين الشيال « وحدة مصر وسوريا فى العصر الاسلامى » المحاضرة الثانية من المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية فى العام الجامعى ٥٧ / ١٩٥٨ ـ الاسكندرية ١٩٥٨ ـ ص ٦ ٠

(٣) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ـ القاهرة ١٩٦١ ـ ص ٤ـ٥ ٠

(٤) كلارى (ر ٠) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ـ ترجمة الدكتور حسن حبشى ـ القاهرة ١٩٦٤ ـ ص ٥ ٠

الدين ثم كشف القناع عن حقيقة نواياه الاستعمارية مثل الحرب التى خرجت فيها أوربا عام ١٢٠٢ م بحجة انقاذ المسيحية واستخلاص بيت المقدس ومحاربة مصر ، ثم غيرت الحملة اتجاهها منذ البداية واسفرت عن وجهها ، فهاجمت أمبراطورية الشرق النصرانية وهى الامبراطورية البيزنطية » • ويزيد فيليب حتى (١) الامر وضوحا فيقول فى كتابه « تاريخ العرب » انه ليس كـل الذين حملـوا الصليب كانت تدفعهم اعتبارات دينية ، فكثيرون أمثال بوهيمند كانوا يطمعون فى تأسيس

---

(١) Hitti, op. cit., 636.

وقدتعرض لهذه المسألة أحد الكتاب الغربيينالقدامى ، ويدعىارنولد أوف ليبك ، عندما ذكر فى حوليته التى كتبها فى بداية القرن الثالث عشر ، والتى تشغل الفترة من سنة ١١٧٢ الى سنة ١٢٠٩م ، أن الصليبيين لم يشتركوا فى تلك الحملات بسبب الحافز الدينى ، ولكن رغبة فى الربح والكسب والاثراء : أنظر

A. H. Hamdy, « The Western Attitude to Islam as Viewed by Arnold of Lübeck, » Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Vol. X, Alexandria, 1956, 80. كما تكشف

الاميرة أنا كومنينا فى كتابها عن تاريخ حياة أبيها الامبراطور الكسيس كومنين ، عن حقيقة دوافع العدوان الصليبى عندما أشارت الى أطماع اللاتين وجشعهم وحبهم الزائد للمال ، واستغلالهم العامل الدينى كستار لتحقيق أغراضهم ومآربهم : أنظر

Anna Comnena, The Alexiad, English Trans. by Elizabeth Dawes, London, 1928, 248, 250, 252, et passim. هـذا ، ويكشـف

خطاب الكسيس كومنين الذى أرسله الى روبرت الاول أمير الاراضى الواطئة حوالى عام ١٠٨٨ م ، والذى يقال أنه من الاسباب التى أدت الى قيام الحركة الصليبية ـ يكشف هذا الخطاب عن مدى استغـلال للنعرة الدينية لاثارة أوروبا الغربية فى حرب عدائية ضد المسلمين فى الشرق • أنظر نص الخطاب فى

H. Hagenmeyer, Epistolae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes, 1901, 129 ff.

راجع ايضا المناقشات حول الخطاب المذكور فى مقالى « الدفاع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ـ ص ١٨٨ ـ ١٩٥ •

امارات لهم هناك • كما كان لتجار بيزا والبندقية وجنوه مصالح تجارية يسعون الى تحقيقها • فضلا عن فئات عديدة من المغامرين واللصوص والقتلة والمجرمين وقطاع الطرق والخارجين على القانون وطغام الشعوب وأرقاء الارض ، ممن قدموا من بلدان الغرب مدفوعين بعوامل شتى أهمها السيطرة والاطماع والسلب والنهب وأقلها بلا شك العامل الديني •

وهكذا ، تحت ستار الدين قامت جحافل الصليبيين من أوروبا متجهة صوب الشرق الادنى العربي • وفي سنوات قلائل أحرزت عدة انتصارات سريعة لم تكن تحلم بها في يوم ما • فلقد تمكن الصليبيون في الفترة من مايو ١٠٩٧ م الى يونيو ١٠٩٨ م من القضاء على سلطنة السلاجقة في آسيا الصغرى وشمال الشام ، ومن تأسيس أول مستعمرتين لهما ، ونعني بهما امارة الرها في أعالي الفرات وامارة انطاكية في أعالي الشام ، وتم هذا كله في حوالي عام (١) •

ولنا أن نتساءل عن السر في هذا التقدم السريع الذي أحرزه الاوروبيون ، وهل يرجع الى صفات خاصة تميزوا بها دون العرب والسلاجقة ، كالجرأة أو الاستبسال في القتال حتى الموت والاستشهاد • يجيب عن هذا السؤال المؤرخ الفرنسي شارل أومان Ch. Oman في كتابه « فن الحرب والقتال في العصور الوسطى » •

يقول ان القوات الصليبية كانت ضعيفة من الناحية العسكرية ، كما كان ينقصها النظام وحسن الاعداد والترتيب والالمام الكافي

---

(١) انظر عن ذلك
Matthieu d'Edesse, Extraits de la Chronique de Matt. d'Edesse, R.H.C. - Doc. Arm., t. I, Paris, 1869, 37 - 38; Foucher de Chartres, R.H.C. - H.Ccc., III, 496 - 7.

بالتكتيكات الحربية السليمة ، وهى كانت تتكون من جيوش اقطاعية متفرقة لا تجمع بينها قيادة موحدة يدين لها الجميع بالولاء • ومع ذلك فقد احرزت أنتصارات كبيرة على قوات كانت تفوقها اعدادا وترتيبا وتنظيما وتدريبا • وان الحقيقة التى تكمن وراء تلك الانتصارات لهى أعمق من ذلك بكثير • فهى ترجع أولا وقبل أى شىء الى أنقسام العرب والسلاجقة على أنفسهم وتتذاك (١) •

كانت هذه أحدى مراحل الهزيمة التى نزلت بالشرق الادنى العربى فى عصر من عصور الضعف التى مر بها عند بداية العدوان الصليبى ، وهى استمرار للحالة التى كان عليها اعتبارا من القرن العاشر الميلادى ، وقد ترتبت عليها أسوا العواقب وأوخمها • فقد كان الخلاف مستحكما بين ملوك العرب وأمرائهم • ففى مصر خلافة الفاطميين الشيعية على غير وفاق مع خلافة العباسيين السنية فى بغداد ، وقد دب فى كيانهما الانحلال والهزال • فالضعف باد ، والانقسام بينهما سياسى ودينى ، والتناحر على أشده • وهكذا كان كلا الفريقين آخذا فى التدهور ، بينما القبائل التركمانية ، ومن بينها السلاجقة ، تخطف من املاك الفاطميين والعباسيين على السواء ما يمكن اختطافه من الاقاليم ، كما حدث مثلا عند استيلائهم على بلاد الشام من الفاطميين • وحتى سلطنة السلاجقة كانت هى الاخرى قد انقسمت الى دويلات صغرى يحكم كل منها أمير مثلما حدث فى أنطاكية وحلب ودمشق (٢) • ويؤكد هذا الوضع أحد المؤرخين العرب ممن عاصروا بدايات العدوان الصليبى

---

(١) Ch. Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages, I, London, 1924, 233.

انظر ايضا عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ص ١٥٢ •

(٢) Cf. Grousset, Sum of Hist., 172-4; idem, Histoire des Crois.,

=

وكتبوا عنها ، وهو ابن القلانسى ، اذ ذكر انه لو كان صاحبا حلب ودمشق قد اتفقا وقتذاك لالحقا بالعدو الدخيل شر هزيمة ، ولحالا بينه وبين التوغل فى آسيا وسورية الشمالية ، وبدلا من الاتحاد لمواجهة هذا العدو المشترك ، لم يبذلا مجهودا ايجابيا فى سبيل وقف تقدمه فى الشرق العربى (١) ٠

يحدث كل هذا والعدو الفرنجى واقف يتربص بالعرب الدوائر ، وهو مغتبط اشد الاغتباط لهذا الانقسام الواضح فى صفوفهم ، وكان هذا غاية ما يتمناه ٠ واذن ، لا عجب اذا كانت هذه حال العرب فى الشرق من أن ينتصر عليهم الصليبيون ٠ ولا عجب ايضا ان يتم هذا كله فى سنوات معدودات ٠

=

Vol. I, Paris, 1948, pp. VI - VIII, XLVIII - LVIII; Runciman, op. cit., I, 75 - 8; K. M. Setton (ed.), A History of the Crusades, I, Philadelphia, 1958, 96 - 7; W. Stevenson, The Crusaders in the East, Cambridge, 1907, 19 - 20; Hitti, op. cit., 63 3-3 - 5.

وللمزيد من المعلومات عن الانحلال السياسى والتدهور الاقتصادى فى أواخر عهد الخلافة الفاطمية ، أنظر ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ـ مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ـ المؤرخون الشرقيون ـ جا ١ ـ باريس ١٨٧٢ ـ ص ٥٥٠ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ـ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٤٨ ـ ص ٢٨٠ و٢٨٣ ؛ المقريزى : كتاب اغاثة الامة بكشف الغمة ـ نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٤٠ ـ ص ١٨ ـ ٢٧ ؛ ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ـ ج٣ ـ استانة ١٢٨٦هـ ـ ص٤٠ـ٤٢ ٠ راجع أيضا جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ـ جا ١ ـ وثائق الخلافة والوزارة ـ الاسكندرية ١٩٦٥ ـ ص ٢٧ وما يليها ٠

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ـ بيروت ١٩٠٨ ـ ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ٠

بربرية الفرنج وتحضر المسلمين

على أية حال ، بعد ان فرغ الصليبيون من تأسيس أولمستعمرتين لهما فى الشرق ، واصلوا الزحف الى بيت المقدس الذى بلغوه فى أوائل يونيو من عام ١٠٩٩ م ، وكان اذ ذاك فى حوزة الفاطميين (١) • وكما سقطت مدن آسيا الصغرى وسورية الشمالية فى قبضة الاوروبيين ، سقط بيت المقدس بعد حصار استمر حوالى أربعين يوما • ومما تجدر الاشارة اليه هنا ، أنه بعد أن دخل الاوروبيون المدينة المقدسة أخذوا يتعقبون الاهالى العزل الآمنين الذين وجدوا أنفسهم وقد احاط بهم العدو من كل جانب ، فلجأوا الى قبة الصخرة والمسجد الاقصى للاعتصام بهما من بطش الفرنج وغدرهم ، اعتقادا منهم أنه مهما بلغ تعطش أولئك القوم لسفك الدماء ، فلن يجرؤا على اقتحام الاماكن المقدسة واتيان المنكر فيها • ولكن الفرنج - كعادتهم دائما - لم يرعوا حرمة بيوت الله ، فأخذوا يعملون فيهم سيوفهم دون رحمة او هوادة ، ودون مراعاة لعامل السن أو الجنس ، حتى سالت الدماء انهارا ، وخاض فيها الغزاة الى ركبهم • وهذه الفظائع أيدها وشهد بها اثنان من مؤرخيهم ممن حضروا المذبحة ، وهما ريمون داجيل Raimond d'Agiles ، والبرت دكس Albert d'Aix (٢) •

---

(١) حول استيلاء الفاطميين على البيت المقدس من السلاجقة قبيل الحملة الاولى ، انظر ابن القلانسى : نفس المرجع - ص ١٣٥ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر فى اخبار البشر - جـ٢ - القاهرة ١٢٨٥ هـ - ص ١١ •

(٢) Raimond d'Agiles, R.H.C.-H.Occ., III, Paris, 1866, 291 ff.; Albert d'Aix, R.H.C.-H.Occ., IV, Paris. 1879, 470, ff.

هذا وقد تحدثت أنا كومنينا ابنة الامبراطور الكسيس كومنين باسهاب عن وحشية أولئك القوم ، عندما تعرضت للحملة الشعبية التى سبقت الحملة النظامية المعروفة بالحملة الصليبية الاولى : أنظر عن ذلك =

وقد أمدنا الكتاب العرب ، وبخاصة ابن القلانسى ، وأبو الفدا ، وابن الوردى ، وابن كثير ، والمقريزى ، وابن العماد الكاتب ، بالعديد من الامثلة الدالة على وحشيه أولئك القوم وتعصبهم وقسوتهم أيام العدوان الصليبى (١) .

ولم يكتف المغيرون بذلك ، بل رفعوا القناع عن وجههم ، وكشفوا عن حقدهم الدفين على العروبة والاسلام ، وذلك عندما حولوا قبة الصخرة الى كنيسة لاتينية سموها « معبد السيد » Templum Domini كما استخدموا المسجد الاقصى لصالحهم ، واطلقوا عليه باللاتينية اسم « معبد سليمان » Templum Solomonis (٢)

ويلاحظ أن هذه كانت نفس السياسة التى سار عليها الصليبيون بصفة عامة فى جميع حملاتهم العدوانية ضد العرب . فعندما أغاروا على دمياط سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨م) فى عهد الملك الكامل محمد ، أحالوا مسجد المدينة

= أنظر عن ذلك Anna Comnena, The Alexiad, 251.

وفيما يتعلق بالاستيلاء على بيت المقدس أنظر ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ـ ص ١٣٦ وما بعدها . كما تناول الدكتور حسن حبشى تفاصيل المعركة فى كتابه « الحرب الصليبية الاولى » ـ القاهرة ١٩٤٧ ـ ص ٨١ وما بعدها . أنظر أيضا :

Grousset, Hist. des Crois., I, 153 - 163; Runciman, op. cit., I, 279 - 288.

(١) أنظر عن ذلك ابن القلانسى : نفس المرجع ـ ص ١٣٦ ؛ ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ـ ج٣ ـ ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ـ ج٢ ـ ص ١٣٧ ؛ ابن كثير . البداية والنهاية فى التاريخ ـ ج١٣ ـ القاهرة ١٣٥٨ هـ ـ ص ٨٣ـ٨٤ ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ـ ج١ ـ القاهرة ١٢٧٠هـ ـ ص ٢١٢ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ ج٥ ـ القاهرة ١٣٥١هـ ـ ص ٦٦ .

(٢) أنظر عارف باشا العارف : تاريخ القدس ـ القاهرة ١٩٥١ ـ ص ٧١ ـ ٧٢ و٧٤ .

العظيم الى كنيسة لاتينية كاثوليكية ، عملوا على تثبيت شعائرهم بها · كما ابطلوا الطقوس التى جرى عليها المسيحيون الشرقيون ، وأحلوا محلها طقوسهم · وهذا هو نفس ما فعلوه عندما أغاروا على المدينة بعد ذلك التاريخ بثلاثين سنة فى عهد الصالح نجم الدين أيوب (١) · فقد كان العرب فى نظرهم ــ مسلمون أو مسيحيون شرقيون ــ هراطقه لانهم على غير مذهبهم · ولقد بذلوا قصارى جهدهم لصبغ الشرق الادنى العربى بصبغة كاثوليكية بحتة ، مما يكشف عن احد دوافع الحركة الصليبية · ويؤكد هذا الاتجاه المؤرخ الغربى ارنست باركر E. Barker ، عندما ذكر فى كتابه « الحروب الصليبية » ان الكنيسة اللاتينية كانت تطمع فى نشر الكاثوليكية فى جميع انحاء العالم العربى المعروف وقتذاك ، ولو ادى ذلك الى القتال المسلح (٢) · كما أوضح الدكتور عبد الحميد حمدى محمود فى دراسته التحليلية عن فيليب دى مزيير وهيئة فرسان آلام المسيح التى دعا الى انشائها فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، أن من بين اهداف الهيئة العمل على نشر العقيدة الكاثوليكية فى الاراضى الاسلامية (٣)· وغير خاف ان فترا تالضعف والتفكك التى الت بالعرب ،

---

(١) راجع عن ذلك السيوطى : حســن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة ــ جـ٢ ــ القاهرة ١٣٢٧ هـ ــ ص ٢٨ ؛ ابو الفدا : المختصر ــ جـ٣ ــ ص ١٢٨ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر ــ جـ٢ ص ١٣٧ · ومن المصادر الاجنبية ، راجع :

Rothelin, Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin, R.H.C.-H.Occ., II, Paris, 1859, 594; Joinville, Histoire de Saint Louis, Paris, 1874, 98; cf. also Grousset, Hist. des Crois., III, 444.

(٢) أنظر باركر (ارنست) : الحروب الصليبية ــ ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ــ القاهرة ١٩٦٠ ــ ص ٩ ·

(٣) A. H. Hamdy. «Philippe de Mézières and the New Order of the Passion,» Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Part I. Vol. XVII, Alexandria 1964, 56, Part II, Vol. XVIII, 1964, 12.

قد ساعدت أولئك القوم على التمادى فى تحقيق اطماعهم ، وفى ارتكاب تلك الشرور والآثام ٠

وجدير بالذكر فى هذا المقام انه كان يقابل مظاهر الوحشية والقسوة والغدر والتعصب التى تميز بها العدوان الصليبى على الشرق العربى ، صورة أخرى مخالفة تمام الاختلاف ، ونعنى بذلك سماحة العرب ووفاءهم بالعهد وكرمهم ونبل اخلاقهم وانسانيتهم ٠ ومصادر الحركه الصليبية ، من عربية وغير عربيه ، غنية بالامثلة الدالة على ذلك ٠ نذكر منها على سبيل المثال المعاملة الانسانية الكريمة التى عامل بها صلاح الدين الايوبى سكان بيت المقدس من الفرنج بعد سقوط المدينة فى قبضته سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ٠ (١) وكذلك حسن معاملة المصريين لأسيرهم الملك الفرنسى لويس التاسع عندما وقع فى قبضتهم فى أواسط القرن السابع الهجرى (اواسط القرن الثالث عشر الميلادى) (٢) ٠

---

(١) أنظر Runciman, Hist. of the Crusades, II, 466. ونجد أمثلة عديدة على حلم صلاح الدين وعفوه ومروءته فى كتاب ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٦٤ ـ ص ٣١ و٣٢-٣٣ و١٥٨ ـ ١٥٩ ٠ أنظر أيضا جمال الدين الشيال : وحدة مصر وسورية ـ ص ٢٠ و٢٣ ٠ وللمزيد عن سماحة العرب وتحضرهم ، أنظر
A. H. Hamdy, «The Western Attitude to Islam,» 81 - 82, 84.

(٢) قال الكتبى فى مؤلفه « عيون التواريخ » ـ ج٢٠ ـ لوحة ٢٥ ـ نسخة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصريه تحت رقم ١٤٩٧ تاريخ ، ان السلطان المعظم توران شاه بن الصالح ايوب أكرم أسيره الملك لويس ، وأقام عنده من يقوم بخدمته ، كما رتب له كل ما يحتاج اليه من طعام وشراب ٠

راجع أيضا ابن العماد : شذرات الذهب ـ ج٥ ـ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ؛ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ ج٦ ـ القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ ـ ص ٣٦٦ ٠

وعلى أية حال ، فقد انتهى الامر بوقوع فلسطين فى قبضة الغربيين فى منتصف يوليو من عام ١٠٩٩ م ، بعد ان ظلت فى ايدى العرب أكثر من أربعة قرون ونصف • وبذلك تحققت للفرنج أحلام كانت تداعب خيالهم فى يوم ما • وأسسوا مستعمراتهم الصليبية فى تلك الارض العربية ، وجعلوا على رأسها أحد زعمائهم الذى قسمها الى امارات اقطاعية وزعها بين زملائه من القادة اللاتين ، مستغلين فى ذلك فرصة تفكك العرب وانقسامهم • وفى ذلك يقول المؤرخ مارشال بلدوين M. Baldwin مؤكدا انه على ضوء تجارب الغرب المعروفة فى التوسع والاستعمار يمكن اعتبار المستعمرات الصليبية التى تم تأسيسها فى شرقى البحر المتوسط ، هى الفصل الاول من تاريخ أوروبا الطويل فيما وراء البحار (١) •

هكذا انتهى الدور الاول من الكفاح بين العرب واللاتين ، بانتصار ساحق للقوات المعتدية أحرزته فى بضع سنوات • ولنتمعن قليلا فى أحداث هذا الدور تاركين تفصيلاته ومعاركه • لقد تميز ـ كما رأينا ـ برجحان كفة الصليبيين الدخلاء على العرب أصحاب البلاد • وتم هذا فى وقت كان فيه الشرق الادنى العربى منقسما على نفسه مما اعجزه عن مواجهة العدوان الغربى ، ومما هيأ للاوروبيين فرصة تحقيق اتجاهاتهم التوسعية فى المنطقة ، بعد ان اتخذوا الدين قناعا لنشاطهم المعادى للعرب والاسلام •

---

(١) M. W. Baldwin, The Mediaeval Church, New York, 1960, 103.

توازن القـــوى بين العـــرب والفرنج

ليس من العسير أن ندرك أن أهل الغرب كانوا يعلمون تماما ، ومنذ اللحظة الاولى ، أنه بوسع العرب فى مصر وبلاد الشام ، اذا اتحدت جهودهم واتفقت كلمتهم وتكتلت قواهم ، فى صدق واخلاص ، أن يدفعوا عنهم الخطر الصليبى ، وأن يفلحوا فى القضاء على الفرنج بشتى السبل. ثم أن العرب أنفسهم لم ينسوا أن ما لحقهم من خسارة ، وما أحرزه أولئك الاجانب من مكاسب خاطفة فى بداية حركتهم ، انما كان - فى الدرجة الاولى - بسبب ضعف القوى العربية وانقسامها وتفتتها . وكانوا يدركون جيدا أنهم كلما اتحدوا ، كان ذلك بشيرا بحركة يقظة وافاقة . تعقبها حملات مضادة على الغزاة واماراتهم فى الشرق . ففى اتحادهم قوة ، وفى قوتهم قضاء أكيد على اللاتين وعلى كل أثر لهم . بينما فى انقسامهم ضعف ، وفى ضعفهم خذلان لهم ، وتمكين لنفوذ اعدائهـــم فى المنطقة (١) .

لقد انصرف الحكام العرب بسبب المنازعات والحروب التى قامت بينهم عن الجهاد ضد الغزاة القادمين من الغرب . وغير خاف انه لو كان قد قدر لهم الاتحاد عند قيام الحرب الصليبية الاولى ، ولو كانوا قـد نبذوا أسباب الفرقة والخلاف ، لما تمكن اللاتين اطلاقا من احراز أى نصر عسكرى او سياسى فى فلسطين ، ولقضى العرب عليهم قبل ان يصلوا اليها ويقيموا مستعمراتهم بها . ولو قدر لهم الاتحاد عندما حل الصليبيون باراضيهم ، ونسوا ما بينهم من خلافات ، وغلبوا الصالح العربى العام على المصالح الشخصية ، لما اتاحوا للدخلاء فرصة العمل على

---

(١) تناول الدكتـــور حســـن حبشى فى مؤلفــه « نور الدين والصليبيون » القاهرة ١٩٤٨ ، بالبحث والدراسة والتحليل حركة الافاقة والتجمع الاسلامى فى القرن السادس الهجـرى (القرن الثانى عشر الميلادى) .

تثبيت دعائم دولتهم ولاستطاعوا أن يحفظوا فلسطين من عبث الطارق الدخيل ٠

ومع ذلك ٠ فبالرغم من هذا النجاح المصطنع الخاطف الذى حققه الفرنج ، فاننا نلمس بوضوح أن مجتمعهم الاقطاعى (١) الذى أقاموه بالشرق بدأ متداعيا متهالكا منهارا ، ولم تتوافر فيه مقومات الدولة بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح ٠ لقد ولد المجتمع الصليبى ضعيفـا هزيلا لا يقوى على الوقوف على قدميه ، ولم توجد فيه سمات الامم والحكومات ، كالآداب والعرف والتقاليد والجيش القومى أو الثروة العامة ورءوس الاموال النامية ، ولذلك ظل هذا المجتمع الغريب عرضة للتقلبات والهزات والازمات العنيفة ، ونهبا للكوارث والويلات التى كانت تحـل به بين الحين والحين ٠ لقد كانت عوامل الضعف تنخر كالسوس فى مستعمرات اللاتين بالشرق الادنى منذ اليوم الاول ، نذكر منها ضآلة مواردهم المالية ، وقلة المحاربين الذين كانوا تحت امرتهم ، وتضارب مصالحهم ، وتباين أهوائهم ، واختلاف أجناسهم ، وانحلالهم الخلقى، وفتور الحماس الدينى عندهم بشكل ملحوظ ٠ فضلا عن الخلاف والمنازعات المستمرة بين الفرنـج الجدد الوافدين من الغرب والفرنـج القدامى الذين استوطنوا فى الشرق ، حول المصالح الخاصة وامتلاك الاراضى ٠ وأخيرا يجب الا ننسى ان العداوة كانت قائمة بين الحاكمين والمحكومين ٠ لقد شعر أولئك الدخلاء بأنهم يعيشون بين أصحاب الحق الشرعى الذين

---

(١) حول الحكم الاقطاعى الصليبى فى الاراضى المقدسة ، أنظر كوبلاند (ج٠و٠) وفينوجرداف (ب) : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ـ ترجمة الدكتور محمد مصطفى زياده ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ ص ٢٤ ـ ٢٥ ٠ وللمزيد من التفاصيل عن مفهوم الدولة فى المجتمع الغربى الوسيط ، أنظر هارتمان (ل٠م٠) وباراكلاف (ج) : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ـ ترجمة وتعليق د ٠ جوزيف نسيم يوسف ـ ط ٠ رابعة ، الاسكندرية ١٩٨٤ ـ ص ١٠٣ ـ ١٢١ ٠

يتطلعون الى اليوم الذى تتحد فيه صفوفهم ، توطئة لتوجيه ضربتهم القاضية ، واسترداد أراضيهم المسلوبة (١) ٠

وكان يقابل هذا التدهور التدريجى فى امارات الصليبيين ، شعور الشعوب العربية فى المنطقة أن وجود تلك الامارات بين ظهرانيها أصبح يشكل خطرا جسيما يجب عليها المبادرة باستئصاله قبل أن يستفحل ويسرى فى بقية أجزاء العالم العربى ٠ وقد أدرك العرب أن كل يوم يمر دون توحيد جبهتهم الداخلية وتقويتها ، فيه خسارة محققة ، وفيه تعويق وتأخير لعملية الجهاد الاكبر ٠

وشاءت الظروف السيئة ألا يظهر على المسرح وقتذاك زعيم يستطيع تكوين جبهة عربية قوية متحدة ضد أولئك القوم ٠ وكان الفرنج يواجهون فى هذه الفترة المبكرة أمراء متفرقين متخاصمين حسبما أسلفنا ٠ فاستغلوا هذا الظروف واعتمدوا على سياسة الايقاع والتفريق بين السلاجقة والحكام العرب تمكينا لنفوذهم ومصالحهم ٠

ومع زيادة الخطر على المشرق العربى ، بدت فى الافق بوادر افاقة ويقظة اعتبارا من السنوات الاولى من القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى) ٠ اذ بدأ العرب يستشعرون مدى الخطر الماثل أمامهم ، وأخذوا يعملون على توحيد صفوفهم ، ولم شملهم لمقاومة الدخلاء وطردهم من ديارهم ٠ وظهرت تباشير هذه اليقظة بشكل خاص

---

(١) أشار الى ذلك بالتفصيل والتحليل كل من رينيه جروسيه فى الجزء الثانى من موسوعته عن الحروب الصليبية ، وستيفن رنسيمان فى الجزء الثانى من كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » ٠ أنظر :
Grousset, Hist. des Crois., II, 24 ff., 310 ff., 609 ff.; Runciman, Hist. of the Crusades, II 291 ff., cf. also Hamdy, «The Western Attitude to Islam,» 77 - 78, 81, 84.

فى مصر والعراق وشمال الشام ، على هيئة وثبات عربية لم تكن قد اختمرت أو نضجت بعد فى حركة واحدة موحدة • نذكر منها تحالف صاحب حلب مع الفاطميين بمصر ضد امارة انطاكية اللاتينية فى مستهل ذلك القرن • وكذلك محاولات أتابكة الموصل ودمشق لتكوين محور يطوق ممتلكات اللاتين فى الشمال والشمال الشرقى • وكانت هذه المحاولات الجزئية بين مد وجزر ، ولم تؤت ثمارها المرجوة لانها هاجمت بعض معاقل الافرنج مثل امارات الرها وطرابلس وانطاكية قبل أن توحد جبهتها تماما ، الامر الذى لم يمكنها من تحقيق النصر النهائى وقتذاك(١) •

كل هذا أوجد حالة من التوازن بين الفريقين : العرب أصحاب الدياروالفرنج الدخلاء ، بحيث لم يتمكن أى منهما فى هذا الدور الثانى من الكفاح من احراز نصر حاسم على خصمه ، وهو الدور الذى تناوله بشىء من الاسهاب والتحليل المؤرخ رينيه جروسيه وزميله ستيفن رنسيمان •

وقد وجدت عدة ظروف ساعدت الغزاة فى المحافظة على كيانهم المتداعى بالشرق الادنى العربى آنذاك ، على الرغم من الظروف السيئة المحيطة بهم • نذكر منها سياسة بناء الاستحكامات والقلاع ، وتحصين المدن الساحلية ، واستغلالهم كل انقسام بين الحكام العرب ، والعمل على بذر بذور الشقاق بينهم • ثم قدوم نجدات هزيلة أو جماعات قليلة العدد من الحجاج الاوروبيين المسلحين ، وان كان ذلك بصفة غير منتظمة وبأعداد غير كافية • يضاف الى ذلك عامل التزاوج السياسى الذى درجوا عليه للربط بين اماراتهم المتنازعة فيما بينها • واخيرا استعانة الفرنج

---

(١) ابن الاثير : تاريخ الدولة الاتابكية ملوك الموصل ـ مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ـ المؤرخون الشرقيون ـ جـ٢ ـ قسم ٢ ـ ص ٢٣ • راجع أيضا حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ـ ص ٩ وما بعدها ومن المصادر الاجنبية ، أنظر :

Albert d'Aix, R.H.C. - H.Occ., IV, 670; Matt. d'Edesse, Extraits, R.H.C. - Doc. Arm., I, 19 - 4, 96 - 7.

بالجماعات الرعبانية العسكرية ، كالداوية والاستبارية والتيوتونية ، وبأساطيل الجاليات الايطالية التجارية فى جنوه وبيزا والبندقية ، فى الاستيلاء على الموانى العربية بالساحل الشامى ، نظير صفقات يتقاسم فيه الطرفان المكاسب والاسلاب (١) ٠

ولولا تلك الظروف لربما انتهى الامر فى هذا الدور بتفوق العرب على الصليبيين الذين أصبحوا محاطين من الشمال والشرق والجنوب الغربى بقوات أعدائهم القوية ، التى كانت تنتظر الفرصة المواتيـة للقيام بدورها الايجابى فى المنطقة ٠ لكل هذا بات الغزاة القادمون من الغرب يعلمون تماما أنهم هالكون لا محالة ، ولم يكن أمامهم الا أحد أمرين كلاهما مر : أما أن ينجوا بأنفسهم عن طريق البحر عائدين الى ديارهم ، وأما أن يتذفوا فيه بواسطة قوات أعدائهم عندما يحين الوقت المناسب ٠ وعلى أية حال ، فقد كان البحر هو المنفذ الوحيد بالنسبة لهم ، سواء رحلوا بمحض اختيارهم أو اجبروا على الرحيل ٠

هذا عن اللاتين ، أما العرب فلم يكن أمامهم أيضا فى مرحلة التوازن هذه سوى سبيلين لا ثالث لهما : أما أن يسدوا على الفرنج الطريق الساحلى شرقى البحر المتوسط ، ولم يكن هذا بالامر المستطاع وقتذاك ، نظرا للقلاع والموانى التى كان الغزاة يتحصنون بها على طول الساحل ٠ ثم ان احراز النصر النهائى عن هذا الطريق لم يكن مضمون النتائج ، بسبب ما قد يحدث من ثغرات داخل الجبهة العربية نفسها قبل استكمال توحيدها ، قد يستغلها العدو لتحقيق اغراضه ٠ وهناكشواهد عديدة على ذلك يمكن أن نستشفها من خلال الصراع اليومى بين الطرفين ٠ هذا عن الحل الاول ، أما الحل الثانى فهو أن يبادر العرب بتكوين جبهة قوية

---

(١) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ـ الاسكندرية ١٩٥٨ ـ ص ٧٣ ـ ٧٦ و ١٦٤ وما بعدها ٠

متحدة من أقصى الشمال فى الشام والعراق الى أقصى الجنوب فى مصر، بحيث يمكنها الاطباق على مستعمرات الغزاة من جميع الجهات ، وبذلك يصبح من السهل دفعها بقوة وعنف نحو البحر حتى تنكمش وتتضاءل الى أن ينتهى الامر بزوالها ٠

يقظة العرب فى القرن السادس الهجرى

(القرن الثانى عشر الميلادى)

هذا ما حدث بالفعل فى الدور الثالث والاخير من العدوان الصليبى، هو الذى أثبتت فيه اليقظة العربية وجودها وآتت ثمارها ٠ ففيه برزت القوى العربية الفتية التى أخذت على عاتقها مهمة اتمام توحيد الجبهة العربية المفككة ، واقامة دولة قوية متماسكة ، يمكنها مقاومة الفرنج ودفع خطرهم ٠ وقد تمخضت هذه الحركة عن ظهور شخصيات عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود (١) وصلاح الدين الايوبى الذين عرفوا

---

(١) Runciman, op. cit., II, 325 - 344, 403 - 435; Grousset, op. cit., 62 ff., 363 ff., 650 ff.

وحول جهاد عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود ضد الفرنج ، أنظر ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ــ ص ٢٧٩ ــ ٢٨٠ و ٣٣٣ و ٣٣٩ ــ ٣٤٢ ؛ ابن الشحنة : الدار المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ــ بيروت ١٩٠٩ ــ ص ٢١٩ ؛ ابن الاثير : اتابكة الموصل ــ ص ١١٨ ــ ١٢٥ و ١٩٤ و ٢٠٧ و ٢١٩ ــ ٢٢٤ و ٢٣٣ ــ ٢٣٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ــ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ــ جـ١ ــ القاهرة ١٩٥٣ ، وبخاصة صفحات ٧٢ ــ ٧٥ و ٨١ ــ ٨٣ و ١٢٠ ــ ١٢٥ و ١٢٧ ــ ١٢٨ و ١٣٤ ــ ١٣٦ و ١٤٣ وما بعدها ٠ راجع أيضـــا :

Grégoire le Prêtre, Chronique, R. H. C. - Doc. Arm., I, Paris, 1869, 157.

كيف يشقون طريقهم ، وكيف يحشدون القوى العربية ، ويثيرون الحماسة وروح الجهاد فى نضال عنيف ضد الفرنج • وكانت النتيجة انهم تمكنوا فى سنوات قلائل من توحيد الجبهه العربية من برقة غربا الى الفرات شرقا ، ومن الموصل وحلب شمالا الى النوبة واليمن جنوبا ، فى دولة واحدة لها حاكم واحد ، مركزها القاهرة ، ويعمل لها العدو ألف حساب • وبذلك تم تطويق المستعمرات الصليبية بحزام قوى من كل جانب • ولم يكن أمام الفرنج هذه المرة سوى البحر • وحتى من هذه الناحية أصبح مركزهم مهددا بالخطر ، لان الاسطول المصرى القوى كان واقفالهم بالمرصاد • (١) وقد انتابهم الخوف والفزع ، حتى لقد قال وليم الصورى الذى عاصر هذه الحقبة وشاهد أحداثها ، ان هذا التغيير الجوهرى الذى طرأ على القوى العربية قد وقع على رءوس الغربيين وقع الصاعقة ، وكان بمثابة مصيبة كبيرة لمصالح مستعمراتهم فى فلسطين (٢) •

لقد أصبح كل شىء معدا لتوجيه الضربه القاصمة بعد أن قضت حركة اليقظة العربية على كل أمل للغزاة فى الامتداد والتوسع ، بل وفى مجرد البقاء على قيد الحياة • وجاء هذا أيام صلاح الدين الايوبى •

---

(١) وفى هذا يقول الدكتور جمال الدين الشيال « وقد كانت سياسة زنكى تهدف لتأليف جبهة اسلامية متحدة متكاتفة ليتمكن من مناضلة الصليبيين ، ثم سار على نهجه ابنه نور الدين محمود بن زنكى ، فبذل جهودا طيبة لتكوين الجبهة العربية الاسلامية الموحدة » و « كان (صلاح الدين) يريد ان يعمل على توحيد الشام ومصر فى جبهة اسلامية واحدة نستطيع أن تقف فى وجه الصليبيين وتقضى على ملكهم » • أنظر : وحدة مصر وسوريا فى العصر الاسلامى - ص ٧ و ١٣ •

(٢) Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, R. H. C. - H. Occ., I, 2e. p., Paris, 1844, 895-7.

فبعد أن اطمأن الى سلامة الكيان العربى الواحد ، قام بجهاده المعروف ضد الصليبيين ، والذى انتهى بهزيمتهم هزيمة ساحقة فى موقعة حطين فى ربيع الآخر ٥٨٣هـ (يوليو ١١٨٧م) ، وردهم عن البيت المقدس فى رجب من نفس العام (اكتوبر ١١٨٧م) (١) ، أى بعد شهر تقريبا من موقعة حطين · وبذلك اعتدل ميزان القوى فى المنطقة لصالح العرب ، وانكمشت امارات الغزاة فى رقعة ضيقة بالساحل الشامى · وتوالت انتصارات العرب ، وانكسرت كل الحملات التى شنها الصليبيون منذ ذلك التاريخ · فحين قامت الحملة الصليبية الثالثة بعد تحرير القدس بعامين لاعادة غزوها ، فشلت فى مهمتها · كما انتهى أمر الحملات التى تعرضت لها مصر خلال النصف الاول من القرن السابع الهجرى (النصف الاول

---

(١) حول جهاد صلاح الدين ضد الفرنج والحملة الثالثة ، أنظر ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٦٤ ـ ص ـ ٢١ ـ ٢٣ و ٤١ ـ ٤٣ و ٤٨ ـ ٤٩ و ٦٣ و ٦٦ و ٦٤ و ٧٥ وما بعدها ؛ عماد الدين الاصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ـ القاهرة ١٣٢١ هـ ـ ص ١٧ ـ ٢٥ ٣٦ ـ ٤٥ و ١٤٠ ـ ٢٦٠ و ٣١٤ ـ ٣١٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى ايوب ـ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ الجزء الثانى ـ القاهرة ١٩٥٧ ـ ص ١٤٨ وما بعدها و ١٥٧ وما بعدها و ١٨٥ وما بعدها · راجع ايضا :

Vartan le Grand, R. H. C. - Doc. Arm., 1, Paris, 1869, 439; Ambroise, The Crusade of Richard Lion - Heart, tr. by M. J. Hubert, New York, 1941, 108 - 118, 124 ff.

والكتاب الاخير مترجم شعرا عن الفرنسية القديمة ، ويتألف من اكثر من اثنى عشر الف بيت من الشعر ، وهو مذيل بتعليقات وحواش قيمة بقلم الاستاذ جون لامونت · راجع أيضا عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين الايوبى (القاهرة ١٩٥٨) ، ص ١٠٠ ـ ١٥٠ ·

من القرن الثالث عشر الميلادى) بالاخفاق والخذلان (١) • ولم يكن مصير آخر الحملات الصليبية ، وهى التى قام بها لويس التاسع ملك فرنساعلى تونس سنة ٦٦٩هـ (١٢٧٠م) ، بأحسن حظا من الحملات السابقة (٢) •

هكذا أخفقت جميع الحملات التى تعرض لها العالم العربى فى العصر الاسلامى ، بعد يقظته وافاقته ، وباتت مستعمرات اللاتين المتبقية لهم بالساحل الشامى تنتظر مصيرها المرتقب ، وأصبحت المسألة مسألة زمن فحسب • ومن موقف القوة واصل المماليك البحرية خلال النصف الثانى من القرن السابع الهجرى (النصف الثانى منالقرنالثالث عشر الميلادى)،

---

(١) المقصود حملة جان دى بريين صاحب عكاً والملك الأسمى لبيت المقدس فى عهد الملك الكامل محمد بين سنتى ٦١٥ و ٦١٨ هـ (١٦١٨ - ١٢٢١ م) ، وحملة لويس التاسع ملك فرنسا فى عهد الملك الصالح نجم الدين ايوب بين سنتى ٦٤٦ و ٦٤٧هـ (١٢٤٨ - ١٢٥٠ م) • والمكتبة العربية غنية بالمؤلفات الحديثة فى تاريخ هاتين الحملتين ، وبخاصة الحملة الثانية ، نذكر منها تآليف محمد مصطفى زياده : حملة لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة - القاهرة ١٩٦١ ؛ حسن حبشى : الشرق العربى بين شقى الرحى «حملة القديس لويس على مصر والشام» القاهرة ١٩٤٩ ؛ جوزيف نسيم يوسف : العدوانالصليبى على مصر -ط• ثالثة- الاسكندرية ١٩٨٤ ، وهزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل - القاهرة ١٩٦٠ • فضلا عن المراجع التى أرخت للعدون الصليبى بصفة عامة ، وتناولت فيما تناولته تاريخ هاتين الحملتين •

(٢) وذلك فى عهد صاحبها محمد بن يحيى الملقب بالمستنصر • أنظر عن الحملة : المقريزى الخطط - جا - ص ٢٢٣ ؛ والسلوك -جا قسم٢ - ص ٣٦٤ - ٣٦٥ و٥٠٢ و٥٩٠ • وكذلك

Joinville, op. cit., 404 ff.; Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur, R. H. C. - H. Occ., II, Paris, 1859, 458 ff.

وكان قد استتب لهم الامر فى مصر والشام ، مهمة طـرد الفرنج مـن الشريط الضيق بالساحل الشامى · فاستولى الظاهر بيبرس على انطاكية فى رمضان ٦٦٦هـ (مايو ١٢٦٨م) ، بينما وقعت طرابلس فى يد المنصور سيف الدين قلاوون فى ربيع الآخر سنة ٦٨٨هـ (ابريل ١٢٨٩ م) · وفى جمادى الاول سنة ٦٩٠ هـ (مايو ١٢٩١ م) استولى الاشرف خليل على عكا آخر معاقلهم الهامة بالاراضى المقدسة · وفى نفس السنة تم تصفية باقى الجيوب الصليبية فى فلسطين ، عندما طردهم المسلمون من بيروت وصيدا وصور وحيفا(١) · وبذلك انهار سلطان الفرنج تماما من منطقة الشرق الادنى العربى ·

المغـــول والعـدوان الصـليبى

ان الحديث عن حركات الترابط العربى فى مواجهة العدوان الصليبى يستوجب الاشارة الى عنصر ثالث استجد على مسرح الاحداث فى اواسط القرن السابع الهجرى (اواسط القرن الثالث عشر الميلادى) ، وكان له دوره فى الصراع الدائر بين العرب واللاتين فى منطقة الشرق الادنى ، ونعنى بذلك المغول · فقد اصبح المغول منذ اوائل ذلك القرن خطرا يهدد القارة الاوروبية · ورأى البابوات واهل الغرب ان خير وسيلة لاتقاء شرهم ، هى العمل على كسبهم الى الكاثوليكية ، واستمالتهم اليهم فى حرب صليبية مشتركة ضد الاسلام فى الشرق ، فى وقت كان فيه افرنج

---

(١) النويرى نهاية الارب فى فنون الادب – نسخة بالتصـوير الشمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة – جـ٢٨ – لوحة ٩٤ وما بعدها ؛ المقريزى : السلوك جـ١ – قسم ٢ – ص ٥٦٧ وما بعدها ، وجـ١ قسم ٣ – ص ٧٤٧ وما بعدها · راجع أيضا :

A. S. Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938, 29 ff.

الشام يتلقون اشد الضربات من العرب ، وفى وقت كانت فيه اوروبا الغربية تستجدى العون لحملة عدوانية جديدة ٠

وتنفيذا لهذه السياسة ارسل البابا انوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤م) اثناء انعقاد مجلس ليون الكنسى سنة ١٢٤٥م عدة سفارات الى المغول اخفقت فى تحقيق اهدافها الرئيسية ، وان كانت قد ابعدت الخطر المغولى عن اوروبا ٠ وتجددت المفاوضات بين الطرفين بعد ذلك بفترة قصيرة ٠ ففى اثناء اقامة الملك الفرنسى لويس التاسع فى جزيرة قبرص قبل ابحاره فى حملته الصليبية الى مصر ، ارسل له احد الحكام المغول فى وسط فارس سفارة تحمل رسالة يطلب فيها الاشتراك مع اللاتين فى حملة صليبية كبيرة للاستيلاء على البيت المقدس من العرب ٠(١)

ويجد الباحث المدقق ان كلا من اللاتين والمغول كان يعمل على استغلال الآخر لمصلحته الشخصية ٠ فاذا نظرنا الى المغول نجد انهم اخذوا منذ وقت غير قريب فى وضع الخطط الاولية لتكوين امبراطورية قوية لهم تدخل فى نطاقها بلاد الشام والعراق ٠ وكانوا يعرفون مبلغ الضعف الذى وصلت اليه الخلافة العباسية فى بغداد آنذاك ، وانها لا بد ان تسقط عند اول ضربة توجه اليها ٠ وادركوا ايضا ان مصر ، باعتبارها زعيمة العالم العربى ، يستحيل ان تقف من هجومهم موقف المتفرج ، بل سوف تهب لصد عدوانهم الذى كان يهددها هى الاخرى تهديدا مباشرا ٠ لذا وجدوا ان اسلم الطرق لتحقيق مآربهم فى رقعة الشرق الادنى العربى هى العمل يدا واحدة مع الصليبيين الغربيين للقضاء على سلطان مصر

---

(١) Joinville, op. cit., 47; Rothelin, op. cit., 569 ff; cf. also A. S. Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938, 233 ff.

وازالة قوتها من الميدان • وكان طبيعيا ان يرحب الجانب اللاتينى بذلك ، بل كان هذا ما يتمناه ملك الفرنسيين (١) •

لكل هذا رحب الملك اللاتينى بفكرة التعاون المشترك مع المغول • وأوفد اليهم بعثتين بين سنتى ١٢٤٩ م و١٢٥٢ م ، لم يكن مصيرهما بأحسن من مصير السفارات السابقة (٢) •

ومع ذلك ، فقد كان لهذه التحركات والاتصالات المغولية اللاتينية نتيجة اخرى هامة • اذ تأكدت اطماع المغول فى المنطقة العربية • وما هو اهم ، استشعار مصر والعرب فى الشرق الادنى بالخطر الجديد المقبل من الشرق الاقصى ، وادراكهم ما كانت تعنيه فكـــرة تكوين جبهـــة لاتينية مغولية مشتركة ضد العروبة والاسلام • فكانوا يعلمون جيـــدا ان المغول يستعدون لتوسيع رقعة املاكهم على حساب الخلافة العباسية التى كانت تحتضر آنذاك • ويعلمون كذلك ان انشغالهم فى صراعهم مع الصليبيين سوف يسهل على المغول مهمتهم • وهذا ما حدث • ففى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) قضى المغول على الخلافة العباسية فى بغداد ، وانطلقوا بعد ذلك يعيثون فسادا فى ربوع الشام الذى كاد ان يقع فى ايديهم •

كل هذا ايقظ العرب فى مصر والشام ، وادى الى تكتيل القوى وحشد الجهود فى الوقت الذى كانوا يوجهون فيه الضربات القوية الى مستعمرات اللاتين المتبقية لهم فى الشام • وانتهى الامر بأن الحقت مصر

---

(١) حسن حبشى : الشرق العربى بين شقى الرحى — ص ٣٦ — ٣٧ ، وكذلك

L. Bréhier, L'Eglise et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1928, 222.

(٢) Joinville, op. cit., 74, 258 ff., cf. also Atiya, op. cit., 243 ff.

بالعنصر المغولى هزيمه ساحقة فى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) • (١) وبذلك تم انقاذ مصر والشرق الادنى العربى كله من حطر ماثل • وتفرغ المماليك لتأديب الصليبيين وطردهم من بقية المعاقل الساحلية التى كانوا يتحصنون بداخلها على امتداد الساحل الشامى •

العدوان الصليبى فى القرن الثامن الهجرى

(القرن الرابع عشر الميلادى)

لم تمت الفكرة الصليبية تماما بسقوط عكا وآخر معاقل اللاتين فى شرقى البحر المتوسط فى اواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، وبكبح جماح المغول فى عين جالوت ، بل نجد انها استمرت خلال القرن الرابع عشر ، ولكن فى ظروف تختلف عن الظروف التى بدأت بها • كان الغرب الاوروبى آنذاك فى فترة تغير وانتقال ، ولم يكن هناك شىء ثابت على حاله • وقل اهتمام الناس بالفكرة الصليبية نفسها نتيجة الصراع العنيف بين البابوية والامبراطورية على المسائل العلمانية • هذا فى الوقت الذى اصبح فيه للمسائل التجارية الاعتبار الاول • واخذ الصراع بين شقى العالم معنى جديدا • اذ اصبح الادعاء الدينى ادعاء ظاهريا مكشوفا بعد ان اختلط بمصالح عالمية مادية • وخير مثال على ذلك المواطن الايطالى الذى فقد اعتقاداته الدينية الوسيطة بسبب الكسب المادى من التجارة • وعلى هذا كانت محاولة احياء الروح الصليبية فى الغرب بعد سقوط عكا عملية مقضيا عليها بالفشل منذ البداية •

---

(١) ابو الفرج : تاريخ مختصر الدول ـ بيروت ١٨٩٠ ـ ص ٤٣٨ وما بعدها و ٤٤٦ و ٤٧١ وما بعدها ؛ أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ـ القاهرة ١٣٦٦ ـ ص ١٩٨ وما بعدها ؛ المقريزى: الخطط ـ جـ٢ ـ ص ٢٣٨ •

حقا لقد قام كثير من الدعاة والمبشرين بالدعوة لها فى شتى ارجاء الغرب • ومن اشهر هؤلاء بطرس ديبوا ، ورامون لال ، وبطرس توما ، وفيليب دى مزيير • وحقا قامت عدة حملات صليبية لتحقيق نفس الاطماع القديمة ، ومن اهمها حملة بطرس لوزنيان على الاسكندرية سنة ١٣٦٥م ، وحملة لويس الثانى دوق بوربون على المهدية سنة ١٣٩٠م ، وحملة نيقوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦م• ولكن تلك الحملات فشلت فى تحقيق اهدافها • وتعتبر الحملة الاخيرة منها هى آخر محاولة جدية قامت بها اوروبابأسرها لا لاخراج الاتراكالعثمانيين من شبه جزيرة البلقانفحسب بل للوصول الى بيت المقدسفى قلب دولة المماليك ايضا • ولكن الحملة تحطمت فوق صخرة المقاومة العربية ، كما تحطمت الحملات السابقة لها • واصبحت فكرة الاستيلاء علىألاراضى المقدسة حلما مناحلام الماضى البعيد حاول اللاتين عبثا احياءها ، ولكن النتيجة لم تكن فى صالحهم على الاطلاق •

ولو القينا نظرة فاحصة على مسرح الاحداث وقتذاك للتعرف على الاسباب التى أدت الى انتصار العرب وخذلان اللاتين ، نجد ان دول الشرق الادنى ، ونعنى مماليك مصر والدولة العثمانية ، كانت فى حالة من القوة والانتعاش تساعدها على تسديد ضربات قاصمة الى الصليبيين الغربيين ، فى وقت كان فيه الغرب فى حالة ضعف وتدهور وفى فترة تغير وانتقال • لقد كان هذا العصر من عصور القوة العربية الاسلامية ، يقابله عصر تفكك وانحلال فى اوروبا •

يقظة العرب فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة

(القرنان الرابع عشر والخامس عشر للميلاد)

وكيفما كان الامر ، فقد كان لهذا الفشل الذى منيت به اوروبا اثره الكبير على مجرى الحوادث فى كل من الغرب والشرق الادنى • اذ انصرف الغرب

الى شئونه الداخلية تاركا نهائيا فكرة الحرب الصليبية • أما فى الشرق الادنى ، فقد اصبح لمصر بحكم مركزها الجغرافى والحربى السيادة المطلقة على سواحل شرقى البحر المتوسط ، واصبحت تركيا قوة اوروبية الى جانب كونها قوة آسيوية • وقد فشلت محاولات البابا بيوس الثانى (١٤٥٨ – ١٤٦٤ م) الوقوف فى وجه الاتراك فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ، لانه كان فى الواقع يحاول احياء فكـــرة اصبحت فى عداد الماضى (١) •

---

(١) انظر عن ذلك :

Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, 3 - 9, 17 - 23, 48 - 52, 74 ff., 128 ff., 345 ff., 398 ff., 435ff., 480 - 3; idem, Crusade, Commerce and Culture, Bloomington, 1962, 92 - 111; idem, The Crusade of Nicopolis, London, 1934.

وللمزيد من التفاصـــيل عن الداعية فيليب دى مزيير وحياته ، وهيئة فرسان آلام المسيح التى دعا الى انشائها واهدافها ، انظر :

A. H. Hamdy, «Philippe de Mézières and the New Order of the Passion,» Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Part I, 45 - 50, Part II, 8 - 41.

وفيما يتعلق بحملة بطـرس لوزنيان على الاسكندرية ، اشـار جمال الدين الشيال فى كتابه « الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من اقدم العصور الى الوقت الحاضر » – القاهرة – طبع دار المعارف – ص ٢٣٤ – ٢٣٥ وص ٢٣٤ ح ٢ ، الى اهم البحوث التى كتبت عن الحملة بالاضافة الى المصدر الرئيسى المعاصر لها وهو مخطوطة النويرى السكندرى المسماه « الالمام بما جرت به الاحكام المقضية فى واقعـــة الاسكندرية فى سنة سبع وستين وسبعماية وعودتها الى حالتهـــا المرضية » والتى توجد نسخة خطية منها بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٤٢ تاريخ • وقدنشرها نشرا محققا فىسبعةمجلدات الدكتور عزيز =

وكما حدث فى اواخر القرن السابع الهجرى (اواخر القرن الثالث عشر الميلادى) ، كذلك كان رد الفعل الطبيعى فى القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) • ويتمثل رد الفعل هذا فى هجمات عربية اسلامية مضادة هدفها طرد اللاتين من المناطق التى لا تزال بأيديهم • وهى تتناول الاتراك العثمانيين وهجماتهم المضادة لهجمات الصليبيين • وكان الصراع فى هذه الفترة فى البلقان والقسطنطينية •اذ اخذ العثمانيون يكتسحون البلقان ، ويسددون الضربات القاصـــمة الى الامبراطورية البيزنطية ـ وكانت تعانى آنذاك من الضعف والانحلال ـ الى ان انتهى الامر بسقوط عاصمتها القسطنطينية فى ايديهم سنة ١٤٥٣ م ، فتحقق بذلك امل كان السلاجقة يسعون اليه فى القرن الحادى عشر • وبسقوطها ينهار آخر صرح من صروح المؤسسات الوسيطة • وكان من نتائج ذلك اعتراف اوروبا بالعثمانيين كقوة اوروبية جديدة رغم أصلهم الآسيوى ودينهم الاسلامى •

هذا منجهة ، ومنجهة اخرى فقد قام مماليك مصربهجماتهم المضادة لهجمات الفرنج ، وكان مسرح الصراع هو ارمينية وقبرص ورودس • وكان موقف مصر بمثابة دفاع هجومى ضد الحرب العدوانية التى كانت أوروبا اللاتينية تتشنها تحت شعار الصليب • وكان من نتيجة ذلك انتصار مصر فى ميادين عديدة فوق اراضى الشرق الادنى ومياه الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، مدفوعة بواجب الجهاد المقدس باعتباره فرضا واجب الاداء ، يستهدف اساسا الدفاع عن الوطن العربى والقضاء على

= سوريال عطيه تحت عنوان «كتاب الالمامبالاعلام فيما جرت بهالاحكام والامور المقضية فى واقعة الاسكندرية ـ ٧ جـ ـ الهند ١٩٦٨ ـ ١٩٧٦م/ ١٣٨٨ ـ ١٣٩٦ هـ » •

اعدائه . وقد بدأ هذا الهجوم المضاد باحتلال المماليك مملكة ارمينية المسيحية عام ١٣٧٥ م (١) .

ولضمان احراز انتصارات حاسمة وقاطعة ضد باقى الممالك اللاتينية فى شرقى البحر المتوسط حيث يعتصم اللاتين فى الجزر البحرية ، كان من الضرورى على المماليك انشاء اسطول قوى لنقل الجند والعتاد ومهاجمة السواحل . وقد اوقفت الحاجة الى الاسطول تقدم المماليك قرابة نصف قرن . ولكن يجب الا ننسى انه من خلال هذه الفترة كان الاتراك العثمانيون يكتسحون البلقان ويسددون الضربات القويةالى الامبراطورية البيزنطية .

وهكذا ، ما ان انتهى الامر بالشام اولا ، وبأرمينية ثانيا ، حتى جاء دور مملكة قبرص اللاتينية التى طالما سببت للشرق الادنى العربى مضايقات ومتاعب كثيرة . وقد بدأ الهجوم المضاد عليها عام ١٤٢٤ م ، وكان المماليك مازالوا يذكرون حملة بطرس لوزنيان على الاسكندرية وما اتته من اعمال العنفوالتخريب فىالثغر المصرى وما زالوايذكرونايضاتلك الجزيرة كقاعدة للعدوان الغربى وكمركز لامداداته وتموينه وتجهيزاته العسكرية ضد الثغور المصرية والشامية . كل هذا جعل المماليك يقررون

---

(١) تكشف مراجع الحركة الصليبية عن تعاون مملكة ارمنية مع كل من الصليبيين والمغول ضد العرب . ويتضح هذا فى مناصرتهم للصليبيين خلال الحملة الاولى . انظر :

Grousset, Hist. des Crois., I, 31 — 43.

كما كان ملكهم المسمى هيتوم الاول (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) هو العامل الرئيسى فى اقناع خان المغول بارسال الحملة التى قضت على الخلافة العباسية فى بغداد بقيادة هولاكو سنة ١٢٥٨م . انظر ابو الفرج: تاريخ مختصر الدول - ص ٤٥٩ وما بعدها . ومن هنا كان انتقام مماليك مصر من تلك المملكة .

غزو الجزيرة تأمينا لديارهم وعقابا للفرنج المعتدين • يضاف الى ماتقدم عامل آخر ، وهو ان الجزيرة غدت وقتذاك مأوى للقراصنة من الفرنج الذين تعاونوا من آل لوزنيان فى مهاجمة السواحل الخاضعة لسلطان مصر المملوكى ، واصابوا تجارة المماليك بخسارة كبيرة • وبلغ بهم الامر أن صاروا فى القرن الخامس عشر خطرا حقيقيا على مصر • لذلك وجه المماليك ثلاث حملات بحرية اليها ، الاولى عام ١٤٢٤ م وقد الحقت هزيمة كبيرة بقوات آل لوزنيان • وحدثت الحملة الثانية فى السنة التالية حيث هزمت القوات القبرصية وكبدتها خسائر فادحة • وكانت الحملة الثالثة والاخيرة عام ١٤٢٦ م • وقد توجهت الى الجزيرة فى عـدد ضخم من السفن والرجال فى وقت كانت فيه قبرص تعانى من الضعف والتفكك • وانتهت بانتصار حاسم للمماليك ، وبأسر ملك قبرص المسمى جانوس Janus الذى دفع الثمن غاليا • اذ لم يطلق صراحه الا بعد الموافقة على دفع غرامة باهظة وجزية سنوية ، وتسلم المملكة كاقطاع من قبـــل السلطان المملوكى •

ومنذ ذلك الحين اصبحت قبرص قاعدة عربية قوية توجه منها الضربات الحاسمة الى باقى معاقل اللاتين • وكان طبيعيا بعد ان هذاالظفر الحاسم ان يرنو المماليك بابصارهم الى ميدان جديد • وكان هذا الميدان جزيرة رودس حيث يعتصم فرسان القديس يوحنا • لكنهم وجـــدوا مقاومة عنيفة من هؤلاء الفرسان خلال الحملات الثلاث التى قاموا بهــا خلال سنتى ١٤٤٠ و١٤٤٤ م • ولو ان هذه الحملات لم تؤت ثمارها ، الا انها نبهت سلاطين الاتراك العثمانيين الذين حاصروا الجزيرة مرتين بهدف امتلاكها • فقد قام السلطان محمد الثانى بالمحاولة الاولى عــام ١٤٤٨ م ، ولكنها صمدت الى عام ١٥٢٢ م حين استطاع سليمان الاول ان يستولى عليها فى عهد القائد الاعظم للفرسان فيليب دى مزيير (١) •

---

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 463 ff.; idem Crusade, Commerce and Culture, 129 ff.

وحول استخدام قبرص كقاعدة للعدوان الصليبى ضد مصر وبلدان =

هكذا كانت الفكرة الصليبية تلفظ آخر انفاسها فى وقت كانت فيه العصور الوسطى نفسها بمثلها ومبادئها وفلسفتها وافكارها فى طريقها الى الزوال ليحل محلها عصر جديد • وادرك الاوروبيون ان تلك الفكرة بمعناها المألوف لم تعد تصلح قناعا لاخفاء اطماعهم القديمة فى العالم العربى ، بل اصبحت ذكرى لماض بعيد بغيض • واخذ العالم يتجه نحو مثل ومبادىء مغايرة لما كان معروفا فى القرون الوسطى أيام سطوة الكنيسة وسيطرة البابوية والاقطاع • واخذت عجلة التاريخ تشق طريقها فى سرعة مذهلة وسط احداث وتقلبات هامة شهدها عصرنا الحديث • وقامت حربان عالميتان قلبتا الاوضاع وميزان القوى فى العالم رأسا على عقب • وظلت اطماع اهل الغرب فى المنطقة العربية كما هى دون تغيير ، بالرغم من التغيير الجوهرى الذى طرأ على كافة الظروف من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وغيرها • لم تزل الاطماع الاستعمارية ولم تتغير ، وانما الشىء الوحيد الذى زال هو الرداء الذى البسوه هذه الاطماع • فبعد ان كان رداء صليبيا فى عصر يقبل مثل هذه الاوضاع ولا يفهم شيئا سواها خلع رداءه وكشف عن حقيقته عارية •

آراء واستنتاجات

مما سبق يمكن ان نستخلص عدة آراء واستنتاجات هامة ، نجملها فيما يلى :

اولا : تكشف الخطوط العريضة البارزة التى اوضحناها فى هذا البحث عن فكرة لها مغزاها ودلالتها ، تتعلق بعصور القوة والتماسك

= الشرق الادنى فى العصر الاسلامى ، انظر سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : قبرس والحروب الصليبية القاهرة ١٩٥٧ •

والتكتل وعصور الضعف والتأخر فى الشرق الادنى العربى منذ اوائل القرن السابع حتى اواخر القرن الخامس عشر الميلادى · ولماذا كان الخط البيانى يرتفع احيانا ليسجل ذروة القوة والمنعة فى المشرقالعربى ، ثم لا يلبث ان ينخفض ليشير الى فترة من فترات التدهور والانقسام والانحـلال ، وهكذا · وماذا كانت النتائج الخطيرة المترتبة على هـذا التفاوت بين القوة والضعف وبين التماسك والتفكك ·

وثمة فكرة اخرى ترتبط بسابقتها ، ونعنى بها تغير ميزان القوى فى الصراع السياسى والحضارى بين الغرب اللاتينى والشرق العربى ، ولماذا كان مركز الثقل يتغير بين القوتين هبوطا وصعودا · ففى الوقت الذى ترجح فيه كفة اللاتين الغربيين ، ولم يكن ميزان القوى فى صالح العرب اطلاقا · وبالعكس ، عندما ترجح كفة العرب ، كان يقابل ذلك انحطاط وتدهور فى اوروبا الغربية · ومن هنا عندما يشعر الغـرب انه الاقوى ، كان يقوم بهجماته العدوانية على العالم العربى ، ويحرز عادة انتصارات سريعة وخاطفة · وعندما يستجمع العرب قواهم ويكتلون انفسهم ، كانوا يقومون بهجمات وحروب مضادة تنتهى عادة بالحاق الهزيمة والخذلان بالمعتدين ، واستعادة ما استولوا عليه · وباختصار ، فقد اتخذ العرب فى عصور القوة سياسة الهجوم ، بينما التزموا بسياسـة الدفاع عن انفسهم وعن ممتلكاتهم بوجه عام فى عصور الضعف · ويرتبط هذا الى حد بعيد بالظروف والاحوال السائدة فى العالم العربى من سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية ودينية وغيرها ، وما يقال عن العـرب يقال ايضا عن الغرب الاوروبى · لكن عندما يعتدل ميزان القوى بين الفريقين ، كان هذا يعنى نوعا من الهدنة المؤقتة ، او فترة من التربص والانتظار ، مع الاستعداد والترقب لحين موافاة الفرصة المواتيـة

للانقضاض • والنجاح يكون آخر الامر لمن تهيىء له الظروف رجحان كفته (١) •

ثانيا : تنحصر الحقيقة الثانية فى ان الصراع بين الصليبيين اللاتين وبين العرب فى الشرق الادنى كان يبدأ عادة بهجمات صليبية كتلك التى قام بها الغرب عند بداية الحركة الصليبية فى اواخر القرن الحادى عشر ، وحملات القرن الرابع عشر الصليبية ، وكان يعقب كل هجوم غربى يقظة عربية وحملات مضادة لاسترجاع الاراضى المقدسة من ايدى الاوروبيين • ونجد مثلا لذلك فى يقظة القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى) فى عهد عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين الايوبى ، والتى انتهت بالحاق الهزيمة بالفرنج عندما استولى المماليك على انطاكية وطرابلس وعكا فى اواخر القرن السابع الهجرى (اواخر القرن الثالث عشر الميلادى) • وكذلك الهجمات العربية الاسلامية المضادة التى قام بها الاتراك العثمانيون ومماليك مصر فى القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) ردا على الحروب الصليبية المتأخرة فى القرن الثامن الهجرى (القرن الرابع عشر الميلادى) •

ثالثا : وهنا يجب ان نفرق بين اليقظات العربية الكبرى التى

---

(١) قسم كل من رينيه جروسيه وستيفن رنسيمان العدوان الصليبى الى ثلاثة ادوار رئيسية ، لكل دور ملامحه المميزة ومميزاته الخاصة به ، وجعلا هذهالادوار اساسا لمؤلفيهماالكبيرين عن ذلك العدوان• الدور الاول وهو الذى رجحت فيه كفة الصليبيين الغربيين على العرب فى الشرق الادنى ، والدور الثانى وهو فترة تعادل القوى بين الفريقين المتحاربين ، والدور الثالث والاخير وهو الذى رجحت فيه كفة العرب على الفرنج وانتهى بانتصارهم عليهم وطردهم من الاراضى المقدسة فى اواخر القرن الثالث عشر • أما الحملات الصليبية المتأخرة التى قامت فى القرن الرابع عشر ، فهى من وجهة نظرهما اثر من آثار الحركة الصليبية . أو حسبما اطلق عليها جروسيه ، هى خاتمة الحروب الصليبية • وجدير بالذكر ان كل فكرة من الافكار التى ذكرناها فى هذا الاستنتاج فى حاجة الى دراسة مستقلة قائمة بذاتها •

ابرزها العدوان الصليبى ، مثل يقظة القرن السادس الهجرى ، وحركة الافاقة التى بدت منذ اواخر القرن الثامن وخلال القرن التاسع الهجرى . اللتان تكتلت فيهما القوى والجهود فى مصر والشام والعراق ، واثمرتا حملات هجومية دفاعية كان لها اكبر الاثر فى طرد الفرنـــج الغرباء من رقعة الشرق الادنى العربى ومن الجزر البحرية التى كانوا يعتصمون بها فى البحر المتوسط - يجب ان نفرق بين هذه اليقظات الكبرى وبين حركات الترابط والتجمع العربى العادى امام اى خطر صليبى يتهدد العرب خلال الصراع اليومى بين الطرفين فى المنطقة • ونضرب مثـــلا لذلك بالحركات الفردية التى كان العراق وشمال الشام مسرحا لها بعد بداية الحركة الصليبية بقليل ، وقد اشرنا الى ذلك آنفا • وكذلك موقف المماليك فى مصر والايوبيين فى الشام من دسائس ومؤامرات الملك اللاتينى لويس التاسع فى اواسط القرن السابع الهجرى (اواســط القــرن الثالث عشر الميلادى) بعد هزيمته على ضفاف النيل وذهابه الى سورية لتجديد العدوان، ومحاولاته الايقاع بين الفريقين مستغلا فى ذلك بعض الخلافات الطارئة بينهما • وكانت النتيجة عكس ما توقع ، اذ تنبه الفريقان المتعاديان الى خطة الملك الصليبى ، وبادرا بالاتفاق والتراضى ، وبذلك اضاعا عليه فرصة كان يحلم بها (١) •

ولايضاح هذه الفكرة وبيان فلسفتها نقول ان العدوان الصليبى كان يبدأ عادة عندما يكون الشرق الادنى العربى منقسما على نفسه ، وفى حالة ضعف وتفكك • وينتهى غالبا بانتصارات سريعة وخاطفة على حساب العرب • ثم يحدث بعد ذلك استشعار العرب انفسهم بالخطر

---

(١) أنظر جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على بلاد الشام - ط • خامسة - الاسكندرية ١٩٨٤ - ص ١٨٣ وما بعدها •

وعواقبه ، ومبادرتهم بالتكتل والتجمع « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » • وغالبا ما تكون حركات التجمع العربى هذه محلية وفى مناطق الخطر نفسها ، بقصد العمل على منع امتداده واستفحاله • وكانت تحرز نجاحا جزئيا وليس نهائيا او حاسما • ولكنها كانت تعتبر البداية الطبيعية لحركة اليقظة والافاقة الشاملة التى تؤدى الى التئام شمل الشعوب العربية فى المنطقة فى وحدة واحدة متكاملة تحس بالخطر المشترك وبأبعاده ، وتدرك عواقبه ومضاعفاته ، وتستعد لدفعه والقضاء عليه • « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » •

وكانت هذه المراحل المتتابعة تؤدى فى نهاية الامر الى المرحلة الاخيرة الكبيرة ، ونعنى بها الجهاد المقدس • « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » • والمقصود بذلك الجهاد العسكرى المسلح فى سبيل الله والعروبة والوطن العربى • ويكون لهذا الجهاد نتائجه الحاسمة • اذ يؤتى ثماره الطيبة باجلاء الدخلاء عن المنطقة العربية ، واحراز نصر مبين عليهم • « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » •

ولو نظرنا الى العدوان الصليبى نظرة الفاحص المدقق المتعمق ، وتتبعنا مراحله من بدايتها الى نهايتها ، امكننا تفهم هذه الفكرة التى اسلفنا اليها •

رابعا : كذلك ، فان الدور الذى قام به المغول فى اواسط القرن السابع الهجرى (اواسط القرن الثالث عشر الميلادى) ، والسفارات المتبادلة بينهم وبين اللاتين ، والتلاحم الحربى بينهم وبين العرب - يكشف عن استنتاجات تميط اللثام عن حقيقة دوافع العدوان الصليبى • اذ كان هدف اللاتين تحويل المغول الى المسيحية على المذهب الكاثوليكى لتقوى بهم جبهتهم ، وبذلك تقع الاراضى المقدسة بين المغول واوروبا الغربية ، فلا يكون هناك مفر من بقائها فى قبضة الغربيين بقاء دائما •

ثم ان المغول اصبحوا طرفا ثالثا فى الصراع الدائر فوق اراضى المشرق العربى ٠

وثمة سؤال يثيره منطق الحوادث وهو : ماذا كان المصير لو تم فعلا تكوين جبهة لاتينية مغولية متماسكة ضد العرب والاسلام تؤدى الى حملة صليبية مشتركة ؟ تتوقف الاجابة عن هذا السؤال ، الى حد بعيد ، على تحليل الاحوال السائدة فى كل من الغرب اللاتينى والشرق الادنى العربى وقتذاك ٠ فقد كان الغرب يعانى من الضعف والتدهور (١) ، وأخذ ينصرف تدريجيا عن فكرة الحرب الصليبية (٢) ٠ وكان افرنج الشام يستجدون العون والمساعدة من اهل الغرب دون جدوى ، ولم يبق لهم سوى

---

(١) Cf. Bréhier, op. cit., 226; Stevenson, op. cit., 331.

(٢) Calmette, op. cit., 418.

ويعبر عن ذلك اصدق تعبير شاعر فرنسى عاصر فترة احتضار الفكرة الصليبية ، ويدعى ولدم رتيف W. Rutebeuf (١٢٤٥ - ١٢٨٥ م) ٠ اذ قال فى قصيدة له بالفرنسية الوسيطة انه من الحمق والغباء ان يخاطر الانسان فى حرب صليبية خارج بلاده طالما كان بوسعه ان يتصل بالله فى وطنه وان يعيش فى يسر ونعمة وسلام ٠ وفيها يتحدث عن رجال الدين،كبارهم وصغارهم٠ فى سخرية لاذعة وتهكم مرير ٠ فيقول انهم لا هم لهم سوى اشباع بطونهم المتخمة ٠ ويختتم القصيدة بنفس الفكرة التى بداها بها ، وهى الدعوة الى بقاء الغربيين فى بلادهم ٠ انظر

G. Masson, Mediaeval France, London, 1888, 96, 96 - 7.

والواقع ان الفكرة الصليبية لمتعد تلقى القبول والرواج ، خاصة بين المتعقلين المتحررين من اهل الغرب ٠ وقد أخذ الناس ينفضون عنها ،وبدأ كل فرديتجه الى مصالحه الخاصة،والدول الىمشاكلها الداخلية ٠وجديربالذكر انه ظهرت الكثير من المؤلفات التى تسخر من هذه الاوضاع السائدة فى المجتمع الغربى الوسيط وقتذاك ٠

بعض الحصون والمعاقل المبعثرة على امتداد الساحل الشامى • (١) أما المماليك فى مصر والايوبيون فى الشام ، فقد كانوا مسيطرين على الموقف خاصة بعد اتفاقهم • وكانوا يستعدون فعلا لتوجيه الضربة النهائية الى افرنج الشام (٢) • لكل هذا لم يكن ينتظر أن تحرز أى حملة لاتينية مغولية مشتركة ضد العرب نجاحا ما • وكان اقصى ما يمكن ان تحققه مثل تلك الحملة ، لو خرجت الى حيز التنفيذ ، هو اثارة بعض المتاعب والمضايقات للجانب العربى فحسب • والدليل على ذلك ان المماليك تمكنوا من الحاق الهزيمة بكل من الصليبيين والمغول متفرقين وفى وقت متقارب (٣) •

خامسا : غير خاف ان انكشاف الاتجاهات الاستعمارية التوسعية للحركة الصليبية منذ اللحظة الاولى التى وطأت فيها اقدام الصليبيين الاراضى المقدسة ، قد ساعد على ظهور حركات الترابط والتكتل العربى فى المنطقة ، تلك الحركات التى وصلت الىدور النضج والكمال فيما يعرف باليقظة العربية الشاملة • ولا شك ايضا ان مظاهر العنف والقسوة والتعصب وانعدام الرحمة التى تميز بها اللاتين ، كانت هى الاخرى عاملا هاما فى اثارة الروح القومية بين العرب ضد اولئك القوم •

سادسا : كانت مصر خلال هذا الكفاح الدامى المرير عبر القرون المتعاقبةهى قلب العروبة النابض بالحياة ، ومعقلها المنيع ، ومركز امدادها بالرجال والمال والميرة والسلاح • واذاستثنينا الحملتين الاولى

---

(١) Cf. Grousset, Crois., III, 494; idem. Sum of Hist., 177 ff.

(٢) انظر المقريزى : السلوك - جا قسم ٢ - ص ٣٨٢ وما بعدها•
Joinville, op. cit., 294.

(٣) موضوع ترابط مصالح الصليبيين والمغول فى منطقة الشرق الادنى العربى ، فى حاجة الى مزيد من البحث والدراسة والتحليل •

والثانية ، حينما كانت دولة الفاطميين بمصر فى طور الاحتضار ، ولم يكن بوسعها هى اوغيرها من دول الشرق الادنى الوقوف فى وجه الدخلاء ، نجد انه ما من حملة صليبية اخرى امكنها الوقوف فى وجه القاهرة منذ ان استكمل الكيان العربى بناءه ايام صلاح الدين الايوبى • لذا انحصر هدف الغرب منذ ذلك الحين فى ازالة قوتها من الميدان ، يقينا منه انه لن يتم له المحافظة على وجوده بالشرق الا بقهر مصر اولا وقبل كل شىء (١) • وقد اوضح هذه الحقيقة المؤرخ الصليبى جان دى جوانفيل Jean de Joinville (٢) صاحب المذكرات الفريدة فى اسلوبها وفى بابها عن حملة لويس التاسع على مصر • وكان هذا من الاسباب التى ادت الى انتقال مسرح النزاع من الشمال فى الشام الى الجنوب فى مصر ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى ، بعد ان هيأ لها جهادها ضد الغزاة

---

(١) تعرض الدكتور جمال الدين الشيال فى كتابه « مجمل تاريخ دمياط » ـ الاسكندرية ١٩٤٩ ، لهذه الحقيقة بالدراسة والتحليل • فقد جاء فى ص ٢٠ من الكتاب المذكور ان الحركة الصليبية أصابها انقلاب خطير منذ اواخر عهد الملك العادل ، « اذ لاحظ الصليبيون ان مصر هى حصن الاسلام القوى وضيعته الغنية ، وانها مصدر الامداد القوية الوفيرة من الرجال والميرة والسلاح الخ •• •• •• » انظر حول هذا الموضوع كذلك المراجع التالية :

St. Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936, 218; idem, The Story of Cairo, London, 1924, 193; J. Pirenne, Les Grands Courants de l'Histoire Universelle, II, Neochatel, 1947, 100; J. Calmette, Le Monde Féodal, Paris, 1937, 408.

(٢) Joinville, op. cit., 100.

مركز القوة والصدارة فى العالم العربى فى العصر الاسلامى (١) ٠

ومن مصر أيضا كانت تنبعث دائما صحية الجهاد ضد الغزاة ٠فالجهاد كان عقيدة لها اثرها الفعال فيما احرزه المصريون على اعدائهم من انتصارات ٠ وكانت للخطب والمواعظ الدينية التى تلقى من فوق المنابر أكبر الاثر فى الحث على الجهاد ضد الغزاة ٠ وقد قام الجامع الازهر بدور رئيسى فى تنبيه الاذهان الى الخطر الجاسم فى ارض فلسطين ٠ فخطب

---

(١) حول فكرة اتجاه الصليبيين نحو مصر بهدف الاستيلاء عليها ، انظر محمد مصطفى زياده : حملة لويس التاسع على مصر - القاهرة ١٩٦١ - ص ٤ - ٣٦ ؛ حسن حبشى : الشرق العربى بين شقى الرحى - القاهرة ١٩٤٩ - ص ١٠ وما بعدها ٠ كما كشف الدكتور جمال الدين الشيال فى مؤلفه : مصر والشام بين دولتين - القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٤٧ - ٨ و٩٩ وما بعدها ، المعالم الواضحة والخطوط العريضة لهذه الفكرة ، عندما تناول قصة الاحداث التاريخية فى مصر والشام بين عامى ٥٥٨ و٥٦٩ هـ ، ابان تدهور الدولة الفاطمية وقيام الدولة الايوبية ٠ وهى قصة التنافس بين كل من نور الدين سلطان حلب وأمورى ملك بيت المقدس اللاتينى فى الظفر بمصر ، وتوالى حملات كل منهما عليها ، تلك الحملات التى انتهت بهزيمة الافرنج وانتصار جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه فى ربيع الآخر ٥٦٤ هـ ٠ انظر ايضا سعيد عاشور : الحركة الصليبية - جـ٢ - ص ٦٧٩ وما بعدها ٠ كذلك تناول هذه الفكرة بالدراسة والبحث استاذنا الدكتور جمال الدين الشيال فى دراسته التحليلية المقارنة للوثيقة رقم ١٩ ضمن مجموعة الوثائق الفاطمية ، وهى خاصة بتولية ابن شاور نيابة الوزارة عن ابيه ٠ انظر مجموعة الوثائق الفاطمية - جـ١ - ص ١٦١ - ١٧٠ ٠ ومن المؤرخين الغربيين الحديثين الذين تعرضوا لهذه الفكرة فى شىء من التفصيل والتحليل ، جوستاف شلومبرجيه فى كتابه الخاص بحملات اموري الاول ملك بيت المقدس ضد مصر ٠ انظر :

G. Schlumberger, Campagnes du Roi Amaury Ier. de Jérusalem en Egypte au XIIe. siècle, Paris, 1906.

العلماء ورسائل الحكام مؤيدة بآيات من كتاب الله تهدد العدو وتنذره بسوء الخاتمة « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ، و « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » وآيات تستنهض عزائم العرب ان يحملوا اعباء الجهاد دفاعا عن مقدساتهم ، «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم» ، «ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون » ٠ وآيات تبشر بالنصر وتؤكده « الا ان نصر الله قريب » ، « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » (١) ٠

وقصارى القول ان مصر هى التى تصدت لقتال الصليبيين والمغول ، ودونت بجهادها ضدهم صفحة مجيدة فى تاريخها ٠ وهى التى طردت الفرنج آخر الامر من الشريط الساحلى الضيق الذى كانوا يستعمرونه بالساحل الشامى ، ومن الجزر البحرية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ٠ وقامت بدور لا ينكر فى تكتيل القوى العربية لمواجهة هذا العدوان ٠ ثم هى الذى حملت لواء الزعامة ابانه ، وتحمل شعبها الكثير من الاعباء فى صده سواء أكان موجها ضدها مباشرة مثل حملة كل من جان دى بريين ولويس التاسع ، أو ضد غيرها من البلدان العربية كالحملة الثالثة (١) ٠ وان دل هذا على شىء فانما يدل على ما كانت تتمتع به مصر فى العصر الاسلامى الوسيط من مكانة وقوة وبأس ٠

سابعا : وهناك حقيقة جوهرية ترتبط بسابقتها ، وهى ان الحملات الصليبية التى تعرض لها الشرق الادنى الاسلامى ، كشفت عن ضرورة

---

(١) نجد امثلة عديدة على ذلك فى ابن واصل : مفرج الكروب ـ جـ٢ ـ لوحة ٣٦٤ ب (النسخة المصورة) ؛ المقريزى : الخطط ـ جـ١ ـ ص ٢٢٠ ؛ والسلوك ـ جـ١ قسم ٢ ـ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ ؛ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ـ جـ٦ ـ ص ٢٦٧ ٠ والمصادر العربية بصفة عامة زاخرة بالادلة على ذلك ٠ انظر ايضا جوزيف نسيم يوسف : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ص ٣٥ و ١١٧ ٠

الاهتمام بأمر الجيش ليصبح قوة رادعة ، وبالاسطول كذلك حيث تمتد الشواطىء العربية لمسافات طويلة • لقد حتم عليها موقعها الجغرافى والاستراتيجى واطماع الغزاة فيها ، الاهتمام الزائد بتدعيم قواتها البرية والبحرية (١) •

وجدير بالذكر ان المصادر العربية فى العصر الاسلامى تعرضت للجيش والاسطول فى العهدين الايوبى والملوكى ، وأولتهما الكثير من العناية • ويرجع ذلك الى ان هاتين الدولتين قامتا على فكرة الجهاد ضد الغزاة • فهما دولتان محاربتان جاءتا لطرد الصليبيين وغيرهم من الدخلاء من المنطقة العربية ، وضربتا اروع الامثال التى سجلها التاريخ المصرى الوسيط فى الكفاح ضد المغيرين •

وهذا يفسر سر اهتمام الايوبيين والمماليك بأمر الجيش الذى كان يعتبر من افضل جيوش العصر الوسيط فى الشرق والغرب اعدادا وتنظيما وتدريبا وتسليحا • (٢) اذ نعرف انه كان يتألف من فرسان ومشاة ، ويتكون من طوائف وفرق وطبقات ، فضلا عن جماعات المتطوعة والعربان والمرتزقة • (٣) وكان هذا الجيش مجهزا بكل ما انتجه العصر الوسيط من اسلحة ومعدات ، اهمها السيوف والسهام والرماح والنشاب والدبابيس والقسى والدروع والمتاريس ومكاحل البارود وقوارير النفط والستائر

---

(١) تمتاز اوراق البردى العربية باهميتها الكبرى فى دراسة التاريخ الاسلامى والحياة الاجتماعية ونظم الحكم والادارة • ويهمنا انها تضم عددا من الوثائق التى تسلط الاضواء على نظام الجيش والاسطول• انظر عن ذلك جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية - جـ١ - ص ٣ - ٤ - وص ٣ ح ١ •

(٢) انظر القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا - جـ٤ - ص ١١ - ١٦ •

(٣) انظر القلقشندى : المرجع السابق - جـ٤ - ص ١٤ وما بعدها ؛ ابن منكلى : كتاب الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية - نسخة بالتصوير الشمسى بمكتبة كلية آداب الاسكندرية - لوحة ٧٧ •

والنيران الاغريقية (١) • وكان المحاربون المصريون يستخدمون هذه الاسلحة فى قتالهم مع اعدائهم الصليبيين ، كما كانوا على علم بها قبل ان يستخدمها الغربيون انفسهم • وكانت مصر تنفق على جيشها هذا بسخاء ، مع بناء الحصون والقلاع والاستحكامات ودور حفظ السلاح اللازمة له ، وصيانتها وتزويدها بما يلزمها من العدد والرجال والعتاد (٢) •

واما البحرية فقد وجه لها المصريون ايام العدوان الصليبى عناية خاصة لعلمهم انها من اهم وسائل الدفاع عن البلاد ضد المغيرين عليها وضد الغزوات المفاجئة التى كانت الموانى والمياه العربية تتعرض لها بين وقت وآخر • (٣) وكان الاسطول المصرى يتكون من قطع مختلفة فى اشكالها

---

(١) القلقشندى : نفس المرجع - ج٢ - ص ١٣٥ وما بعدها وج٤ - ص ١١ وما بعدها ؛ ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين - القاهرة ١٩٤٣ - ص ٣٥٤ ؛ ابن منكلى : الاحكام الملوكية - لوحة ٨ - ٩ و٢٣ ومابعدها• راجع ايضا :

C. Cahen, «Un traité d'armurerie composé pour Saladin,» Bulletin d'Etudes Orientales, XII, 1947 - 1948, 15 ff.; Oman Hist. of the Art of War, II, 46 ff.

(٢) النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب - نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف - ج ٢٧ - لوحة ٩٢ • راجع ايضا الدكتور نظير حسان سعداوى : جيش مصر فى ايام صلاح الدين - القاهرة ١٩٥٩ •

(٣) تلقى المصادر الاسلامية الاضواء على ذلك • اذ تذكر انه عندما كانت الموانى المصرية او الشامية تتعرض لعدوان صليبى كانت مصر تبادر باعداد السفن وتجهيزها وارسالها على وجه السرعة الى الجهات المعرضة للخطر لمنع الاعداء من النزول فيها او احتلالها • نجد امثلة لذلك فى ابن واصل : مفرج الكروب - النسخة الخطية المصورة - ج٢ - لوحة ٣٥٦أ و ٣٦٨أ ؛ النويرى : نهاية الارب - النسخة الخطية المصورة - ج٢٧ - لوحة ٩١ - ٩٢ ؛ المقريزى : السلوك - ج١ قسم ٢ - ص ٥٨٧ - ٥٨٨ •

واحجامها واسمائها والاغراض التى تستخدم من اجلها ، واهمها الشوانى والحراريق والمسطحات والبطس والطرائد والمرمات والغربان • وكان بعضها يستخدم لنقل المقاتلين كالشوانى ، وكان البعض الآخر كالحراريق يستخدم لنقل الاسلحة النارية المعروفة وقتذاك ، والبعض لحمل الخيل كالطرائد ، والبعض لحمل الميرة والسلاح كالمرمات ، وهكذا (١) •

والامر الهام هنا ان العناية الفائقة التى وجهتها مصر فى عصور القوة والتماسك الى الجيش والاسطول كان لها ما يبررها • وقد اوحى هذا اليها بالبراعة والخلق والابداع فى شئون الحرب والقتال ضمانا للتفوق العسكرى وحفاظا على أمن المنطقة العربية وسلامتها • وعلى هذا يمكن القول ان هناك صلة وثيقة بين مركز مصر الجغرافى والاستراتيجى والغزوات التى تعرضت لها هى وغيرها من دول الشرق الادنى العربى ، وبين حتمية وجود قوة ضاربة متفوقة • وكانت هذه القوة – فى الواقع – هى حصن الدفاع الاول عن مصر وبلدان المشرق العربى ضد المعتدين ، واليها يرجع الفضل فيما لحق بالصليبيين والمغول من هزائم وويلات •

ثامنا : ان الحديث عن حركات اليقظة والافاقة العربية ودور مصر الايجابى فيها بفضل جيشها وبحريتها فى العصر الاسلامى ، يقودنا الى مسألة اخرى جوهرية تؤكدها الاحداث التى كانت المنطقة مسرحا

---

(١) فيما يتعلق بقطع الاسطول المصرى فى العهد الايوبى ، انظر ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين – ص ٣٣٩ وما بعدها • راجع المقريزى : الخطط – جـ٢ – ص ١٩٤ – ١٩٥ ؛ السلوك – جـ١ قسم ٢ – ص ٣٣٩ ح١ • ومن المراجع الحديثة ، أنظر عبد الفتاح عباده : سفن الاسطول الاسلامى وانواعها ومعداتها فى الاسلام – القاهرة ١٩١٣ ص٤وما بعدها ؛ ميخائيل عواد : المآصر فى بلاد الروم والاسلام – بغداد ١٩٤٨ – ص ٦٦ ح ٤ •

لبا • وهى ان فكرة توحيد الجبهة العربية فى كيان متكامل غير منفصم ووحدة واحدة لا تتجزأ ، تعتبر مرحلة هامة اساسية من مراحل جهاد العرب ضد المغيرين • ذلك ان الوطن العربى عندما كان منقسما على نفسه فى بداية العدوان الصليبى ، لم يكن بوسعه اطلاقا الوقوف فى وجه الصليبيين، أو احراز أى نصر حاسم عليهم • وأن كل الحملات التى قامت ضد الدخيل كانت حملات ضعيفة لم يقدر لها النجـــاح بسبب الانقسامات •ولكن عندما تكتل العرب،وواجهوا العدوصفا واحدا، واخيرا وطنا واحدا ، سهل عليهم احراز النصر النهائى عليه •

وهذه ظاهرة دورية عامة فى تاريخ العروبة والاسلام منذ الفتح وحتى يومنا هذا•وقد اثبتت الاحداث انه ضمانا للنصر الحاسم الاكيد ، يجب ان تسبق عملية الجهاد الاكبر عملية اخرى لاتقل عنها خطرا وشأنا الا وهى عملية توحيد الجبهة العربية ، فهى مرحلة ضرورية من مراحل هذا الجهاد • الدليل على ذلك ان صلاح الدين ، ومن قبله نور الدين محمود ، لم يقوما بجهادهما المعروف ضد الفرنج الا بعد تأمين الجبهة العربيه وتوحـــيدها • وفى ذلك يقول ولــيم ستيفنسون W. Stevenson فى كتابه « الصـــليبيون فى الشرق » ، ان السياســـــة العامـــــة التى صار عليها الزعماء والحكام العرب هى الامتنـاع قدر الاستطاعة عن مهاجمة الامارات اللاتينية بالشرق ، أو المغامرة فى حرب خطيرة مـــع اللاتين فى الوقت الذى كانوا يؤسسون فيه دولتهم (١) • وان كان

---

(١) Stevenson, Crusaders in the East, 723 - 4.
انظر ايضا جمال الدين الشـــيال : وحدة مصر وسوريا ـ ص ١٩ •
وفى هذا يقول الدكتور جمال الدين الشيال « ولم يكن صـــلاح الدين ليستطيع القضاء على مملكة بيت المقدس اذا كان حاكما لمصر وحدها ، أو حاكما لسوريا وحدها • وانما هو نجح فى القضاء عليها عندما دخل المعركة كحاكم واحد لدولة واحدة ، وكقائد واحد لجيش واحد ، يرفرف عليه علم واحد » أنظر : وحدة مصر وسورية ـ ص ٢٠ •

هذا لايمنع من القول انه كان يحدث فى بعض الاحيان أن تسبق عملية الجهاد المقدس عملية توحيد الجبهة ، أو أن تسير العمليتان جنبا الى جنب ، وذلك عندما يجد العرب انفسهم - نتيجة لظروف خارجة عن ارادتهم - مضطرين للاحتكاك باعدائهم . وكانت مثل هذه المصادمات أو المناوشات غير حاسمة أو قاطعة . والخلاصة أن العرب خرجوا من كفاحهم مع الفرنج بدرس ينحصر فى أن عملية تكتيل القوى العربية مرحلة أساسية لا غنى عنها يجب أن تسبق مرحلة الجهاد العسكرى ضد العدو ضمانا لنجاحه .

تاسعا : لقد أوضحت الازمات التى تعرض لها العالم العربى فى العصر الاسلامى أن الشعوب العربية لم تكن بمعزل عما كان يجرى حولها من أحداث وتقلبات . فقد أثبتت وعيا كبيرا وفهما عميقا لمجريات الامور والاحوال ، وأكدت وجودها وشخصيتها حتى فى عصور الضعف والتفكك . لقد أدت المقاومة الشعبية داخل الوطن العربى دورها كاملا الى جانب القوات النظامية فى الذود عن حياض الوطن . وآية ذلك المواقف المشرفة التى وقفها الشعب العربى فى مصر جنبا الى جنب مع جيشه فى الدفاع عن بلاده ضد ملك الفرنسيين لويس التاسع فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، مما سهل على الجيش مهمة الاجهاز على قوات العدوان (١) .

وثمة مسالة اخرى وهى ان اللاتين عندما كانوا يهاجمون احدى الدول العربية ، كانت الشعوب العربية تهب من كل مكان للانتقام منهم والاغارة على مستعمراتهم بالاراضى المقدسة . وتروى المراجع أن مصر

---

(١) انظر عن ذلك ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى ايوب - (النسخه المصورة) - جـ٢ - لوحة ١٣٦٦ ؛ المقريزى : الخطط - جـ١ - ص ٢٢١ ؛ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - جـ١ قسم ٢ - ص ٣٥٠ .
راجع أيضا : Joinville, op. cit., 120; Rothelin, op. cit., 605.

عندما كانت تتعرض لعدوان صليبى ، يبادر الشعب السورى بالهجوم على معاقل اللاتين بالساحل الشامى ، وذلك بقصد مضايقتهم ومحاولة صرفهم عما هم قادمون عليه • وكان هذا هو نفس ما يحدث عندما تتعرض بلاد الشام لعدوان غربى ، فيبادر المصريون بمساندة اخوانهم فى الشمال ضد العدو المشترك (١) •

وغير خاف أنه وجد كذلك ارتباط روحى قوى بين العرب فى المشرق والمغرب خلال تلك الحقبة من الزمن • فبينما كان الاولون يجاهدون ضد الفرنج فى شرقى البحر المتوسط ، كان اخوانهم المغاربة يجاهدون هم ايضا ضد الاوروبيين فى غربى ذلك البحر (٢) •

---

(١) نجد امثلة لذلك فى الكتب التالية ابن واصل : مفرج الكروب (النسخة الخطية المصورة) ج٢ - لوحة ٣٥٧ ب ؛ المقريزى :السلوك- ج١ قسم ٢ - ص ٣٣٧ ، أنظر ايضا الحقائق التاريخية الهامة المتعلقة بوحدة مصر وسوريا فى العصر الاسلامى ، والتى أشار اليها الدكتور جمال الدين الشيال فى مستهل محاضرته « وحدة مصر وسوريا فى العصر الاسلامى » - ص ٣ و ٩ راجع :
G Wiet, Histoire de la Nation Egyptienne, IV, Paris, 1937, 379.

(٢) أنظر سعد زغلول عبد الحميد « العلاقة بين صلاح الدين وابى يوسف يعقوب » - مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - المجلدان السادس والسابع - الاسكندرية ١٩٥٢ - ١٩٥٣ - ص ٨٤ وما بعدها • وفيما يتعلق بالصراع الدائر فى المغرب العربى بين المسلمين والمسيحيين فى القرن العاشر الميلادى ، أنظر السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس - بيروت ١٩٦٣ - ص ٢٨٩ - ٢٩١ و٣٣١ - ٣٣٢ • كما استعرض الدكتور السيد عبد العزيز سالم فى كتابه : المغرب الكبير - الجزء الثانى : العصر الاسلامى - الاسكندرية ١٩٦٦ ، جهاد المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ضد الممالك =

وقد لعب المغرب فى العصر الاسلامى الوسيط دوره فى الجهاد ضد الصليبيين • فبالاضافة الى اسهامه فى الجهاد فى الاندلس ضد الممالك المسيحية فى شمال البرتغال فى عصر المرابطين والموحدين ، وفيما بعد فى عصر بنى نصر ، وهو جهاد لم ينقطع خلال القرون السادس والسابع والثامن الهجرية (القرون ١٢ _ ١٤ م) ، وذلك على الرغم من مؤامرات سلاطين غرناطة واتفاقهم مع القشتاليين ضد بنى مرين _ بالاضافة الى ما تقدم فان المغرب العربى ساهم أيضا فى مدافعة الصليبيين الغربيين فى مصر والشام ، وبخاصة ابان التكتل العربى فى منطقة الشرق الادنى الذى يتضح فى عصر صلاح الدين الايوبى (١) •

فكل هذا يعبر فى الواقع عن وحدة متينة ، ربط فيها الجهاد ضد العدو المشترك بين العرب جميعا من المحيط الى الخليج •

= النصرانية فى اسبانيا • انظر صفحات ٧١٨ _ ٧٣٨ و ٧٩٨ _ ٨٠١ و٨٠٥ _ ٨١٥ و ٨١٩ _ ٨٢٨ من الكتاب المذكور • راجع أيضا ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس _ ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمى _ القاهرة ١٩٥٦ _ ص ١٢٠ وما بعدها وص ٢٤٥ ؛ وكذلك محمد العروسى المطوى : الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب _ تونس ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤م ص ١٣٥ وما بعدها •

انظر ايضا Painter, op. cit., 191 ff.

(١) انظر الخطابات المرسلة من صلاح الدين الى ملك المغرب يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن ، والى رسوله لدى الملك المذكور سيف الدولة ابن منقذ ، فى كتاب ابن واصل : مفرج الكروب _ نشر الدكتور جمال الدين الشيال _ جـ٢ _ ص ٤٩٦ _ ٥١٧ • راجع ايضا مقال الدكتور السيد عبد العزيز سالم وعنوانه « الصلات التاريخية بين مصر والشام فى العصر الاسلامى » _ مجلة العلوم _ بيروت _ مارس ١٩٦٢ • يرجع أيضا الى المراجع الواردة بالحاشية السابقة •

عاشرا : تقودنا الآراء والنقاط السابقة الى نتيجة اخيرة تتعلق بفكرة الوحدة العربية المتكاملة ، وعما اذا كانت مثل هذه الهزات العنيفة التى كان العالم العربى فى العصر الاسلامى يتعرض لها بين وقت وآخر هى السبب فى خلقها ، أم أنها كانت أعمق من ذلك بكثير ، وأن تلك الهزات كانت مجرد عامل ساعد على ايقاظها وبعثها من مرقدها ، أو بكلمة أخرى أيهما أسبق الوحدة أم اليقظة ؟

تعرض لهذا الموضوع بعض الكتاب الحديثين ، نذكر منهم جوستاف فون جرونيباوم G. Von Grunebaum ، وكلود كاهن الفرنسى C. Cahen (١) • وخلاصة رأيهما ان الخطر الصليبى لم يكن الدافع الاساسى لحركة الوحدة العربية ، التى يمكن ارجاع أصولها الى ما قبل قيام الحركة الصليبية نفسها بفترة غير قصيرة • كما ذكرا أن الاستعمار الغربى لم يهدد اطلاقا قلب العالم العربى ولم يستطع بالرغم من كل شىء ان ينفذ الى صميمه • وهذه حقيقة واضحة • فلم يستطع الصليبيون فى أقصى تقدم لهم ، بل لم يستطيعوا على الاطلاق التوغل فى قلب العالم العربى ، ولم يصلوا بالمرة الى مدن مثل القاهرة او دمشق أو بغداد أو حلب أو الموصل • وكل ما أمكنهم الاستحواذ عليه ، شريط ضيق مستطيل على امتداد الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، كان ينكمش ويمتد تبعا للظروف والاحوال فى كلا العالمين الغربى والعربى • فضلا عن بعض الجزر البحرية التى كان اللاتين يتحصنون بها ، ويشنون منها عدوانهم على بلدان الشرق الادنى • وكان يهم الفرنج الاستحواذ على المناطق الساحلية بصفة خاصة حتى يكونوا على مقربة من ديارهم بالغرب اذا دعا داعى الهرب •

---

(١) أنظر جرونيباوم (جوستاف فون) : حضارة الاسلام - ترجمة عبد العزيز جاويد - القاهرة ١٩٥٦ - ص ٥٠ و ٥٢ ، وكذلك C. Cahen, La Syrie du Nord a l'époque des croisades, Paris, 1940, 374 — 377.

وكيفما كان الامر ، فان جرونيباوم وكاهن ، وان لم يبتا برأى نهائى فى هذا الموضوع ، الا أن أحدث البحـــوث التاريخية والاثرية اثبتت وجود الوحدة العربية منذ ان وجد العرب ، وذلك فى ناحية هامة من نواحى الحضارة العربية ، ونعنى بها الفنون التى تعتبر مرآة صادقة تنعكس عليها آمال الشعوب ومثلهم ومبادئهم وأفكارهم ومنهاجهم فى الحياة (١) • واذا تتبعنا هذه النظرية فى شتى مناحى الحضارة والحياة عند العرب من المحيط الى الخليج ، نجد أنها نظرية أصيلة يؤيدهـــا الواقع ، وتعبر عن وحدة عضوية شاملة لها أصولها وجذورها وعناصرها منذ قرون عديدة مضت • وحدة فى اللغة ، وفى الاصل ، وفى الجنس ، وفى الارض ، وفى التاريخ • فضلا عن وحـــدة فى التقاليد والعادات والثقافة والنظم الاجتماعية (٢) • وحدة كانت تبعثها وتوقظها من غفوتها أحداث الزمان للوقوف أمام العدوان الاجنبى فى شتى صوره ومظاهره ، وفى مختلف عصوره ، وأيا كان مصدره (٣) • ومن حسن حظ المكتبة العربية أنها أصبحت الآن عامرة بالكتب والبحوث العلمية القيمة التى تتناول مقومات الوحدة العربية واسسها فى دراسة جادة واعية (٤) •

---

(١) أنظر عن ذلك أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ـ القاهرة ١٩٦١ ص ٤٣ ـ ٤٩ •

(٢) Cf. B. Lewis, The Arabs in History, London, 1958, 6 - 13.

(٣) أنظر جمال الدين الشيال : وحدة مصر وسورية ـ ص ٣ •

(٤) تناول الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى فى كتابه « الكيان العربى بين المقومات والامكانيات ـ بيروت ١٩٦٥ » ، بالدراســـة والبحث والتعريف ، الكيان القومى العربى وأسسه ومقوماته • أنظر أيضا المراجع المتعلقة بالقومية والوحدة العربية فى كتابى : العرب والروم واللاتين ـ ص ٢٤٦ ح١ •

وعلى هذا يجب أن نفرق بين فكرة الوحدة العربية كحقيقة تاريخية لها أصولها وجذورها ومقوماتها ، وبين حركات اليقظة والافاقة التى كانت تنبعث عندما يستشعر العرب الخطر ، ويفيقون من سباتهم : فكان هذا ، بطبيعة الحال ، مما يذكى تلك الوحدة ويؤكد أصالتهـا ووجودها .

وللعروبة تاريخ طويل مع الاستعمار حافل بألوان التضحيـة والجهاد والاستشهاد فى سبيلها عن عقيدة وايمان . ولقد استمرت هذه الرابطة العربية المقدسة تؤدى دورها بنجاح تام ، وتدفع عن العروبة غائلة المعتدين ، وبخاصة عندما تشتد الازمات ويدق ناقوس الخطر . وكثيرا ما اثار هذا ذعر الغزاة ، وأوقع الخبل والاضطراب فى صفوفهم . فكانوا يتحينون الفرص للنيل منها والتشكيك فيها . كما كانوا يستخدمون سلاحهم المعروف ، سلاح الفرقة والايقاع وبذر بذور الخلاف بين ابناء الوطن العربى الواحد تحقيقا لاطماعهم واتجاهاتهم الاستعمارية . وكانت جهودهم فى هذا السبيل تذهب فى عصور القوة والتكتل العربى هباء منثورا (١) .

واخيرا ، وليس بآخر ، فان الآراء والاستنتاجات التى توصلنا اليها فى هذه الدراسة التحليلية للعدوان الصليبى على الشرق الادنى العربى ليست مجرد صدفة . انما هى ظواهر طبيعية منطقية تنير السبيل امام الشعوب العربية فى حاضرها ، وهى تستجمع قواها وتكتل جهودها من أجل مستقبل أفضل . وهى ايضا احكام وقواعد صحيحة ، أشبه بالقوانين العلمية التى لا تخطىء . فضلا عما فيها من عظات وعبر ودروس .

---

(١) تعرضنا بايجاز للاستنتاجات الثلاثة الاخيرة فى كتاب العرب والروم واللاتين _ ص ٢٤٢ وما بعدها .

ثم ان هذه الافكار يمكن ان تنبثق عنها آراء ونظريات أخرى جديدة غد تغير الكثير من الشائع المعروف عن الحركة الصليبية • وبعضها لايزال ينتظر دراسات دقيقة مستفيضة تسد نقصا في زاوية من زوايا العدوان الصليبي لايزال الغموض يكتنفها ، أو تعدل وجهة نظر في حاجة الى التصحيح والتصويب •

من هذه الافكار نذكر ، على سبيل التمثيل ، فكرة انتقال العدوان الصليبي من الشام في الشمال الى الديار المصرية في الجنوب مبكرا في القرن السادس الهجرى وخلال القرن السابع الهجرى (ق١٢ – ١٣م) ، وفكرة الجهاد في الاسلام والحرب المقدسة عند المسيحيين الغربيين وأثر الجهاد المقدس بالنسبة للعرب كفرض واجب الاداء في دفع العدوان الصليبي عن اراضيهم ومقدساتهم ، وترابط مصالح الغربيين والمغول في فترة من فترات العدوان الصليبي ضد العرب في الشرق الادنى ، وفكرة تغير توازن القوى في الصراع بين اللاتين والعرب ، مع بيان الاسباب والمسببات المؤدية اليه والنتائج والآثار المترتبة عليه ، وفكرة مركز الثقل بين شقي العالم وقتذاك وفلسفتها ، وما يتصل بها من التزام سياسة معينة دفاعية كانت أم هجومية ، والفوارق الدقيقة بين الوحدة واليقظة والتجمع العربي العادى ، وما يعنيه كل مصطلح من هذه المصطلحات الثلاثة وايديولوجيته ، ثم دور الحركة الصليبية كحركة توسعية استعمارية اتسمت بالبربرية والتعصب والعنف في انماء الروح القومية عند العرب ضد الغزاة ، وموقف جزيرة قبرص عندما كانت مصدر متاعب لمصر وبقية دول الشرق العربي بسبب قربها منها من ناحية وقربها من مراكز امداداتها بالغرب الاوروبي من ناحية اخرى • وكذلك الصلة بين العدوان الصليبي الغربي وبين وجود قوة عربية ضاربة تحمي مصر والشرق العربي وتضمن للعروبة الامن والسلامة ، ولماذا وجب أن تكون القوات البرية في الاراضي العربية والقوات البحرية في المياه العربية في حالة يقظة دائمة وتفوق واضح ، ثم دور الشعوب العربية

فى المغرب الاسلامى فى المساهمة فى مدافعة العدوان الصليبى عن دول الشرق الادنى • واخيرا دور القاهرة باعتبارها قلعة النضـال والدرع الواقى للعالم العربى ضد أى عدوان خارجى يقع عليه •

كل فكرة من هذه الافكار يصح ان تكون نواة لدراسات تحليلية مستقلة تثمر بحوثا طيبة تضيف جديدا الى العلم والتاريخ والتراث الانسانى بوجهعام ، والى العرب والعروبة والمكتبة العربية بوجه خاص•

مصادر البحث ومراجعـــه

أولا ـ المصـــادر الأصلية :

(أ) المصـــادر العربيـــة

ابن الاثير الجزرى (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٤م) أبو الحسن على بن ابى الكرم الملقب عز الدين :

١ ـ منتخبات من كتاب « الكامل فى التاريخ » ، أنظر :
R.H.C.-.H.Or., t. I, Paris, 1872 & t. II, le partie, Paris, 1887.

٢ ـ « تاريخ الدولة الاتابكية ملوك الموصل » ، أنظر :

R.H.C. - H.Or., t. II, 2e. partie, Paris, 1876, 5 - 375.

ابن الشحنة (ت ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م) أبو الفضل محمد :

الدار المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ـ بيروت ١٩٠٩ ·

ابن شداد (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٨م) أبو المحاسن يوسف بن رافع ابن تميم :

سيرة صلاح الدين « السـيرة اليوسـفية » المســماه بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٦٤ ·

ابن العماد (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م) أبو الفلاح عبد الحى بن على ابن محمد :

شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ـ٨جـ القاهرة ١٣٥٠ـ١٣٥١هـ··

ابن القلانسى (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) أبو يعلى حمزة بن أسـد على بن محمد :

ذيل تاريخ دمشق ـ بيروت ١٩٠٨ ·

ابن كثير القرشى (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر :

البداية والنهاية فى التاريخ - ١٤ج - القاهرة ١٣٥١ - ١٣٥٨هـ ٠

ابن مماتى (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) أبو المكارم أسعد :

كتاب قوانين الدواوين - القاهرة ١٩٤٣م ٠

ابن منكلى (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦ - ١٣٧٧م) محمد بن منكلى :

كتاب الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر - نسخة بالتصوير الشمسى بمكتبة آداب الاسكندرية ٠

ابن واصل (٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم :

١ - مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب - ٢ج - نسخة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٥١٩ تاريخ ٠

٢ - مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب - ٣ج - (حتى سنة ٦١٥ هـ) - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠ ٠

ابن الوردى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد :

تتمة المختصر فى أخبار البشر - ٢ج - القاهرة ١٢٨٥ هـ ٠

أبو شامة (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) عبد الرحمن بن اسماعيل :

تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين - القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م ٠

أبو الفدا (٧٣٢هـ / ١٣٣١م) الملك عماد الدين أبو الفدا اسماعيل ٠

المختصر فى أخبار البشر - ٤ج - استانة ١٢٨٦هـ ٠

أبو المحاسن (٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردى :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - جـ٦ - القاهرة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م ٠

أبو الفرج (٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) غريغوريوس أبو الفرج الملطى :
تاريخ مختصر الدول - بيروت ١٨٩٠ ٠

السيوطى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين :

حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة - ٢جـ - القاهرة ١٣٢٧هـ٠

عماد الدين الاصفهانى (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) أبو عبد الله محمد ابن صفى الدين :

الفتح القسى فى الفتح القدسى - القاهرة ١٣٢١هـ ٠

القلقشندى (٨٢١هـ / ١٤١٨م) أحمد بن على بن أحمد عبد الله :

صبح الاعشى فى صناعة الانشا - ١٤جـ - القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠ ٠

الكتبى (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) محمد بن شاكر :

عيون التواريخ - نسخة بالتصوير الشمسى لمجلد مكتوب عليه انه الجزء العشرون ، وهو يبتدىء من سنة ٦٤٥هـ وينتهى الى سنة ٦٧٠هـ - محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٩٧ تاريخ ٠

المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقى الدين أبو العباس أحمد :

١ - المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار - القاهرة ١٢٧٠ هـ٠

٢ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزءان الاول والثانى ، كل فى ثلاثة أقسام (حتى سنة ٧٥٥هـ) - نشر وتحقيق الدكتور محمد مصطفى زياده - القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ ٠

٣ - كتاب اغاثة الامة بكشف الغمة - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال والدكتور محمد مصطفى زياده - القاهرة ١٩٤٠ ٠

٤ ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ـ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٤٨ ·

النويرى (٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) شهاب الدين أحمد :

نهاية الارب فى فنون الادب ـ ٥٥ مجلدا ـ نسخة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة ·

(ب) المصادر الأجنبية

Albert d'Aix, Historia Hierosolimitana. Ed. R.H.C. - H.Occ., IV. Paris, 1879. (pp. 265 - 713).

Ambroise, The Crusade of Richard Lion-Heart, trans. from the Old French by M. J. Hubert. New Pork, 1941.

Anna Comnena, The Alexiad. English Trans. by Elizabeth A. S. Dawes. London, 1928.

Baudri de Bourgueil, Historia Jerosolimitana. Ed. R.H.C. - H.Occ., IV. Paris, 1879. (pp. - 111).

Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Outremer. Ed. R.H.C. - H.Occ., t. II. Paris, 1859. (pp. 1 - 181).

Foucher de Chartres, Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium. Ed. R.H.C. - H.Ccc., III. Paris, 1866. (pp. 311 - 485).

Grégoire le Prêtre, Chronique. Ed. R.H.C. - Doc. Arm., I. Paris, 1869 (pp. 151 - 201).

Guibert de Nogent, Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos. Ed. R.H.C. - H.Occ., IV. Paris, 1879. (pp. 113 - 263).

Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum. Ed. R.H.C. - H.Occ., t. I, 2e. partie. Paris, 1844. (pp. 1 — 1134).

Hagenmeyer, H. (ed.), Epistolae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes, 1901.

Jean de Joinville, Histoire de Saint Louis. Ed. M. N. de Wailly. Paris, 1874.

Matthieu d'Edesse, Extraits de la Chronique de Matthieu d'Edesse. Ed. R.H.C. - Doc. Arm., t. I. Paris, 1869. (pp. 1 - 180).

Raimond d'Agiles, Historia Francorum que ceperunt Iherusalem. Ed. R.H.C. - H.Occ., III. Paris, 1866. (pp. 231 - 307).

Robert le Moine, Historia Iherosolimitana. Ed. R.H.C. - H.Occ., III, Paris, 1866. (pp. 717 - 882).

Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin (1229 - 1261). Ed. R.H.C. - H.Occ., II. Paris, 1859. (pp. 489 - 639).

Vartan le Grand, Extrait de l'histoire universelle. Ed. R.H.C. - Doc. Arm., I. Paris, 1869. (pp. 431 - 443).

ثانيا ــ المراجع الحديثة :

(أ) المراجع العربية والمعربة

احمد فكرى (دكتور) : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ــ القاهرة ١٩٦١ ٠

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

١ ــ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ــ بيروت ــ ١٩٦٣ ٠

٢ ــ المغرب الكبير ــ الجزء الثانى : العصر الاسلامى ــ الاسكندرية ١٩٦٦٠

٣ ــ الصلات التاريخية بين مصر والشام فى العصر الاسلامى ــ مقال بمجلة العلوم ببيروت ــ عدد مارس ١٩٦٢ ٠

باركر (ارنست) : الحروب الصليبية - ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى - القاهرة ١٩٦٠ ·

بروفنسال (ليفى) : الاسلام فى المغرب والاندلس - ترجمة الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى - القاهرة ١٩٥٦ ·

جرونيباوم (جوستاف فون) : حضارة الاسلام - ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - القاهرة ١٩٥٦ ·

جمال الدين الشيال (دكتور) :

١ - مصر والشام بين دولتين - القاهرة ١٩٤٧ ·

٢ - مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا - الاسكندرية ١٩٤٩ ·

٣ - الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور الى الوقت الحاضر - القاهرة ١٩٥٢ ·

٤ - وحدة مصر وسورية فى العصر الاسلامى - المحاضرة الثانية من المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية فى العام الجامعى ٥٧ / ١٩٥٨ - الاسكندرية ١٩٥٨ ·

٥ - مجموعة الوثائق الفاطمية - الجزء الاول : وثائق الخلافة والوزارة - الطبعة الثانية - الاسكندرية ١٩٦٥ ·

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١ - العدوان الصليبى على بلاد الشام - ط · خامسة - الاسكندرية ١٩٨٤ ·

٢ - هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل - القاهرة ١٩٦٠ ·

٣ - العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى - ط · رابعة - الاسكندرية ١٩٨٣ ·

٤ - الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية - مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - العدد ١٦ - السنة ٦٢/١٩٦٣ - الاسكندرية ١٩٦٣ - (ص ١٨٣ - ٢١١) ·

حسن حبشى (دكتور) :

١ ـ الحرب الصليبية الاولى ـ القاهرة ١٩٤٧ ·

٢ ـ نور الدين والصليبيون ـ القاهرة ١٩٤٨ ·

٣ ـ الشرق العربى بين شقى الرحى « حملة القديس لويس على مصر والشام ـ القاهرة ١٩٤٩ ·

ديفز (ه·و·) : أوروبا فى العصور الوسطى ـ ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ـ الاسكندرية ١٩٥٨ ·

سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور يوسف بن عبد المؤمن الموحدى ـ مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ المجلدان السادس والسابع (١٩٥٢ ـ ١٩٥٣) ـ الاسكندرية ١٩٥٣ · (ص ٨٤ ـ ١٠٠) ·

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

١ ـ قبرس والحروب الصليبية ـ القاهرة ١٩٥٧ ·

٢ ـ الحركة الصليبية ـ صفحة مشرقة فى تاريخ الجهـــاد العربى فى العصور الوسطى ـ جزءان ـ القاهرة ١٩٦٣ ·

عارف باشا العارف : تاريخ القدس ـ القاهرة ١٩٥١ ·

عبد الفتاح عباده : سفن الاسطول الاسلامى وأنواعها ومعداتها فى الاسلام ـ القاهرة ١٩١٣ ·

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

١ ـ الناصر صلاح الدين الايوبى ـ القاهرة ١٩٥٨ ·

٢ ـ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ـ بيروت ١٩٦٦ ·

عمر كمال توفيق (دكتور) :

١ ـ مملكة بيت المقدس الصليبية ـ الاسكندرية ١٩٥٨ ·

٢ ـ الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الاراضى المقدسة (٩٦٣ ـ ٩٦٩م) ـ الاسكندرية ١٩٥٩ ·

كلارى (ر٠) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ـ ترجمة وتقديم الدكتور حسن حبشى ـ القاهرة ١٩٦٤ ٠

كوبلاند (ج٠و٠) (وفينوجرادوف (ب) : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ـ ترجمة الدكتور محمـــد مصطفى زياده ـ القاهرة ١٩٥٨ ٠

كولتوف (ج٠ج٠) عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ـ ترجمة وتعليق د ٠ جوزيف نسيم يوسف ـ ط ٠ رابعة ـ الاسكندرية ١٩٨٣ ٠

لطفى عبد الوهاب يحيى (دكتور) : الكيان العربى بين المقومات والامكانيات ـ بيروت ١٩٦٥ ٠

محمد مصطفى زياده (دكتور) : حملة لويس التاسـع على مصر وهزيمته فى المنصورة ـ القاهرة ١٩٦١ ٠

ميخائيل عواد : المآصر فى بلاد الروم والاسلام ـ بغداد ١٩٤٨م ٠

هارتمان (ل٠م٠) (وباراكلاف) (ج٠) : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ـ ترجمة وتعليق د ٠ جوزيف نسيم يوسف ـ ط ٠ رابعة ـ الاسكنندرية ١٩٨٤ ٠

(ب) المراجـــع الأجنبيـــة

Atiya. A. S.,

1 — The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938.

2 — Crusade, Commerce and Culture. Bloomington. 1962.

Baldwin, M. W., The Mediaeval Church. New York, 1960.

Bréhier, L., L'Eglise et l'Orient au moyen âge. Paris, 1928.

Cahen, C.,

1 — La Syrie du Nord a l'époque des Croisades. Paris, 1940.

2 — Un traité d'armurerie composé pour Saladin, Bulletin d'Etudes Orientales, t. XII, 1947 - 1948.

Calmette, J., Le Monde Féodal. Paris, 1937.

Cantor, N. F. (ed.), The Medieval World: 300 - 1300. New York, 1963.

Gabrieli, F., Les Arabes (Gli Arabi). Traduit de l'Italien par Marie de Wasmer. Paris. 1963.

Grousset, R.,

1 — Histoire des Croisades. 3 vols. Paris, 1948.

2 — The Sum of History. Oxford, 1951.

Hamdy, A. H.,

1 — «The Western Attitude to Islam as Viewed by Arnold of Lübeck,» Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Vol. X, Dec. 1956, Alexandria, 1956 (pp. 77 - 84).

2 — «Philippe de Mézières and the New Order of the Passion,» Bulletin of the Faculty of Arts. Alexandria University. Part I, Vol. XVII - 1963, Alexandria, 1964, (pp. 45 - 56); Part II, Vol. XVIII - 1964, Alexandria, 1964, (pp. 1 - 41).

Hitti, P. K., History of the Arabs from the Earliest Times to the Present. London, 1964.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1960.

LaMonte, J. L., The World of the Middle Ages. New York, 1949.

Lane - Poole, St.,

1 — The Story of Cairo. London, 1924.

2 — A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1936.

Lewis, B., The Arabs in History. London. 1958.

Lot, F., Les Invasions Barbares. Paris, 1942.

Masson, G., Medieval France. London, 1888.

Oman, Ch., A History of the Art of War in the Middle Ages. _. Vols. London, 1924.

Painter, S., A History of the Middle Ages: 284 - 1500. London, 1966.

Pirenne, H.,

1 — Medieval Cities. Trans. from the French by F. D. Halsey. Princeton, 1948.

2 — Economic and Social History of Medieval Europe. London. 1961.

Pirenne, J., Les Grands Courants de l'Histoire Universelle. T. II: de l'Expansion Musulmane aux Traités de Westphalie. Neuchatel, 1947.

Riant, P., Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades. Ed. A. O. L., I. Paris, 1881 (pp. 1 - 224).

Runciman, S., A History of the Crusades. 3 vols. Cambridge, 1954 - 5.

Setton, K. M. (ed.), A History of the Crusades. Vol. I : The First Hundred Years, ed. by M. W. Baldwin. Philadelphia, 1958.

Stevenson, W., The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire. New York, 1960.

Trevelyan, G., A Shortened History of England. Aylesbury, 1960.

Wiet, G., Histoire de la Nation Egyptienne. t, IV: l'Egypte Arabe de la conquête Arabe a la conquête Ottoman. Paris. 1937.

بيـــان بالمختصرات

A.O.L.	— Les Archives de l Orient Latin.
R.H.C. - Doc. Arm.	— Recueil des Historiens des Croisades. Documents Armeniens.
R.H.C. - H.Occ.	— Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Occidentaux.
R.H.C. — H.Or.	— Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Orientaux.

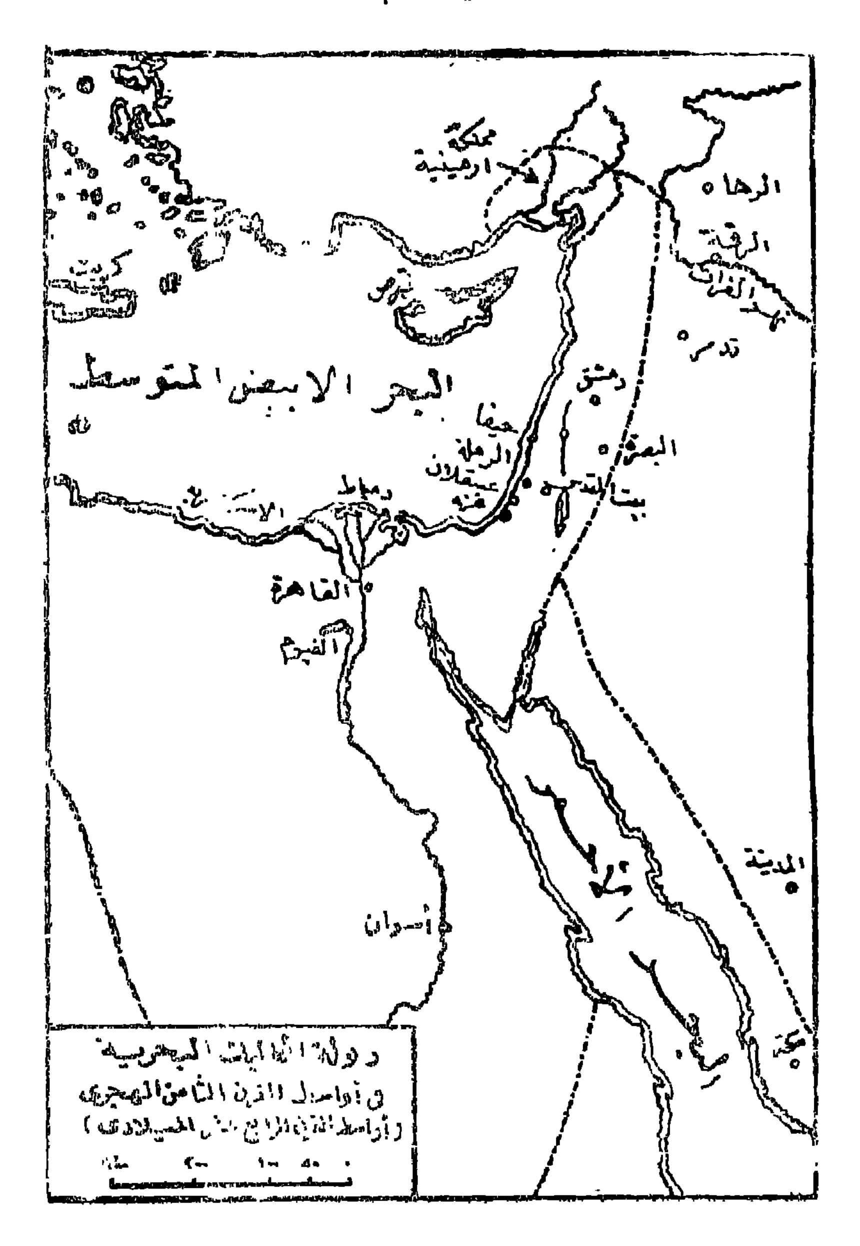
الخـــرائط

خريطة رقم ١ دولة المماليك البحرية فى أواسط القرن الثامن الهجرى (أواسط ق ١٤م) .

حريطة رقم ٢ المستعمرات اللاتينيـة فى الشرق الادنى العـربى ابان العدوان الصليبى .

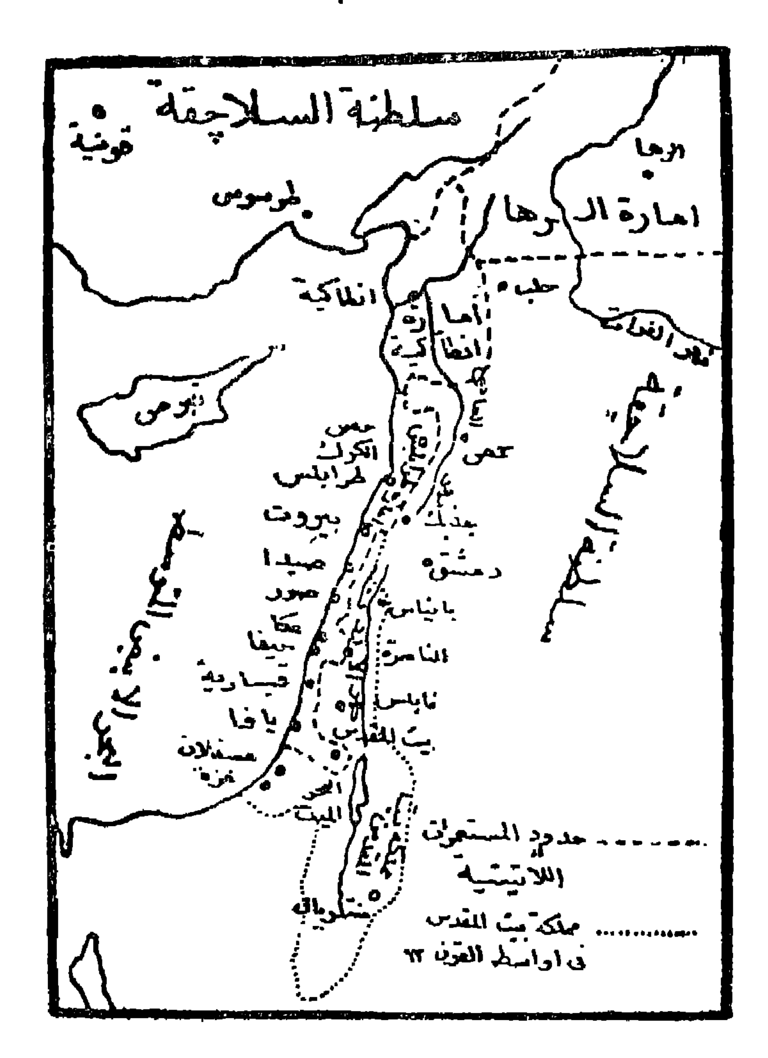


خريطة رقم ١


مملكة ارمينية
الرها
الرقة
نهر الفرات
تدمر
قبرص
كريت
البحر الابيض المتوسط
دمشق
حيفا
الرملة
عسقلان
غزة
البصرة
بيت المقدس
دمياط
الإسكندرية
القاهرة
الفيوم
أسوان
المدينة
مكة
دولة المماليك البحرية
في أواسط القرن الثامن الهجري



خريطة رقم ٢



المستعمرات اللاتينية فى الشرق الأدنى العربى

ابان العدوان الصليبى



فهــــرس أبجــــدي عــــام



(أ)

(ج)

(خ)

(د)

(ع)

(ق)

(م)

(ن)

(هـ)

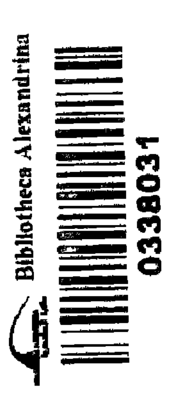
(و)










Bibliotheca Alexandrina
0338031